

الدولة العربية المتحدة بالمغرب الإسلامي

عظمى اتحادها مع الوطن العربي والمسلم والافريقي
(١٩٦٠ - ١٩٦٩ م)

محمد عيسى الموريني

Bibliotheca Alexandrina
0130633



الدولة الرستميّة بالمغرب الإسلامي
(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)
(١٦٠ هـ - ٢٩٦ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح والدي : حباً ووفاء

الدولة الإسلامية بالبحر الأبيض المتوسط

مضارحها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس
(١٦٠ هـ - ٢٩٦ هـ)

دكتور

محمد عيسى الحويدي

كلية الآداب - جامعة المنصورة



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
(مزیلة ومنقحة)
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

دار القلم للنشر والتوزيع

م.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 (لعمركم)
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - بريد إلكتروني: info@daralqalam.com



تقديم

بقللم

الأستاذ الدكتور / إبراهيم أحمد العدوى

نائب رئيس جامعة القاهرة

المغرب العربي هو الجناح الأيسر للإسلام ، على نحو ما جاء في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، اعترافاً منهم بأهمية النور الذي قام به مع قرينه المشرق العربي ، وهو الجناح الأيمن للإسلام ، وذلك من أجل النهوض بعالم الإسلام ، والتحليق به عالياً في آفاق السيادة العالمية والمجد والسلطان . وقد جاء هذا الارتباط الوثيق بين المغرب العربي وقرينه المشرق العربي وليد الفكر السياسي الذي نهل منه كل منهما ، وذلك منذ القرن الأول للهجرة بأحداثه الجسام في بناء الدولة الإسلامية ، ودعم أجهزتها السياسية المبكرة .

ويوضح هذا الكتاب الذي يقدمه لنا الدكتور محمد عيسى الحريري ، تلك النبايع الثرة للفكر السياسي الإسلامي التي تزود منها المغرب العربي ، وهي نفس النبايع التي تفجرت في المشرق العربي ، ولا سيما تلك التي فجرها الخوارج بجماعاتهم العديدة التي انتشرت في شتى أرجاء الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . ونال المغرب من تلك الفرق الثنتين : أحدهما : هي الصفرية ، والأخرى هي الإباضية . ويتبع هذا المؤلف القيم للدكتور الحريري هاتين الفرقتين ، وكيف أن انتقال القيادة من الصفرية إلى الإباضية جاء خط تقسيم واضح في طلائع البناء السياسي للمغرب الإسلامي ، وما شاهده من سيادة على عهد « الدولة الرستومية » . وهي الواجهة الأولى للإباضية وفكرهم السياسي الإسلامي .

وزاد من قوة هذا البناء السياسي الرائد في المغرب الإسلامي اتخاذ

« الدولة الرستمية » لسياسة حسن الجوار منهاجا لها في علاقاتها مع القوى الخارجية والداخلية أيضا ، وهو أمر لم يعرف له المغرب مثيلا في تاريخه السابق على انتشار الإسلام . إذ كفلت تلك السياسة للمغرب العربي أن يكون مركز الدائرة للنشاط الإسلامي الواسع ، على شتى معالقه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ليس في الأرجاء الأفريقية المجاورة للمغرب العربي فحسب ، ولكن في الأرجاء القريبة منه أيضا في غرب أوروبا . واستطاع المغرب الإسلامي بذلك أن يسهم منذ فجر كيانه السياسي الإسلامي في حل لواء الوحدة بين أرجاء الدولة الإسلامية الفتية ، ويترك تراثا زاخرا للأجيال المتعاقبة من أبناء الأمة الإسلامية في سبيل الحفاظ على سيادتهم السياسية وأمجادهم الحضارية .

وهذه المعالم الهامة وغيرها مما يتناوله كتاب « الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي » تؤكد القيمة العلمية الطيبة لهذا الجهد الصادق الذي بذله الدكتور محمد الحريري في ميدان الدراسات الإسلامية ، والمساهمة في بحث الحياة من جديد في الجناح الأيسر للإسلام ، وإعادة سالف أمجاده ورسائله الحضارية الإسلامية .

دكتور إبراهيم أحمد العلوي

القاهرة في : ٢٥ محرم ١٤٠٠ هـ

١٥ ديسمبر ١٩٧٩ م

مقدمة الطبعة الأولى

هذه دراسة حول « الدولة الرستمية » تلك الدولة التي يمثل قيامها في بلاد المغرب ظاهرة لها أهميتها الحيوية في تاريخ تلك المنطقة من العالم الإسلامي . فهذه الدولة قامت نتيجة للجهود المضنية التي قام بها الخوارج الإباضية ، بعد أن انتقلت إليهم مقاليد الصراع من فرقة أخرى من الخوارج وهي فرقة الصفرية .

وفي الحقيقة أن الخوارج - ممثلين في هاتين الفرقتين - قفروا إلى بلاد المغرب - في أعقاب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب - رغبة منهم في الحصول على ميدان جديد ، ينشرون فيه تعاليمهم المناهضة لنظام الحكم الأموي القائم . وفي غمرة الصراع ، تتراجع جماعات الصفرية في بلاد المغرب ، بعد أن أفسد عليها تشدد هامة المخالفين لهم - كل أمل في النجاح ، بينما تقدم الإباضية إلى البربر بذهبيهم ، الذي اقترب في تعاليمه كثيرا من مذهب أهل السنة ، فلقى نجاحا كبيرا بينهم ، لما كانوا يعانون من عسف الولاة الأمويين والعباسيين في بلاد المغرب .

وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأن جهود « الخوارج الإباضية » هي المقدمات الحقيقية للبناء السياسي للمغرب الإسلامي ، لأن الإباضية في سنة ١٦٠ هـ ، تمكنوا من الانتقال بمذهبهم ، من مرحلة الدعوة إلى مذهبهم ، إلى مرحلة التطبيق العملي لمبادئهم ، حيث أسس عبد الرحمن بن رستم - زعيم الإباضية - « الدولة الرستمية » في المغرب الأوسط ، وأصبح هذا الزعيم الاباضي ممثلا لنظام حكم مثالي ، عملي لا نظري ، ملتزم بقواعد الدين الإسلامي .

ولم يقف تأثير قيام الدولة الرستمية في البناء السياسي للمغرب الإسلامي عند قيامها ، بل ظل قيام هذه الدولة - في بلاد المغرب وفي المغرب الأوسط بصفة

خاصة - يحدث تأثيره المباشر في هذا البناء السياسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري . إذ كانت « الدولة الرستمية » تمثل جدارا ضخما في المغرب الأوسط ، يحمي الأجزاء التي خلفه من أراضي المغرب الأقصى والأندلس ، ومن ثم أتاح ذلك ، للإدارة ، وبقايا الأمويين ، أن يقيم كل منهم دولته ، في هدوء وأمن من بطش العباسيين . بل إن المتتبع للأحداث يجد أن قيام الدولة الرستمية كان سببا في أن منحت الدولة العباسية ، لأسرة الأغالبة حق إقامة دولة لهم في إفريقيا ، وكان هدف العباسيين من وراء ذلك إيجاد نوع من توازن القوى في المنطقة ، يحفظ للخليفة العباسي هيته وتأمين نفوذه على الأقل في مصر ، وسيادته الاسمية على إفريقيا .

واقترضت طبيعة الدراسة أن أقسمها إلى تمهيد وخمسة فصول :

أما التمهيد فعالجته فيه الجغرافية الطبيعية والبشرية للمغرب الأوسط ، وفيه حاولت تحديد المغرب الأوسط ، ومدى ارتباط وضعه الجغرافي بقيام الدولة وتطورها وعلاقتها مع جيرانها ، كما عالج التمهيد عناصر التكوين السكاني للمغرب الأوسط في عهد الرستميين .

ويأتى بعد ذلك الفصل الأول وعنوانه « الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبل قيام الدولة الرستمية » وقد تمحورت في هذا الفصل أحداث الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، وأحداث عصر الولاة ، وكيف مهدت سياسة الولاة لانتشار الفكر الخارجي ، وما نتج عن ذلك من ثورة البربر . ثم بينت كيف أن انتقال قيادة الصراع في بلاد المغرب من أيدي الصفيرية إلى أيدي الاباضية كان ممهدا لقيام الدولة الرستمية الاباضية .

أما الفصل الثاني فتعنوانه : « قيام الدولة »

وقد تناول هذا الفصل نسب الرستميين ، وطلائع صلتهم بالمغرب ، وانتقال عبد الرحمن بن رستم إلى بلاد المغرب ، ثم رحيله إلى البصرة مع حملة العلم ، وعودته من البصرة وظهوره على مسرح الأحداث في المغرب ، وتحدثت عن التحججه إلى المغرب الأوسط بعد الضربات القوية التي تلقاها الاباضية

من العباسيين ، وكيف استطاع عبد الرحمن بن رستم بقوة شخصيته ، أن يجمع العناصر الاباضية من حوله ويعلمن قيام الدولة الرستمية في المغرب الأوسط سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) .

وفي الفصل الثالث الذى عنوانه : « تولد الدولة الرستمية وازدهارها » .

تبعته جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التى قام بها لتوطيد الدولة الرستمية ، وأعقب ذلك حديث عن أفلح بن عبد الوهاب وسياسته الداخلية ، وجهوده في ردع بعض التأثيرين عليه ، ثم دراسة عن ازدهار الدولة الرستمية في عهده .

وفي الفصل الرابع الذى عنوانه « خلفاء أفلح بن عبد الوهاب » .

تناولت بالعرض والتحليل الحرب الأهلية التى حدثت في عهد الإمام أبى بكر بن أفلح وجهود أخيه أبى اليقظان في إنهاء هذه الحروب التى انتهت بتولية منصب الإمامة . وتحدث الفصل عن مكونات شخصية الإمام أبى اليقظان المغربية والمشرقية ، وأثرها في استقرار الدولة ، وكيف وصل يعقوب بن أفلح إلى الامامة بصفة مؤقتة في تاهرت . وتعرضت لتدهور الدولة الأمر الذى أدى إلى سقوطها سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) .

وفي الفصل الخامس الذى عنوانه : « العلاقات الخارجية للرستمين » .

استعرضت هذه العلاقات على الترتيب مع العباسيين ، ومصر ، والأغالبة ، والأدارسة ، ودولة سجلماسة ، والسودان ، وأخيراً علاقة الرستمين بالأمويين في الأندلس . ثم يأتى بعد ذلك الفصل السادس : وهو عن حضارة الدولة وفيه تفصيل عن نظم الحكم والإدارة والحياة الاقتصادية والفكرية .
وختاماً : أحمد الله تعالى الذى وقفنى وأعاننى على إنجاز هذا العمل نعالصاً لوجهه الكريم انه ولى التوفيق .

د . محمد الحريرى

القاهرة مدينة المهندسين فى : ٦ من صفر ١٤١١ هـ

٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ م

مقدمة الطبعة الثالثة

أسجد لله تعالى شاكراً على نعمه وتوفيقه ورعايته وعونه ، وأدعوه
مخلصاً أن يوفقنا لخدمة تراثنا الإسلامى تاريخاً وحضارة ، إنه نعم المولى ونعم
النصير .

وبعد ..

أشكر كل من قرأ هذا الكتاب فى طبعته الأولى والثانية ، وزودنى
بملاحظاته القيمة ، وأقدم هذه الطبعة الجديدة تحمل دراسة عن تاريخ الرسمين
وعلاقاتهم الخارجية ببلدان العالم الإسلامى ، وكذلك دراسة عن حضارتهم فى
بلاد المغرب ، وهذه الدراسات وغيرها مما يحتويه الكتاب هى المقدمات
الحقيقية للبناء السياسى لبلاد المغرب الإسلامى

والله ولى التوفيق ..

د. محمد عيسى الحريرى

القاهرة — المهندسين : ٢٢ من ذى الحجة ١٤٠٧ هـ

١٧ أغسطس ١٩٨٧ م

تمهيد

الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمغرب الأوسط

ديار الرستميين :

قامت دولة الرستميين في المغرب الأوسط الذي يمثل جزءاً من كلمة عامة هي المغرب ، وقد أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التي تلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي (١) . ولم تكن بلاد المغرب معروفة بهذا الاسم عند الفاتحين المسلمين حينما زحفت جيوشهم على تلك البلاد (٢) . بل أطلق العرب

(١) ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبناني ، سبعة أجزاء ١٩٥٨ ، ج ٦ ، ص ٢٥١ ، ابن عسار : البيان المغرب ، ت ج س كولان ، ١ . لفي بروفسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٥ ، ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ت : محمد شلم المكنية العتيقة بتونس ، ط . الثالثة ١٣٧٨ هـ ، ص ٢٠ ، البغوي : كتاب البلدان ، مكتبة المقي يفتاد عن لندن ١٨٩٦ ، ص ٣٤٢ (اتبع معنى لفظ المغرب عند بعض الجغرافيين من أمثال الاصطخرى والمقدسي لتشمل المغرب عدما كل ما يلي مصر غرباً ابتداء من برقة حتى طنجة والسوس ويخلان ضمنه بلاد الأندلس ، بل إن مفهوم المغرب اتسع أكثر من هذ عند ابن خرداذبه مثلاً فيسمى كل المناطق الواقعة في غرب سمرن رأى والتي تقع في مسر غروب الشمس مغرباً ، والمناطق التي تقع في شرق سمرن رأى وتقع في مسر شروق الشمس مشرقاً . الإصطخرى : المسالك والممالك ، ت : د . محمد جابر عبد العال الحيني ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦١ ، ص ٢٣ ، المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة خياط بيروت ، ص ٢١٦ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك مكتبة المقي يفتاد ، ص ٤١ ، ٨٤ ، ١١٦)

(٢) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الآداب بالجماميز ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١ ، ٢

على بلاد المغرب اسم إفريقية الذى كان سائدا إذ ذاك لدى البيزنطيين (٣) .

وبامتداد حركة الفتح الإسلامى إلى ساحل المحيط الأطلسى ومنها إلى بلاد الأندلس أصبح لفظ إفريقية غير كاف لتحديد هذا المجال العظيم الذى انطلق فيه المسلمون . ومن ثم بدأ لفظ إفريقية يتقلص شيئا فشيئا بينما أخذ لفظ المغرب فى الظهور (٤) ، وأصبح مدلول إفريقية قاصرا على الإقليم الذى تتوسطه القيروان (٥) ، والذى يمتد من طرابلس (إطرابلس) شرقا حتى بجاية أو مليانة غربا ، وصلوات تعرف إفريقية فيما بعد (٦) .

كما ميز الجغرافيون العرب الأقاليم البعيدة من بلاد المغرب فأطلقوا عليها اسم المغرب أو « المغرب الأقصى » (٧) ، وفى نفس الوقت ظهر مصطلح المغرب الأوسط ، وذلك على نحو ما جاء عند البكرى (٨) ، وأصبح مجرى وادى ملوية

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب : ت : عبد النعم عاصر ، لجنة البيان العربى ١٩٦١ ، ص ٢٢٢ ، (إفريقية - يكسر الهمزة وهو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة محمد أمين الخاظمى ١٩٠٦ ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٤) د . حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٢

(٥) ابن أبي دینار : المؤسس فى أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٩ (القيروان - مدينة عظيمة بإفريقية) ياقوت : معجم البلدان ، ط : الخاظمى ، ج ٧ ، ص ١٩٣ .

(٦) اليعقوبى : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ت . على محمد البجاوى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط . الأول ١٩٥٤ م : ج ١ ، ص ١٠٠ ، ١٠٦ .
طرابلس : يحتج أوله وبعد الألف باء موحدة مضرومة ولام أيضا مضرومة وسن مهملة ، (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخاظمى ، ج ٦ ، ص ٣٤) .

بجاية : بالكسر وتضميم الجيم وألف وياء وهله - مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب (ياقوت : معجم البلدان : ط . الخاظمى ، ج ٧ ، ص ٩٢) .

مليانة : بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون . مدينة فى آخر إفريقية بينها وبين تونس قرينة أيام (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخاظمى ، ج ٨ ، ص ١٥٥) .

(٧) د . سعد رعلول عبد الحميد . تلويح المغرب العربى ، دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ١١ ، ١٢ .
أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثلث ببغداد ص ٧٦ .

(٨) ابن المنصور السابق . ونفس الصفحة

يمثل خط التقسيم الذي يفصل بين المغرب الأوسط والأقصى (٩) . وعلى هذا فالحد الشمالي للمغرب الأوسط الذي صار دارا للرستميين يبدأ من بجاية شرقا إلى وادي ملوية وجبال تازة غربا ، وهذه الواجهة الشمالية للمغرب الأوسط تطل كلها على البحر المتوسط ، وتمتاز بساحلها الصخري الصلب الذي تتدافع عليه الأمواج التي تزيد من حدتها الرياح الغربية ، بحيث يتعذر على السفن المعادية الاستقرار على الساحل ، وفي نفس الوقت توفرت في هذا الساحل ظاهرة الخلجان التي أقام عليها الرستميون موانئهم التي ربطت بلادهم ببلاد المغرب والأندلس ، وتمتد هذه الخلجان على هيئة أنصاف دوائر مثل خليج وهران ومستغانم وتونس وشرشال (١٠) .

وتمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط ، وقد ضمت هذه الصحراء كثيرا من العوامل التي سهلت قيام علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين الرستميين وجيرانهم في جهات السودان الغربي إذ حفلت هذه الصحراء بكثير من منابع المياه والواحات التي انتشرت في أنحائها فمكنت القوافل التجارية من القيام بمهامها الاقتصادية فجنى الرستميون من ورائها أرباحا طائلة ، دعمت أركان دولتهم . وأشهر هذه الواحات والقواعد الصحراوية في صحراء المغرب لأوسط قاعدة ورجلان (١١) .

(٩) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ١٢ - ١٤ .

(١٠) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠ ، ص ١٠ ، ٥٥٠ : تاريخ المغرب الكبير ، ط . أول ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ٥١٧ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، أحمد توفيق المني : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية في الجزائر ١٩٣٥ ، ص ١٦١ : ٢٤٥ .

وهران : بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره لون ، مدينة على البر الأعظم من المغرب ، (باقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجي ، ج ٨ ، ص ٤٣٦) .
مستغانم : مدينة بالقرب من مصب نهر شلف ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٩ .

تونس : (باقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجي ، ج ٨ ، ص ١٥٥) .
شرشال : (لكتاب مراكشي مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٢) .

(١١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ١٦ ، ٥ ، إبراهيم العلوي : بلاد =

أما الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فتتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعياً سهلت اتصال المغرب الأوسط بجهات إفريقية الجنوبية وإقليم طرابلس وجبل نفوسة حيث لا توجد هناك فواصل عرسية تعوق الانتقال بين المغرب الأوسط وبين هذه الجهات (١٢). وقد منح هذا الوضع الجغرافي الفريد الحركة الإباضية التي انطلقت منها الدولة الرستمية كثيراً من فرص النجاح، فالمعروف أن هذه الجهات كانت مهلاً للدعوة الإباضية قبل قيام الدولة الرستمية، وما أن فشل دعاة الإباضية في إقامة دولة لهم هناك، حتى انتقل كثير منهم إلى المغرب الأوسط، مستفيدين من هذا الوضع الجغرافي وهناك نجحوا في إقامة الدولة الرستمية الإباضية، وكان من الطبيعي بعد قيام هذه الدولة وتأكيد سلطانها في المغرب الأوسط أن تنضم هذه الجهات إليها وتصبح جزءاً منها.

بجانب هذه الحدود الطبيعية التي تمتع بها المغرب الأوسط كانت هناك عناصر السطح المتنوعة التي بسط الرستميون نفوذهم عليها فتمتد في أراضي المغرب الأوسط سلسلتا الجبال المعروفة باسم أطلس التل وأطلس الصحراء (١٣). ونحاذي أطلس التل ساحل البحر، فتقسم شمال المغرب الأوسط إلى ثلاث مناطق تتباين بعضها عن بعض وهذه المناطق هي المنطقة الساحلية، وهي منطقة سهول ضيقة غنية كثيرة السكان. وبلى هذه المنطقة: المنطقة التلية وهي الوجه الجبلي من جبال الأطلس الذي يلي البحر وهذه المنطقة أخصب جهات المغرب الأوسط وأغناها من حيث التربة والغابات ومن هاتين المنطقتين خرجت كثير من المحاصيل الزراعية وغيرها عن طريق الموانئ الرستمية إلى بلاد الأندلس (١٤).

الجزائر، ص ٦١، البروني: الأرهاط الرياضية ج ٢، ص ١٨٤، ابن خلدون، ط. دار الكتاب العربي، ص ٦٠، (وَزْجَلَان - بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون كسرة بين إفريقية وبلاد الجريد صارية في البر) باقوت: معجم البلدان، ط. الخليلي، ج ٨، ص ٩٤٤.

(١٢) د. إبراهيم رزق الله: المغرب العربي، معهد الدراسات الإسلامية، ص ٥.

(١٣) د. إبراهيم المصاوي: بلاد الجزائر، ص ١١.

(١٤) ابن سبيد المغربي: كتاب الجغرافيا، منشورات المكتبة التجارية بيروت، ط. أولى ١٩٧٠، ص ١٤٢، لكتاب مراکش من كتب القرن السادس الهجري: الاستيعار في عجائب الأمصار، ت. د. سعد زغلول عبد الحميد، ص ١٣٣.

أما المنطقة الثالثة فهي منطقة النجود أو الشطوط وتقع بين سلسلتى جبال الأطلس التلى والصحراوى . وهي منطقة فقيرة التربة قليلة المياه ، لا تسمح للإنسان بدوام الاستقرار لذا فهي قليلة السكان ضعيفة العمران (١٥) .

وتمتد بعد ذلك سلاسل جبال الأطلس الصحراوى وهي تنحدر شديدا نحو الصحراء وتتميز بأنها منابع لبعض المحارى المائية القصيرة التى تغذى عددا من واحات الصحراء (١٦) . وقد ارتبط أهالى منطقة النجود أو الشطوط - التى تقع بين أطلس التلى وأطلس الصحراء - بيدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلى وهذا الإقليم ازدهرت فيه المراعى التى أمدت الدولة الرستمية بثروة رعوية لا بأس بها (١٧) كما ساهمت هذه المناطق الجبلية بدورها فى حماية الدولة الرستمية عندما قامت .

مصادر المياه فى المغرب الأوسط :

لم يحظ المغرب الأوسط بعدد كبير من الأنهار ، فأنهاره قليلة صغيرة ، وبعضها لا تكثر فيه المياه إلا فى فصل الشتاء عندما تهطل الأمطار (١٨) . وقد كان لهذه الأنهار أثرها فى ازدهار العمران فى المغرب الأوسط وفى الدولة الرستمية بصفة خاصة حيث أسس عبد الرحمن بن رستم عاصمة دولته على نهر مينة (١٩) . أشهر أنهار المغرب الأوسط :

١ - نهر الشلف : وينبع هذا النهر من جبل وانشرىش ويصب مأؤه

(١٥) د . إحسان حقى : الجزائر العربية ، منشورات المكتب الصحفى ، ط ١ أول ١٩٦١ ، ص ١٣ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٦٦ .

(١٦) محمد أحمد حسونة . أثر العوامل الجغرافية فى الفتح الإسلامية ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ، ط ١٩٦٠ ، ص ٥٣ .

(١٧) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

(١٨) د . سعد رحلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١٤ .

(١٩) البكرى . المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ١٦ .

في البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة
مستغانم (٢٠) .

٢ - نهر سبرات : ويجري هذا النهر بالقرب من قلعة هواره ويسقى
هذا النهر فحوص سبرات الذي يبلغ طوله أربعين
ميلا (٢١) .

٣ - نهر عينة : وهذا النهر يأتي من جهة القبلة لمدينة تاهرت
عاصمة الرستميين (٢٢) .

ولل جانب هذه الأنهار هناك وديان صغيرة يأتيها الماء من العيون
أو من قمم الجبال (٢٣) . ومن هذه الأنهار الصغيرة والوديان ذلك النهر القوي
يتجمع من عيون تسمى تاقش وعليه يعتمد أهل تاهرت في شربهم وري
بساقينهم ، ونهر تامسن وهو نهر يأتي من الجبال في جنوب تنس وعليه تعتمد
مزارع تنس التي اشتهرت بزراعة الحبوب كالقمح (٢٤) . وقد ساهمت هذه الأنهار
والوديان والعيون في قيام حياة زراعية هيأت الاستقرار لكثير من المواطنين
الرستميين بالإضافة إلى أنها شكلت مصدرا هاما من مصادر رخاء الدولة الرستمية
وازدهارها اقتصاديا .

(٢٠) ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، ص ١١٤ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا
والمغرب ، ص ٦٩ ، (انظر الخريطة) .

(٢١) نفس المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ٦٦ .

تأخرت : يتحط الماء ، وسكون الراء ، وناه فوقها نقطتان : اسم المدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال
لأحدهما تهرت القديمة والأخرى تاهرت الحديثة ، بين تلمسان وقلعة بني حماد (البعداى) . مرصود
الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٢٤) ابن سعيد المغربي . كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٢ ، لكاتب مراكشي : الامتياز في عجائب
الأمصار ، ت - د . سعد رغالول عبد الحميد ، ص ١٣٣ .

المناخ في المغرب الأوسط :

ونتيجة لتنوع عناصر السطح في المغرب الأوسط من سهول ساحلية إلى هضاب وجبال وصحارى ، فقد تنوعت عناصر المناخ المتمثلة في درجات الحرارة ، وكميات الأمطار ، وكان لهذا النوع أثره الكبير في تعدد النشاط البشرى لسكان المغرب الأوسط .

فالمنطقة الساحلية ذات طقس معتدل لطيف في الشتاء خفيف في الصيف كثير الرطوبة ، كما تشتد الحرارة في السهول المرتفعة الداخلية (٢٥) ، وفي هاتين المنطقتين تغزر الأمطار فيشتغل السكان بالزراعة ويحيون حياة الاستقرار والتحضر (٢٦) .

أما الأنجاد أو الشطوط فجوها بارد لاذع في الشتاء شديد الحرارة في الصيف ويستمر ارتفاع الحرارة كلما تقدمنا نحو الصحراء ، وبالتالي تقل كمية الأمطار حتى تندر أو تكاد تنعدم لذا كان النشاط البشرى الذى يمارسه السكان في هاتين المنطقتين هو حرفة الرعى التى تفرض عليهم أن يعيشوا حياة التنقل ، والترحال وراء العشب والمراعى (٢٧) .

السكان :

جاء تكوين السكان في الدولة الرستمية صورة صادقة للتكوين الذى كان سائدا في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى وتتضح معالم

(٢٥) أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢٦) يحيى بو عزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ، المطبوعات الوطنية الجزائرية ط . ١ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠ ، د . جمال الدين الدناصورى (وآخرين) : جغرافية العالم مكتبة الأنجلو المصرية ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٢٧) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة ، د . إحسان حقي الجزائر العربية ، ص ١٣ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٧٣ ، د . جمال الدين الدناصورى (وآخرين) جغرافية العالم ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

هذا التكوين في القسم السكاني في الدولة إلى أربعة أقسام هي :

(١) الأفارقة : وكانوا يشكلون بوجه عام سكان المدن والمراكز القرية من المدن وهم مرجع من بقايا الأمم التي احتلت بلاد المغرب كالرومان والبيزنطيين ، وبقايا الشعب القرطاجني القديم وهؤلاء لا يرجع أصلهم إلى البربر ، ولا تجمعهم أصول دموية واحدة ، ولا جد أعلى ينحدرون منه ، وإنما انصهروا في الحياة الجديدة في مدن المغرب ، واستقروا فيها وعاشوا محتلطين بين تحضر من البربر ، وأصبحت تجمعهم هذه الحياة المشتركة من استقرار في الأرض وارتباط بالمعيشة فهم تجمعهم حياة المدينة وما يتصل بها من أرباض ومزارع هي في الأغلب جزء منها (٢٨) . وقد عاش أفارقة المغرب الأوسط في المجتمع الرسمي حياة المواطن العادي من أبناء الدولة . بل إن بعض هؤلاء الأفارقة من المسيحيين كانت لهم منزلة خاصة لدى بعض أئمة الرستميين كأبي بكر بن أفلح (٢٩) .

(ب) العرب : وهم الجند الذين وفدوا إلى بلاد المغرب في أثناء الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، والعرب الذين انتقلوا إلى هذه البلاد بعد تمام الفتح وانتقلوا منها موطناً لهم فاستقروا فيها وأقاموا بها ، ومنهم أيضاً هؤلاء الذين أرسلهم الخلفاء لبث تعاليم الإسلام ونشره بين سكان البلاد ، يضاف إليهم أيضاً هؤلاء الذين لجأوا إلى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم كالحواريين إذ وجدوا في هذه الأرض مربعا خصبا لأفكارهم وآرائهم ، كما أنهم في هذه الأراضي البعيدة عن دمشق وبيداد يكونون في أمن من ضربات الخلافة (٣٠) . وقد حظى المغرب الأوسط

(٢٨) د . حسن مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٥ ، د . حسن علي حسن . دولة الأدارسة بالمغرب : قبلها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٩٧ ، ص ١٠٠ . د . شكري فيصل . حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، دار المعلم للملايين بيروت ، ص ١٨ .

(٢٩) أبي الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ت : موتلمسكي باريس ، ١٩٠٧ ، ص ٣٦ .

(٣٠) د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ١٠ ، ١١ .

بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج فكان مسرحا للدعوة الإباضية . ومن ثم كان المغرب الأوسط في نظر عيد الرحمن بن رستم أنسب الأماكن لتأسيس دولة إباضية به . وقد ظل هؤلاء العرب في مجتمع الدولة الرستمية على حالهم يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع فكان يطلق عليهم العرب (٣١) .

(ح) العجم : وهم الفرس الذين جاءوا إلى بلاد المغرب مع الجيوش الخلافية لإخماد ثورات البربر (٣٢) . وهؤلاء ظلوا متميزين عن غيرهم من العرب ، وكان يطلق عليهم اسم العجم ، وكان هؤلاء العجم دور كبير في أحداث الدولة الرستمية في عهد الإمام أبي بكر بن أفليح وأخيه أبي اليقظان ، كذلك في عهد الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد ، وقد أطلق عليهم ابن الصغير الذي عاصر أحداث الدولة الرستمية وأرخ لها اسم العجم (٣٣) .

(د) البربر (٣٤) : وهم السكان الأصليون لبلاد المغرب وهم يمثلون الغالبية العظمى في التكوين السكاني للمغرب الأوسط وقد رحب هؤلاء البربر بالبيادى التي حملها إليهم عيد الرحمن بن رستم واعتنقوها . وكانوا العنصر الأساسى الذى

(٣١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٣٢) التومرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ (يذكر التومرى أن جيش محمد بن الأشعث الذى أوقفه أبو جعفر المنصور تضمن ثلاثين ألف فارس من أهل خراسان ، نفس المصدر السابق ، نفس الورقة) .

(٣٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٧ .

(٣٤) (البربر اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا يتفكرون للبربر على أنهم أعاجم على حضارتهم ولذلك سموهم (البرابرة) . وجاء العرب فاستخدموا هذه التسمية بعد أن عربوها إلى (بربر أو براير) . وما أن جاء القرن الرابع الهجرى حتى حوت أنساب البربر بالعربية ، وأصبحت هذه الأنساب علماً مثل أنساب العرب ، بل إن نساب البربر اتخذوا من شجرة الأنساب العربية التى تقسم العرب شعبين كبيرين بنحدرات من عدنان وقحطان - محموداً - محتذى في تقسيم قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البربر والبرانس وإن احتفظوا فيما بينهم حول انتهاء المجموعتين (البربر والبرانس) إلى جند واحد أم لا ، د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ط . ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ (العصر الإسلامى) .

Julien, Hist. de L'Afrique du Nord (DE LA CONQUETE ARABE A 1830) P. 10)

اعتمد عليه عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بينهم .

ويتقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري وهؤلاء يسكنون السهول الخصبة والمدن والمضارب المزروعة ، وكانوا يتصلون اتصالاً قوياً بالحضارة القرطاجية واللاتينية ويعتمدون في معيشتهم على الزراعة والصناعة ، والبربر الرحل وهؤلاء يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على السهول وما يجاورهم من جهات العمران (٣٥) .

وقد تحدث ابن خلدون عن هاتين المجموعتين فقال : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البساط والجبال من توله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر . يظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ، لا يجاورون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ومكاسيم الشتاء والبقر والحيل للركوب والتناج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة . ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والإظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولياسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلقة ، ويفرغون عنها البرانس الكحل وروعوسهم في الغالب حاضرة وربما يتعهلونها بالخلق ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم (البربر) » (٣٦) .

وابن خلدون في هذا النص يفرق بين أسلوب البربر الحضري وهؤلاء أطلق عليهم المؤرخون اسم البرانس ، أما البربر الرحل فأطلقوا عليهم اسم البتر (٣٧) .

(٣٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ١٣٥ ، د . حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦ .

(٣٦) ابن خلدون . المعر ، ط . دار الكتاب القبلي ، ج ٦ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٦ ، السلاوي : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٣١ .

وقد حاول التسابة لإرجاع هذه التسمية إلى الأصول الأولى التي ينتمي إليها البربر ، فقالوا : « إن البربر ، يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البربر ويقال لشعوب برنس البرانس » (٣٨) .

ورغم هذا الانقسام إلى بربر وبرانس فقد كان لكل من الفريقين دوره في الدولة الرسمية وفق ما هيأته طبيعة حياته التي يمارسها للقيام به . وأهم قبائل البربر التي ساهمت في قيام الدولة ودعمت أركانها .

١ - نفوسة من بني مادغيس أبو البربر (٣٩) .

٢ - لواتة وهي بطن من بطون لوا الأكبر من مادغيس الأبتر ومن لواتة كانت مزاتة وسدراته (٤٠) .

٣ - لماية وهي من ولد تمصيت بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر (٤١) .

أما البرانس فكانت قبائل هواراة الوحيدة من بين قبائل هذا الفرع من البربر التي شاركت في تأسيس الدولة الرسمية ودعمت أركانها .

(٣٨) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللباني ، ج ٦ ، ص ١٧٦ .

(٣٩) ابن خلدون . المعبر ، ط . دار الكتاب اللباني ، ج ٦ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(نفوسة : بالفتح ، ثم بالضم ، والسكون ، وسون مهمل) لبغدادى : مرصع الإطلاع ج ٣ ، ص ١٣٨ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(لواتة : بالفتح والتاء مشددة : قبيلة من البربر) لبغدادى : مرصع الإطلاع ، ج ٣ ، ص ١٢١ .
مزال : (ابن خرداذبة - المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٩٠) .
سدراتة : مواطنها بالمغرب الأدنى في شمال الأوراس وجنوبه ، (ديوب : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ، ص ٧٩)

(٤١) د . سعد رغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٩ ، ٣٠ ، ابن خلدون . المعبر ، ط . دار الكتاب اللباني ، ج ٦ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .
لماية : (تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٥٧) .

الفصل الأول

الأحوال السياسية للمغرب الأوسط
قبل قيام الدولة الرستمية

الفصل الأول

الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبل قيام الدولة الرستمية

(١) الفتح الإسلامي لبلاد المغرب :

تركزت المحاولات الأولى للفتح العربى فى بلاد المغرب منذ خلافة عمر بن الخطاب وحتى قيام الدولة الأموية - فى منطقتى برقة وإفريقية فقط . ولم تكن هذه المحاولات سوى غارات سريعة لم يحظ المغرب الأوسط بشئ منها ولذا لم تحقق هذه الغارات للمسلمين استقرارا يتمكنون عن طريقه تعريف أهل البلاد بالإسلام وما يحمله من مبادئ سامية ونظم متكاملة ، كما أن هذه الغارات لم تقض على مقاومة الروم (البيزنطيين) التى تعتبر عقبة كبيرة فى سبيل انتشار الإسلام وتثبيت دعائم الفتح .

لذلك فقد كان على الخلافة الأموية - بعد أن استتب الأمور فى يد معاوية بن أبى سفيان سنة (٤١ هـ / ٦٦١ م) أن تتبنى سياسة جديدة تستهدف الفتح المنظم لبلاد المغرب^(١) .

وكانت البادرة الأولى فى هذه السياسة الأموية أن ولى معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع قيادة عمليات الفتح فى بلاد المغرب سنة

(١) د . محمد حطى محمد أحمد . الخلافة والدولة فى العصر الأموى . القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٥٧ .

(٥٠ هـ / ٦٧٠ م) وأمله بعشرة آلاف فارس (٢) ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة هي مرحلة الفتح المنظم لبلاد المغرب ، وامتداد تلك الفتوح خاصة إلى بلاد المغرب الأوسط .

رحلة عقبة بن نافع الأولى (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) .

رأى عقبة - في أثناء حملاته على بلاد المغرب - أن فتح تلك البلاد ، ينبغي أن يتم في إطار خطة عامة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون ، ثم يتابعون منها الغزو ونشر الإسلام (٣) . ووقع اختيار عقبة على مكان هذه القاعدة التي سماها القيروان ، وشرح في بيانه بعد أن فرغ من فتح إفريقية وقضى على مقاومة الروم (البيزنطيين) والبربر بها سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) (٤) .

ونجحت صغرية عقبة الحربية في اختيار موضع القيروان . فموقعها على عتبة إقليم نوميديا يجعلها مفتاحاً لبلاد المغرب الأوسط وما يليها من أراضي المغرب الأقصى (٥) . ثم إن بعدها عن الساحل يجعلها في مأمن من غارات الروم المفاجئة . وأخيراً فإن قربها من السبخة يتيح لإبل المسلمين أن تكون آمنة

(٢) التويري . نهاية الأرب ، مخطوط - ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٥ ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، ط . دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥ ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(٣) (شهر عقبة بن نافع على مسرح أحداث الفتح الإسلامي لبلاد المغرب . حتى عهد إليه عمرو ابن العاص بمحلة لفتح قران ، كما أصبح عقبة أمراً على إفريقية من قبل عمرو بن العاص وذلك سنة ٢٣ هـ . وفي سنة ٤١ هـ استعمله عمرو بن العاص على إفريقية لنزول لوائه وجماعته والفتح بخداس سنة ٤٢ هـ . وفي سنة ٤٣ هـ غزا عقبة بعض كور السودان وودان ، وظل عقبة مقيماً في بركة ورويلة حتى استعمله معاوية ابن أبي سفيان ، د . حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ص ١٣٠ ، ١٣١) .

(٤) الديباغ . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ب . إبراهيم شيوخ . مكتبة الخفاجي . ١٩٦٨ . ج ١ ، ص ٨ .

(٥) د . إبراهيم العلوي . بلاد الجزائر . ص ٨٩ ، ص ٩٠ .

في مراعيها من اعتدات البربر والنصارى عليها (٦) وقد أوضح عقبة هدفه لجنوده من تأسيس القيروان حين قال لجنوده :

« فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها (أى بلاد المغرب) الأول فالأول » (٧).

وانشغل عقبة بتأسيس القيروان أربع سنوات ، أو تزيد قليلا (٨) . تغيرت خلالها الأمور في بلاد المغرب ، وأصبحت الأوضاع تقتضى تغييرا في القيادة العليا الإسلامية هناك وكان مسلمة بن مخلد - والى مصر - أول من أحس - لقربه من بلاد المغرب - أن الأمور تتغير في تلك البلاد لغير صالح المسلمين نتيجة للسياسة الجديدة التى اتبعها في تلك البلاد الإمبراطور قسطنطين الرابع ، إذ أصدر هذا الإمبراطور أوامره بمنع الاضطهاد الدينى بأهالى المغرب أملا في تكوين جبهة داخلية قوية لمقاومة المسلمين ، تقضم الروم مع بربر المغرب الأوسط ، وبخاصة قبيلة أوربة ، والقبائل البدوية الخاضعة لها (٩) . وأمام هذه التطورات سعى مسلمة بن مخلد في عزل عقبة عن القيادة العليا في المغرب ، وتولية دينار ألى المهاجر سنة (٥٥ هـ / ٦٧٦ م) (١٠) .

دينار أبو المهاجر (٥٥ هـ / ٦٧٦ م) .

قدم دينار أبو المهاجر إلى إفريقية في هذه الظروف الجديدة من تحالف

(٦) الديباغ : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٩ . ابن عشارى : البيان المغرب - ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٧) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٨) د . محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الأموى ، ص ٢٥٩ .

(٩) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٢٠٩ . (المصر الإسلامى) .

Diehl, ch. L'Afrique Byzantine (1896), p. 376 .

(أوربة : بالفتح ثم السكون وفتح الراء وثبأ موجة وهاء . قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس

(باقوت : معجم البلدان . طبعة الخانجي ، ج ١ ، ص ٣٧١) .

(١٠) د . إبراهيم العنوى . بلاد الجزائر ، ص ٩١ ، ٩٢ .

البيزنطيين مع البربر وأجمعت معظم المصادر على أنه عزل عقبة وأخرجته إلى المشرق في حراسة مشددة (١١) ثم اتجه دينار أبو المهاجر لنفسه سياسة جديدة قوامها التقرب إلى البربر لصرب تحالفهم مع البيزنطيين فأمر الناس بإحلال القديروان والاتحاه إلى عمرة بلدة اسمها نيكروان (١٢) ، وأراد بذلك أن يظهر تقربه إلى البربر ليفسد على الروم (البيزنطيين) مخططاتهم التي تقوم على غرس العدوة والسخط في نفوس البربر تجاه المسلمين ، ولجمع أبو المهاجر بعد ذلك في نقل مسرح عملياته العسكرية إلى المغرب الأوسط ، فقد رأى أن المنطقة الواقعة بين تاهرت ووهران والتي تتوسطها تلمسان أصبحت مقر نشاط التحالف البيزنطي البربري الجديد (١٣) ، وبات الهجوم عليها أمرا ضروريا ، فخرج بجيشه حتى وصل إلى تلمسان ، وهناك اصطدم بالبربر وهزمهم وظفر بكسيطة زعيم أوربة ، وبكياسة دينار وحسن سياسته استطاع اجتذاب كسيطة إلى الدخول في الإسلام (١٤) ، هو وعدد كبير من البربر فكانت هذه صفحة جديدة في تاريخ انتشار الإسلام في المغرب الأوسط .

وفي سنة (٥٩ هـ / ٦٧٨ م) اتجه أبو المهاجر دينار إلى قرطاجنة التي

(١١) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٢) ابن أبي دينار . المؤنس في أخبار الرقبة ونوس ، ت . محمد همام ، ص ٢٩ .

(١٣) د . إبراهيم العلوي . الأمويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٤٠ ، د . حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٦٦ .
(١٤) بلقيش ، بكرتين وسكون الميم وسين مهلة ، (باقوت . معجم البلدان ، طبعة الخليلي ج ٢ ، ص ٤٠٨)

(١٥) ابن خلدون . المعر ، ط . دار الكتاب العربي بيروت ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

Mercier, F., Histoire de L'Afrique Septentrionale (1888), p. 204

تمثل أقوى معقل الروم في الشمال الإفريقي وحاصرها حصارا شديدا ، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل الروم عن جزيرة شريك ، التي اتخذها أبو المهاجر مركزا لمراقبة الروم ومعرفة تجمعاتهم وتحركاتهم (١٥) .

بعد ذلك اتجه أبو المهاجر إلى ميلة وافتتحها وأقام بها سنتين : عاد بعدها إلى مقره في تيكروان بعد أن حقق أهدافه في المغرب الأوسط (١٦) .

ولاية عقبة بن نافع الثانية (٦٢ هـ / ٦٨٢ م) .

أثمرت جهود أبي المهاجر دينار في المغرب الأوسط ، فقد عرف كثير من أهله الإسلام ودخلوا فيه ، ولكن عقبة بن نافع كان قد استطاع في ذلك الوقت إقناع السلطات المركزية في دمشق بالعودة إلى القيادة العليا في بلاد المغرب بدلا من دينار أبي المهاجر وحضر عقبة إلى القيروان سنة (٦٢ هـ / ٦٨١ م) (١٧) مؤمنا بسياسته القديمة ، ورفض تماما سياسة أبي المهاجر التي كانت تقوم على استمالة البربر وتحبيبهم في الإسلام ، فلم يكد عقبة يتسلم زمام الأمور حتى أعد العدة لغزو بلاد المغرب بكاملها . فاستخلف زهير ابن قيس البلوي على القيروان وحمل معه أبا المهاجر دينار مكبلا بالحديد انتقاما

(١٥) د . محمد حليبي محمد أحمد : الخلافة وال دولة في العصر الأموي ، ص ٢٦٢
(قرطاجنة : بالفتح ثم السكون وطاء موهمة وجيم ونون مشددة ، باقوت : معجم البلدان ، ط . الخالجي ، ج ٧ ، ص ٥٢) .

جزيرة شريك : بفتح الشين المعجمة وكسر الراء وياء ساكنة وكاف ، كورة بإفريقية بين سوسة وتونس ، باقوت : معجم البلدان ط . الخالجي : ج ٢ ، ص ٩٩ .

(١٦) ابن تيمزي بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

ميلة بالكسر ثم السكون ولام ، مدينة صغيرة بأقصى إفريقية (باقوت : معجم البلدان ، طبعة الخالجي ، ج ٨ ، ص ٢٢٦) .

(١٧) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٨ ~ ١٧٩ .

منه (١٨) . واندفع بقواته يحرر النصر تلو النصر حتى وصل إلى السوس الأقصى بعد أن خاض معارك صارية في باغاية ، وليس والزاب ، وتاهرت (١٩) وقد أظهرت هذه المعارك أن البيزنطيين عادوا إلى التحالف مع جماعات البربر المعروفة باسم (البراقس) ، لسكون جبهة للمقاومة في المغرب الأوسط (٢٠) .

ذلك أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى أبو المهاجر دينار ، وبذلك فقد عنصرا هاما من عناصر النجاح حيث أعطى تشده مع البربر وخاصة كسيلة فرصة للروم (البيزنطيين) ليجندوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة مقاومة واحدة ضد المسلمين تضرب ضربتها في الوقت المناسب وفضلا عن ذلك فإن عقبة وقع في تأثير الإغراء الجغرافي لامتداد المقرين الأوسط والأقصى فتقدم بقواته دون أن يوفر لها حماية بحرية (٢١) ، ودون أن يضع لنفسه خطة مرسومة محددة الأهداف تؤمن ظهر قواته في تقدمها ورجوعها ، وترك جيوبا كثيرة للأعداء

(١٨) ابن عثاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ابن أبي حنبل : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ت : محمد شمام ص ٣٠ .

(١٩) الديباج : معالم الإيمان : إبراهيم شيوخ ، ج ١ ، ص ٤٨ - ٤٩ .
النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٦ ،
السلوى : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٣٨ ، مع اختلاف طفيف بين الروايات ،
(السوس الأقصى : كورة مدينتها طرقله) ، (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخالجي ، ج ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢) .

باغاية : القين معجمة وألف وياء مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجاعة وقسطية الخواء (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخالجي ، ج ٢ ، ص ٤١) .

لميس : موضع بين وبين موطاة أمسكور على وادي ملوية مرحلة (البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - ١٤٧) .

الزابة : بعد الألف باء موحدة (ياقوت : معجم البلدان : ط . الخالجي ، ج ٢ ، ص ٣٦٣) .

(٢٠) ابن عثاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ ،
د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢١) د إبراهيم المسوي موسى بن نصر مؤسس المغرب العربي . أعلام العرب العدد ٦٨ ، ص ٣٦ .

يتحصنون بها خلف ظهره ، تجمعت هذه الحبوب بعد ذلك وقضت عليه في أسر وسهولة (٢٢) .

اعتقد عقبة عدم وصول إلى شاطئ المحيط أن عملياته الحربية قد انتهت فارتد بسرعة إلى إفريقية حتى إذا وصل إلى مدينة طبة أحس بتواطؤ الروم مع البربر ، حيث طمروا آبار المياه في طريق عودته ولذا أمر جنوده أن يتقدموا فوجاً بعد فوج إلى القيروان ، وسار هو إلى يهودة لحراسة مؤخرة جنده (٢٣) . فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كسيلة الأورى الذى كان ضمن قوات عقبة ، وكان قد ضيق ذرعاً بسوء معاملة عقبة له ، يقول ابن خلدون : « وكان كسيلة ملك أوربة والبراس مع البربر قد اضطغن عليه (عقبة بن نافع) بما كان يعامله به من الاحتصار يقال إنه كان يحاصره كل يوم وبأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه » (٢٤) . وكانت هذه فرصة عظيمة لكسيلة لانتقم من عقبة وها هو ذا يجد الروم يراسلونهم ، بعد أن وصلتهم إمدادات كثيرة عن طريق البحر ، فاتفق كسيلة معهم ، واعترضوا عقبة في يهودة وقتلوه هو وثلاثمائة من أصحابه من بينهم دينار

(٢٢) د . حسن مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، (وعبرة المؤرخين القدامى ترشح هذا الإجماع من جانب عقبة فقد كره أن يقيم على حصار الروم في حصونهم التي كانوا يهيئون إليها . فكان يترك هذه الحصون مملكة بالعباد والفرسان وينضم إلى غيرها دون تعهد بها . انظر الديباغ : معالم الإيمان ، ت . إبراهيم شوح ، ج ٩ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، النويرى . نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٣٢ ، القسم الأولى ، ورقة ٦ . ابن خلدون : البلدان المغرب . ج ١ ، ص ٢٤) .

(٢٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٧ . ابن الأثير : الكامل ج ٤ ، ص ١٠٦ .

(طبة) يضم أوله ثم السكون ومنه معترحة ، بالدة في طرف إفريقية على صفة الزاب (بالقوت : معجم البلدان ط . الطائفي ، ج ٦ ، ص ٢٨) .

يهودة : بالفتح ثم الصم وسكون الواو واللام معجمة اسم لقبية من البربر بتاجية إفريقية لهم أرض تعرف باسم يهودة (بالقوت : معجم البلدان ط . الطائفي ج ٢ ، ص ٤٣٨) .

(٢٤) ابن خلدون : المعبر ، طبعة دار الكتاب النبطى بيروت ، ج ٦ ، ص ٣٩٩ .

أى المهاجر سنة (٦٤ هـ ٦٨٤ م) (٢٥)

وتطورت الأمور في القيروان بسرعة فقد وصلت أُنباء مذبحه تهوذة فكان لها وقع سيئ على المسلمين وعظم البلاء عليهم ، وكان الجند العائدون قد نالهم التعب والإرهاق ولذلك فضلوا العودة إلى المشرق وترك القيروان ، وكان على رأسهم حنش الصنعاني قائد حامية جزيرة (٢٦) شريك . وينقل ابن عذارى الحوار القذى دار بين زهير بن قيس وحنش الصنعاني حين قام زهير خطيبا في الناس يدعوهم إلى القتال دفاعا عن القيروان : « فقام زهير بن قيس خطيبا في الناس فقال : يا معشر المسلمين : إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبلهم : ويفتح الله لكم دون ذلك ! فقال حنش الصنعاني : لا ! والله ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ! ولا عمل أفضل من التجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ! ثم قال يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القبول إلى مشرقه فليجئني فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته (٢٧) .

ووجد زهير نفسه في موقف بالغ الحرج ، ففضل الانسحاب بعد أن رأى أن ما معه من الرجال لا يكفي للوقوف في وجه كسيلة ، ومضى زهير حتى وصل إلى مرقة ، بينما واصل كسيلة المنتصر رحفه إلى القيروان فاستولى عليها . وبها أصحلب الأثقال والفرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم (٢٨) وظل كسيلة يحكم القيروان حتى سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) .

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠٠ ، د . إبراهيم العلوى : بلاد الجزائر ، ص ٩٨ ، أرشيبا لدلويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩٨ .

(٢٦) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٥

(٢٧) ابن عذارى : الديار المغرب ، ج ١ ، ص ٣١ ، السلاوى : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢٨) التومرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٧ ، القسم الأول ورقة ٧

(٢٩) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب المعرى . ص ١٧٠ - ١٧٢

وعلى الرغم من فشل حملة عقبة في تحقيق أهداف سياسية (٣٠) إلا أنها كانت موجة من موجات المد الإسلامي حملت الإسلام إلى آفاق جديدة بدأت تدخل الإسلام شيئاً فشيئاً ، ولا شك أنها تركت آثارها في المغرب الأوسط فقد ظهرت فيه عناصر إسلامية جديدة وبخاصة بين القبائل البدوية (البتر) التي أعلنت العصيان على كسيلة ورفضت الانصياع له ولذلك آثر كسيلة ألا يتعرض لهذه القبائل ليعمم بشئ من الاستقرار في القيروان (٣١) .

زهير بن قيس البلوي (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) .

أقام كسيلة بالقيروان خمس سنوات ، كانت الخلافة الأموية خلالها مثقلة بمشاكلها الكثيرة ، وخاصة ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي بالعراق (٣٢) .

ولكن ما أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان سنة (٦٥ هـ / ٦٨٤ م) حتى كتب إليه زهير بن قيس البلوي يستنصه لتخليص إفريقية وتحرير من بها من المسلمين من يد كسيلة (٣٣) . ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن استرداد إفريقية أمر حيوي يعيد للجيش الإسلامي هيبتها في الجتاح الغرب للدولة ، فاستشار وزراءه ، واستقر رأى الجميع على اختيار زهير بن قيس نفسه نظراً لما يتمتع به من خبرة في الميدان الإفريقي وشعونه ، وأمنه عبد الملك بن مروان بجيش كثيف وأمره بالتوجه إلى إفريقية ، فتقدم إليها زهير بقواته سنة ٦٩ هـ (٣٤) . وبلغ كسيلة خبر تقدمه ، فحشى البقاء في القيروان لأن بها

(٣٠) د . حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣١) ابن عدي . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٧ ، د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ٩٩ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٣) ابن عدي . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(٣٤) الدباغ . معالي الإيمان ، ت : إبراهيم شوح ، ج ١ ، ص ٥٧ ، ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣١ .

خلفا كثيرا من المسلمين ، كما أنها محاطة بطوائف البربر المواليين للعرب وهؤلاء
ولا شك سينقلبون عليه ، فيكون قد أوقع نفسه بين شقي الرعي لذلك فضل أن
تكون أرض المعركة في « ممس » (٣٥) التي تقع بمحصنها على هضبة تتصل بالبحال
الأوراس ، وهذا يسهل عليه الحصول على العتاد والمؤن والماء ولأن طبيعة المنطقة
الجبليّة تمكنه من الحرب إلى موطنه إذا هزم أمام زهير (٣٦) .

وصل زهير إلى القيروان ، وأقام بظاهرها ثلاثة أيام ، فأراح جنده واستراح
وفي اليوم الرابع تقدم للقاء كسيلة ، ودارت بينهما معركة عنيفة ، أحكم فيها زهير
حصول كسيلة . حتى أصبح فراره شيئا مستحيلا فهزم ولقى مصرعه ، وأمعنت
قوات زهير في طلب الفارين من أتباع كسيلة ومطاردتهم حتى وادى
ملوية (٣٧) . ويذكر المالكي وابن أبي دينار أن زهير اتجه بعد قضائه على كسيلة
إلى الشمال ففتح شقبنارية ، وباجة وبعض القلاع الأخرى (٣٨) .

وهكذا كان لجهود زهير نتائج عظيمة أثرت في مجريات الأحداث بعد
ذلك ، فقد نجح العرب في استرداد المغرب الأوسط وضمه إلى حوزتهم ،
وكسروا شوكة أوربة البرانس خليفة الروم ، فركت أوربة المغرب الأوسط
لتستقر حول مدينة ويلي بالمغرب الأقصى (٣٩) فكان ذلك إيذانا بحروح بربر
البرانس من حلة الصراع القائم في المغرب .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ١٠٩ (يذكر ابن الأثير أن اسمها ممس) .

(٣٦) . . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٢١ .

(٣٧) ابن علقري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ ، السلاوي : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٣٨) المالكي : رياض النفوس ، ت ٥ . حسين مؤنس ، ص ٢٠ ، ابن أبي دينار : نفوس في أخبار
إفريقية وتونس ، ت محمد شمام ، ص ٣٣ .

(حقايق تاريخية : بعد القلاف بلاء موحدة وبعد الألف نود وبعد الألف الأخرى راء أماكن بإفريقية) ،
(يلقون : معجم البلدان ، طبعة الخالجي ، ج ٢ ، ص ٢٥) .

(٣٩) السلاوي : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٢ .

ولم يبدأ الروم منذ وصلت أنباء انتصارات رهير بن قيس في إفريقية والمغرب الأوسط إلى مسامعهم في القسطنطينية ، وأخذوا يدبرون شيئاً في الخفاء ، فأبحرت مراكبهم بأعداد كثيرة من قواعدها في صقلية وشنت سلسلة من الاغارات البحرية شملت المناطق الشرقية المتاخمة لبرقة ورأى زهير ضرورة مطاردة هذه الغارات والقضاء عليها وعلى نشاطها وأن ذلك خير له من الإقامة في القيروان ، وعند وصوله إلى برقة استطاع الروم إيقاعه هو ونفر قليل من جنده في كمين أعدوه له على الساحل وتكاثروا عليه فاستشهد هو ومن معه في ساحة التضال ، وسجل الروم على أنفسهم غنماً لا يقل شراسة عما فعلوه مع عقبة في تهوذة (٤٠) .

ولم تستطع الخلافة الأموية في هذه الآونة أن تواصل اهتمامها بشئون المغرب لأن جيوشها كانت تخوض المعارك الفاصلة مع عبد الله بن الزبير في العراق والحجاز ، ومع الخوارج في فارس واليمنية (٤١) وكان ذلك سبباً في فترة من الشغور الحربي في المغرب امتدت من سنة (٧١ هـ / ٦٩٠ م) إلى سنة (٧٦ هـ / ٦٩٦ م) انتهت حين استطاع عبد الملك بن مروان التغلب على ابن الزبير سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) ، فأرسل حسان بن النعمان على رأس قوات ضخمة لإقرار الأوضاع بالمغرب واستكمال فتحه .

حسان بن النعمان (٧٦ هـ / ٦٩٦ م) .

حمل حسان بن النعمان عبء المرحلة الجديدة في فتح بلاد المغرب ، وقد عمل عبد الملك بن مروان على تجهيزه بجيش كبير يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يدخلوا إفريقية بمثله ، فقد بلغ عدده أربعين ألفاً تحملت خزانة مصر تكاليف

(٤٠) التويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن خلدون : العرب ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ ، د . إبراهيم العدوي بلاد الجزائر ، ص ١٠٥ .

Fournel, H., Etude Sur la Conquête de L'Afrique par les Arabes, p. 28, 29.

(٤١) د . ضياء الدين الرهس : عبد الملك بن مروان موحد التولة العربية ، أعلام العرب العدد ١٠ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ .

إعدادهم وتجهيزهم بأنواع الأسلحة والمعدات (٤٢) . تقدم حسان بهذا الجيش ، فاخترق برقة وطرابلس ووصل إلى القيروان دون أية مقاومة ، وتمكن حسان أن يحرز نصراً كبيراً على الروم فهزمهم في قرطاجنة وصطفورة وبنزرت ، وفرت بقاياهم إلى صقلية والأندلس (٤٣) .

وبعد أن أحرز حسان بن النعمان هذه الانتصارات اضطر إلى خوض غمار معركة مع قبيلة جراوة التي قادتها امرأة تدعى (الكاهنة) تجمع بعض البربر حولها بعد مقتل كسيلا ، وقد منى جيش حسان بالهزيمة عندما التقى بها عند نهر نيني (٤٤) ، وطاردته قوات الكاهنة حتى خرج من حدود قابس منسحباً إلى برقة (٤٥) . وفي تلك الأثناء تمكن أسطول الروم بقيادة البطريق يوحنا من استعادة قرطاجنة مرة ثانية ، ويظهر من هذا أن موجة الفتح انحسرت من جديد لتعود

(٤٢) ابن عساري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤ ، التويري ، نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ت . محمد شمام ، ص ٣٣ .
Fournel, op cit, 38.

(٤٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ونقل عنه التويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن عطلون : المعبر ، ط . دار الكتب اللبنان ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .
ترقة : ينصح أوله والقاب ، اسم صفيح كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية (باقوت : معجم البلدان ، ط . الخاني ، ج ٢ ، ص ١٢٣)
بنزوت : ينصح الزاوي وسكون الرء وناه فوقها نقطتان مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومان (باقوت : معجم البلدان ، ط . الخاني ، ج ٢ ، ص ٢٩٢)
صطفورة : بالنصح ثم السكون والقلا ويمده ولو ساكنة وراء مهلة وهم . بلدة من براسي إفريقية (باقوت : معجم البلدان ، ط . الخاني ، ج ٤ ، ص ٣٥٦)

(٤٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ .

(٤٥) د . سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ، ص ١٨٥ .
قابس : عقبة جلولة مسورة بالصخر ، من بياض الأول ، وساحتها مرفأً للسفن من كل مكان ، وحولها قبائل من البربر لوائه والملة ونفوسة ومرتاة وزواجة ورواية (البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٧ ، ١٨) .

المناطق الساحلية إلى سيطرة الروم والمناطق الداخلية إلى سيطرة البربر (٤٦) ،
 واتبعت الكاهنة سياسة تدل على عدم فهمها لمجريات الأحداث ، والآثار الطيبة
 التي تركتها موجات الفتح الإسلامي المتعاقبة في نفوس الأهالي ، ذلك أنها أخذت
 في تخريب المدن وقطع الأشجار وتبديد العمران ، ظناً منها أن ذلك يقطع أطماع
 العرب عن هذه البلاد . ولكن الذي حدث غير ذلك ، فقد ثار البربر عليها
 ورفضوا الانصياع لها أو البقاء تحت سيطرتها ، وقد استفاد حسان من هذا الوضع
 كثيراً عندما استأنف الزحف على إفريقية وبلاد المغرب سنة ٨١ هـ (٤٧) ،
 فاستطاع بمساعدة البربر - الذين ضاقوا ذرعاً بأعمال الكاهنة - أن يحرز نصراً
 نهائياً عليها ويقتلها سنة (٨٢ هـ / ٧٠١ م) عند بئر الكاهنة في جبال
 الأوراس (٤٨) . وطلب أصحابها الأمان فلم يقبل حسان أمانهم حتى أعطوه اثني
 عشر فارساً من جميع قبائلهم ، دخلوا بعد ذلك في الإسلام فقسمهم حسان
 إلى فرقتين جعل على كل فرقة منهما ولداً من ولدى الكاهنة اللذين دخلوا في
 الإسلام واستأمنوا لحسان على يد يزيد بن خالد الذي كان أسيراً عند
 الكاهنة (٤٩) . وكانت هذه خطوة ضخمة في مجال الاتصال الاجتماعي بين العرب
 والبربر لتحقيق المهدف الأسمى من الفتح وهو نشر الإسلام .

لم يبق أمام حسان سوى قرطاجنة فزحف إليها مستعياً بأسطول إسلامي ،
 كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت في الساحل الإفريقي . ودارت في البر والبحر

(٤٦) د . شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ، ص ١٢٤ .

(٤٧) د . إبراهيم العلوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٥٦ .

(٤٨) د . عبد العزيز سلال . المغرب الكبير ، ص ٢٤٨ .

(٤٩) المالكي . رياض النعوس ، ت . حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٣٦ . ابن عدي : البيان المغرب ،
 ج ١ ، ص ٣٨ .

رحى معركة كبيرة أسفرت عن تدمير قرطاجنة وهزيمة الروم وحروجهم هائباً من إفريقيا (٥٠) .

استقامت الأمور لحسان في المغرب فعكف على تنظيمه وصيغه بالصيغة العربية الإسلامية مثله في ذلك مثل كل الأقاليم التي فتحها العرب واستقروا بها ، ولا شك أن المغرب الأوسط تأثر كثيراً بهذه السياسة التي تهدف إلى إدماج العرب والبربر لخلق حالة من الاستقرار الدائم نستند إلى قاعدة شعبية من البربر كما سعى حسان إلى ضم البربر إلى الجيش العربي وأخرجهم كما يقول المالكي : « مع العرب يفتحون إفريقيا ويقتلون الروم ومن كفر من البربر » (٥١) . وجعل لهم نصيباً في الخطط فلكل قبيلة خطة تؤدي عنها المال ، وقسم بينهم الفيء والأرض (٥٢) . وعندما شرع حسان في بناء قاعدة ترشيش (تونس) البحرية جعل البربر يسهمون بنصيب كبير في تأسيسها فكان عليهم جر الخشب اللازم لبناء السفن (٥٣) . وسوف يكون لدخول عنصر البربر في الجيش العربي أثره في امتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الأندلس بعد ذلك بقليل .

إلى جانب ذلك اتخذ حسان بعض التنظيمات الإدارية ، فنون الدواوين ونظم الخراج (٥٤) ، وجدد بناء المسجد الجامع في القيروان (٥٥) وبعث العمال إلى سائر الجهات كما وزع الفقهاء يتشرون الإسلام واللغة العربية بين البربر (٥٦) .

(٥٠) د . إبراهيم المصاوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٥٨ ، د . حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٢٦٠ .

(٥١) المالكي : رياض النفوس ، ت : د . حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٥٢) قس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٥٣) فكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ٣٨ .

(٥٤) م . علوي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٨ ، السلاوي . الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٥٥) المالكي : رياض النفوس ، ت : د . حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٥٦) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٢٥٠ .

شعر البربر إزاء هذه السياسة أن انضمامهم إلى العرب الفاتحين يعلى من شأنهم ويساويهم بهم في الحقوق والواجبات ، فأقبلوا على الإسلام وبنوا المساجد واستعملوا المنابر فيها ولم تقف هذه الظاهرة عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط بل امتدت لتشمل أجزاء من المغرب الأقصى (٥٧) .

وهكذا استطاع حسان أن يخلق في المغرب وضعاً جديداً يمكن أن نسميه مرحلة الاختلاط والاندماج بين العرب والبربر ، ولكن وإلى مصر عبد العزيز بن مروان - الذي كان يتطلع إلى فتح شامل للمغرب - رأى أن حساناً لم يحقق هذا الهدف ، فبادر إلى عزله ، ودفع إلى المغرب بقائد جديد هو موسى بن نصير .

موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) .

كان موسى بن نصير هو الرجل الذي أعده عبد العزيز بن مروان ليضع حداً لمسألة فتح العرب للمغرب التي طال عليها الأمد ، والتي كان يرى عبد العزيز بن مروان أنها تمثل عبئاً ليس بالقليل على خزانة مصر ، وقد وفق عبد العزيز بن مروان أكبر التوفيق في تولية القيادة في المغرب لموسى بن نصير ، وهو رجل من أقدر وأذكى رجال الدولة الأموية (٥٨) .

قلم موسى بن نصير إلى المغرب في أواخر سنة (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) (٥٩) . وفي رأسه دراسة شاملة لكل تجارب قواد الفتح السابقين وخططهم والعقبات التي صادفتهم ، مضافاً إليها خبراته الخاصة التي مارسها وعاش فيها ، لذلك رأى أن

(٥٧) د . سعد رعلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٥٨) د . حسين مؤنس . فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ ، ص ٤٦ .

(٥٩) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٥١ .

يقوم أولاً بتطهير إفريقية وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من البربر (٦٠) . وقد أكد موسى بن نصير ذلك في خطبته حين قال : « ... فإن كل من كان قبلي يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوا منه أدنى يتهمز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ويكون هوذا عليه عند التكبئة » (٦١) .

اتبع موسى بن نصير خطة ترمي إلى ضرب هذه العناصر (الروم وعملائهم من البربر) في وقت واحد وبشدة تقضي على كل مقاومة لهم ، فأرسل حملة بقيادة عبد الملك الحشيني إلى قلعة زغوان ، وفي نفس الوقت بعث ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحي القيروان ووجه ابنه الثاني مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية (٦٢) . وبلغ الخمس من سبي المعارك التي خاضوها يومئذ ستين ألف رأس من السبي (٦٣) .

وهكذا نجح هؤلاء القواد في تأمين إفريقية وتنظيفها من دسائس الروم وحلفائهم من البربر وكفلوا بذلك حماية تامة لظهر القوات المتقدمة لفتح المغربين الأوسط والأقصى ، وقد حظى المغرب الأوسط بأكثر أعمال موسى بن نصير

(٦٠) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١١٥

(يرى الدكتور حسين مؤنس أن الفتح العربي للسمرق قد تم في عهد حسان بن النعمان وأنه لا يسمى أعمال موسى بن نصير في المغرب فتحاً . وكيف يمكن القول بذلك ، وولاية حسان بن النعمان انتهت وأقليم طنججة لم يفتح بعد ، ومناطق كثيرة من المغرب الأقصى . كما أن خطر الروم ما زال قائماً في الجزر القريبة من سواحل الشمال الإفريقي كما أن كثيراً من القبائل خرجت بعد عودة حسان إلى المشرق واستتبها دعاوى الروم ، ولكن يمكن أن يقال : إن موسى أتم الحلفاء الأخيرة من فتح المغرب ، ابن عبد الحكم : فوج مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٧٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢ ، مؤلف مجهول : الأخبار المجموعة ، ص ٤ ، د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٦٠ ، د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٨) .

(٦١) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة ، مكتبة مصطفى الباني الخليلي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٦٢) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٦٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٠ .

الحرية نظرا لأن ميدانه كان محورا للتحالف البيزنطي البربري الذي كان سببا في إخفاق كثير من الجهود الحربية للمسلمين في المغرب ، وأوصى موسى بن نصير قائده عياش بن أنخيل الذي أرسله لإخضاع بعض قبائل المغرب الأوسط ، باتباع سياسة الاسترضاء مع القبائل الراغبة في الصلح ، وأن يعاملها معاملة كريمة ويترك تدبير أمورها بيد أناس من أهلها ، مع إصراره على ضرورة أخذ الرهائن منهم ضمانا لاحترامهم للمعهود والمواثيق (٦٤) .

وتمكن عياش بن أنخيل من إرغام قبائل هواراة وزناقة على الصلح بعد أن أغار عليهم وأسر أمرهم (كامون) (٦٥) . ولما رأت كثافة ذلك أسرعت فقدمت على موسى بن نصير برهائنها فولى عليهم رجلا منهم (٦٦) ، وفي نفس الوقت خرج موسى بنفسه لتطهير بعض مناطق المغرب الأوسط التي رأى أنها ما تزال موضع نشاط الروم وأعوانهم من البربر فزحف بقواته إلى منطقة «سجوما» وتعقب عملاء الروم حتى وصل إلى نهر ملوية وهزمهم هناك هزيمة فادحة عاد بعدها إلى القيروان (٦٧) ، بعد أن دالت له قبائل المغرب الأوسط تماما بالخضوع والولاء .

أما حملات موسى بن نصير في المغرب الأقصى فقد كانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية قام بها ابنه عبد الله ومروان والقائد زرعة بن أبي مترك (٦٨) ، وقام موسى بن نصير بفتح طنجة بنفسه ، فكان أول من نزلها واحتط فيها

(٦٤) د . إبراهيم العلوي : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ، ص ٤٠ .

(٦٥) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٢٥٢ ، (يذكر ابن عثاري أن اسمه طاسون وأن موسى أرسله إلى عبد العزيز بن مروان فقتله ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤١) .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(٦٧) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١١٩ .

(٦٨) د . سمير رخلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢١٠ .

للمسلمين (٦٩) . ولم يبق أمامه غير سبته التي استعصت عليه فتركها لعدم خطورتها ولأنها نافذة تمكن المسلمين من مراقبة الأحوال في بلاد الأندلس التي كان موسى يتطلع إلى فتحها والتغلب عليها .

عاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك طارق بن زياد واليا على طنجة ، وجعل مقر عمله في تلمسان (٧٠) ، وكانت هذه الخطوة تعريضا لسياسة موسى بن نصير الراهية إلى استرضاء البربر وتحييمهم في الإسلام والقائمين وسيضرب طارق بن زياد ومن معه من مسلمي البربر أروع الأمثلة لتضافر القوى الجديدة مع العرب في فتح الأندلس ، بل إن الخلافة سوف لا تتحمل شيئا من أعباء الفتح في هذا الميدان (٧١) .

تأمين الفتح الإسلامية في بلاد المغرب :

تأكد لموسى بن نصير أن سلامة الفتح الإسلامية في بلاد المغرب تتطلب تعزيز النشاط البحري في غرب البحر المتوسط ، وأن حماية خطوط المواصلات البرية التي تحمل الإمدادات والتموين ، تقتضي القيام بعمليات بحرية واسعة (٧٢) ، ضد القواعد الحصينة للروم في الجزر القريبة من الساحل المغربي ، ولذا اهم موسى بن نصير بعمران تونس وتوسيع دار صناعتهما ، وشق القناة التي توصل ميناءها بقلدينة واستطاعت هذه القاعدة أن تبني مائة سفينة حربية انضمت

(٦٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ت : د . صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٧٠) مكنة . بالفتح ثم السكون والجيم وريادة هذه : مدينة على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء من البر الأعظم وبلاد البربر ، (البلاذري : مراصد الاطلاع ، ص ٨٩٣ - ٨٩٤) .

(٧١) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٢١ - ١٢٣ .
(ملاحظة : بلقظ المنطقة المرة الواحدة من السبت ، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب) ، (البلاذري : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٦٨٨) .

(٧٢) د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٢٢ .

(٧٣) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٢٣ .

إلى الأسطول (٧٣) ، فأصبح شمال أفريقيا مركزا بحريا نجح في شل تهديدات أسطول الروم وأصبح في يد المسلمين جزيرة قوصرة التي سيطر عليها المسلمون منها على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية (٧٤) ، كما سيطروا على جزيرتي ميورقة ومنورقة التابعة للملك لإسبانيا القوطي (٧٥) .

وبهذا تؤكد سلطان المسلمين وسيادتهم على الشمال الإفريقي وساد تلك البلاد الهدوء والأمن بعد أن أمضى المسلمون قرابة السبعين عاما في فتح المغرب وهو ما يعتبر شيئا فريدا بين سائر الفتوحات الإسلامية . ولم تكن طبيعة المغرب الجغرافية والسياسية والاجتماعية هي السبب الوحيد في طول مدة الفتح وإنما ينضم إليها أسباب أخرى تتصل بالأحوال الداخلية للخلافة الأموية من حيث انشغالها بالحداد الفتن والثورات التي واجهتها في المشرق .

سياسة موسى بن نصير وأثرها في المغرب الأوسط :

استهدفت سياسة موسى بن نصير تثبيت سلطان الإدارة الإسلامية في بلاد المغرب والقضاء على كل مظاهر الفوضى الباقية من العصر الروماني ، فقرب البربر إليه وحبيهم في الحكومة الجديدة وأشركهم في الأعمال وفي إدارة البلاد مع

(٧٣) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ١١٥ .

(٧٤) أرشيبالد فويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(قوصرة : بالفتح ثم السكون ، والصاد مهملة : جزيرة في بحر الروم بين المهدية ، وجزيرة صقلية ،

(البعداى : مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١١٣٣) .

محيطة : بثلاث كسرات ، وتشديد اللام ، وبعض بقوله : بالسين وأكثر أهلها يفتحون الصاد واللام :

من جزائر بحر المغرب ، مقابلة إفريقية مثلثة الشكل (البعداى : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٨٤٧) .

(٧٥) محمد عبد الله عند : دولة الإسلام في الأندلس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ ، ص ٢٢ .

(منورقة : بالفتح ثم الصم ، وسكون الواو ، والراء يلتقى فيها ساكنان وفتحة . جزيرة في شرق

الأندلس ، (البعداى : مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٣٤٦) .

(منورقة : بالفتح ثم الصم ، وسكون الواو ، وفتح الراء : جزيرة عامرة في شرق الأندلس قرب ميورقة

(البعداى : مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٣٢٥) .

العرب (٧٦) ، وبطبيعة الحال فقد تأثر المغرب الأوسط بهذه السياسة الرامية إلى كسب ثقة البربر ورضاهم . وزاد من نجاح هذه السياسة أن الإدارة الجديدة اعتبرت أرض الروم مفتوحة عتوة ، واعتبرت من تبقى من الروم موالى تنصرف في شعوبهم كما تشاء ، بينما اعتبرت الأراضي التابعة للبربر مفتوحة صلحا ، وتركها في يد أصحابها على أن يؤدوا المال عنها للدولة ، واعتبرت البربر المسلمين أحرارا كالعرب فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات (٧٧) ، كما أتاحَت الإدارة الجديدة أمم البربر كل الفرص للاشتراك في الجيوش العربية والانضمام إليها بل إن طارق بن زياد وهو من البربر تولى منصب القيادة في ولاية طنجة ومعه اثنا عشر ألفا من البربر (٧٨) يرافقهم عدد من فقهاء المسلمين يعلمونهم القرآن والفرائض ، وهذا يظهر لنا جانبا آخر اهتمت به الإدارة الجديدة وهو نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر الذين ظهرت بينهم همة عالية لنشر هذا الدين بين قبائلهم فبنوا المساجد ، وحولوا الكنائس التي بناها المشركون قبل ذلك إلى القبلة ، ولم يقف نشاطهم الديني هذا عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط بل تعداه ليشمل المغرب الأقصى أيضا (٧٩) .

ويبقى أن نشير هنا إلى سياسة موسى بن نصير في أخذ الرهائن والسياسيا والغنائم والإفراط في جمعها ، تلك السياسة التي أقاض المؤرخون القدماء في الحديث عنها ، يذكر القيرواني : أن سبي قلعة زغوان وحدها كان عشرة آلاف ، وأن سبي السوس الأقصى بلغ أربعين ألفا ، وهناك رواية لابن قتيبة فيها وصف دقيق لما حمله موسى بن نصير معه عندما قفل عائدا من المغرب إلى دمشق

(٧٦) د . حس أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، دار النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٧٧) د . إبراهيم العلوي . موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ، العدد ٦٨ ، ص ٥٤

(٧٨) ابن عبد الحكم - فوج مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٧٦ ، السلاوي . الاستقصا ، ص ٤٤ ، وقارن التومري ، نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٠ (الذي يذكر أن عددهم كان تسعة عشر ألفا) .

(٧٩) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ٧١

يقول : « وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل فيهم بنو كسيلة وبنو قصندر ، وبنو ملوك البربر وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورتق ، وأخرج بعشرين ملكا من ملوك جزائر الروم وأخرج معه مائة من ملوك الأندلس ومن الأفرنجيين ومن القرطبيين وغيرهم ، وأخرج معه أيضاً بأصناف ما في كل بلد من بزها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى ، فأقبل بجزيرة الدينا وراءه جراً لم يسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به » (٨٠) .

ويبدو أن أرقام السبي التي ذكرها المؤرخون مبالغ فيها كثيراً بدليل التناقض الذي نجده في روايات المؤرخين حول هذه الأرقام فبينما يذكر ابن خلدون : أن خمس السبي في المعارك الأولى التي خاضها موسى بن نصير قبل فتح طنجة والمغرب كان سبعين ألفاً (٨١) . نجد التويري يقول : أن الخمس منها كان ستين ألفاً (٨٢) . بينما نرى ابن عذارى يقول : بأن الخمس من معارك إفريقية — مستبعدا المغرب الأوسط — كان ستين ألفاً (٨٣) ، وحتى ابن عذارى نفسه يضطرب في هذه الرواية الأخيرة حول سبي إفريقية ، فإذا كان السبي من قلعة زغوان عشرة آلاف ، والسبي الذي قدم به عبد الله من نواحي إفريقية مائة ألف ، والذي جاء به مروان من النواحي الأخرى بإفريقية كان مائة ألف فكيف يكون خمس هذا المجموع كما يذكر ابن عذارى ستين ألفاً (٨٤) . ثم يذكر ابن عبد الحكم رواية تزيد الأمر تناقضاً وهي أن هذا الخمس كان عشرين ألفاً (٨٥) .

على أية حال لا يمكننا أن ننكر كثرة السبي الذي جمعه موسى فقد أجمع المؤرخون على كثرتة ولكن ليس إلى هذا الحد الذي ذكره إذ كيف يمكن للجيش

(٨٠) نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٨١) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٨٢) التويري : نهاية الأرب : مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٠ .

(٨٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٨٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٨٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المتعم عامر ، ص ٢٧٥ .

تقاتل في كل نواحي المغرب أن تسيطر على هذه الأعداد الضخمة من الأسرى ، كما أن الاحتفاظ بهم شيء باهظ التكاليف ، ويبدو أن المؤرخين خلطوا بين أعداد البربر الذين استأنوا وانضموا إلى الإسلام - عندما رأوا سطوة الإدارة الجديدة وبين الذين أخذوا على أنهم أسرى أو رهائن .

وطبعاً أن جزءاً كبيراً من هذا السبي بقي في المغرب فكان له دور كبير في حركة التعريب اللغوي (٨٦) ، وانتشار الإسلام لأنهم خالطوا المسلمين وتعاملوا معهم . أما الأعداد التي انتقلت من هذا السبي إلى المشرق فأثرها لا يجحد فقد أعطى هذا السبي من البربر سكان المشرق صورة واضحة للحياة في المغرب فأصبح المغرب بأقاليمه المختلفة ملاذاً لأي مسلم تطارده الخلافة ، وأصبح من السهل عليه أن يجد في المغرب أمناً وبغيتة (٨٧) .

وإذا كانت سياسة أخذ الرهائن والسبي والغنائم التي ابتدعتها حسان بن النعمان وتوسع فيها موسى بن نصير قد أدت إلى نمو حركة التعريب وانتشار الإسلام وأقرت الأوضاع نهائياً في المغرب لصالح المسلمين ، فقد كان لها آثار بالغة السوء في نفوس البربر فأوغرت صدورهم وملأها حقداً على العرب وغرست في نفوسهم بذور الثورة التي تعهدوا كثير من الولاة بعد موسى من حيث لا يشعرون حين حرصوا على إرهاب البربر وإبتزاز أموالهم وخيراتهم وقدموها للخلفاء طمعاً في رضائهم (٨٨) ، فكان ذلك مهبطاً لانتشار المبادئ الخارجية في المغرب تلك المبادئ التي يمثل أصحابها حرب المعارضة للبيت الأموي . وسنرى عندما نستعرض عصر الولاة مدى ما لحق الإدارة الأموية ببلاد المغرب من اضطراب بسبب هذه السياسة ، وأن نتيجتها الحتمية كانت انفجار الثورة في طنجة ، وامتدادها إلى المغرب الأوسط ممهدة لانفصاله عن الخلافة الأموية .

(٨٦) د . شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٨٦ .

(٨٧) د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٣٩ .

(٨٨) ابن عثاري : أعيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(ب) عصر الولاة واضطراب أحوال المغرب

فترة هدوء في مطلع عصر الولاة :

يطلق عصر الولاة في بلاد المغرب على الفترة الزمنية التي أعقبت استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير من الأندلس والمغرب سنة (٩٦ هـ / ٧١٤ م) (٨٩) ، وحتى قيام النول المستقلة بتلك الأرجاء . ولم يكن سليمان بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد الوليد راضياً عن موسى بن نصير وسياسته في المغرب ، فعزله وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي سنة (٩٧ هـ / ٧١٥ م) (٩٠) .

ولم يتوان محمد بن يزيد - والي المغرب الجديد - في تنفيذ تعليمات سليمان بن عبد الملك الصارمة بتتبع آل موسى بن نصير ، واستئصال أموالهم التي احتجزوها من البربر ، حتى إنه قبض على عبد الله بن موسى بن نصير وسجنه ، وعهد إلى خالد بن أبي حبيب بقتله والتخلص منه (٩١) .

(٨٩) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٦٤ .

(٩٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٧ ، (وليس موسى بن نصير وحده هو الذي لاقى هذا المصير من بين قادة النبوة الأموية بل لقيه أيضاً آل الحجاج ، ومحمد بن القاسم ، وثيبة بن مسلم ، وكان ذلك تمثيلاً مع السياسة العامة التي اتبعها سليمان بن عبد الملك في مطلع خلافته ، وهي سياسة الانتقام والتكيل بالمعديين من القادة وأهلهم الذين كانت بينهم وبين سليمان خصومات قديمة قبل توليه الخلافة ، د . أحمد شليس : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، ج ٢ ، ص ٧٦)

(٩١) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٧ ، النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٤ ، (اتفق ابن عذاري والنويري على أن عبد الله بن موسى بن نصير قتل في عهد محمد ابن يزيد بن عبد الحكم واليلازمي بجملان قتل على يد بشر بن سفيان ، ويرى الدكتور سعد رخلول عبد الحميد أن الأمر اختلط على ابن عبد الحكم فوضع نهاية أمية عبد الملك ، واختلط بين الاسمين بمكنى لتشابه رسمهما ، ويبدو أن ذلك صحيح ، لأن عبد الله كان نائباً عن والده موسى ابن نصير في المغرب ، والأحرى أن تمتد إليه يد البطش أولاً ، لأن يده أشياء كثيرة ، وهو أكثر اتساقاً -

ولعل هذه الخطوة من جانب محمد بن يزيد - الذى كان يتصف بالعدل وحسن السيرة - قد خلقت ارتياحا عاما لدى البربر ونعموا بالهدوء والأمن والعدل وحسن السياسة . ويذكر ابن عذارى : أن محمد بن يزيد كان يبعث السرية إلى ثغور إفريقية (٩٢) ، يقسم ما تعود به من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئا منها ، ولا بد أن ذلك أدى إلى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام (٩٣) .

ولكن ولاية محمد بن يزيد لم تدم طويلا فب وفاة سليمان بن عبد الملك استعمل الخليفة عمر بن عبد العزيز تابعيا جليلا هو إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر دينار سنة (١٠٠ هـ / ٧١٨ م) (٩٤) . وقد شهد المغرب جهودا عظيمة لهذا الوالى الجديد ، فقام بتطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز المالية التى كان هدفها تخفيف الأعباء المالية عن المسلمين من أهل البلاد ، فميز أرض الصلح عن أرض العتوة ، وألغى ما كان متبعيا من بيع أبناء لواتة من البربر فى خراجهم تحقيقا لمبدأ المساواة بين المسلمين (٩٥) . وإلى جانب ذلك حرص إسماعيل بن عبد الله على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم على يديه عامة البربر (٩٦) ، وعلونه فى ذلك عشرة فقهاء من التابعين منهم عبد الرحمن بن نافع ، وسعد بن مسعود

مع سياسة سليمان بن عبد الملك بن مروان التى اتبعها فى أول جهده ، ابن عبد الحكم . فروع مصر والمغرب ، ص ٢٩١ ، د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، هاشم ص ٢٣٠ ، ص ٢٣١ ، البلادى : فروع البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٩٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٧

(٩٣) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٩

(٩٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(٩٥) د . سعد رغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٣٦ .

(٩٦) النباغ : معالم الايمان ، ت : إبراهيم شيوخ ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، ابن الأثير : الخلة السيرة ، ت . د . حسين مؤنس ، ط . أولى ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

التجبيى وغيرهما (٩٧) . وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم تعليم البربر وتثقيفهم بالثقافة العربية الإسلامية ، واستطاعوا بفضل جهودهم أن ينقلوا البربر جميعهم إلى الإسلام . ولكن فترة السلم والهدوء لم تدم طويلا ، فما لبثت الأوضاع أن تبدلت عندما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك سنة (١٠١ هـ / ٧١٩ م) وكان يزيد هذا لا يقر إصلاحات عمر بن عبد العزيز ويرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التى كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة (٩٧) ، لذا باهر بعزل إسماعيل بن عبد الله وولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم الذى قدم إلى المغرب سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) (٩٨) .

سوء الإدارة العربية فى بلاد المغرب :

اتخذ يزيد بن أبى مسلم فى المغرب خطوات جريئة تشبه تلك الخطوات التى اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق ولا عجب فى ذلك فقد كان ابن أبى مسلم مولى للحجاج وصاحباً لشرطته بل إن ابن الأبار يذكر : أنه كان أنحاً للحجاج من الرضاغة (٩٩) . لذا فقد تشبه به فى سياسته ، فأساء السيرة فى البربر ، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم (١٠١) ، ولم يكتف بذلك بل : « أخذ موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيتهم وجعلهم

(٩٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٨ ، المالكى : رياض النفوس ، ت : حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٦٤ - ٧٥ .

د . محمد زعلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٩٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ابن الأبار : الخلة السواء ، ت : د . حسين مؤنس ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٩٩) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة ، د . حسين مؤنس : ثورات البربر فى إفريقيا والأندلس ، مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٨ ، ص ١٥١ .

(١٠٠) ابن خلدون : العرب ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، أحمد بك النائب الأنصارى الطرابلسى : المهمل المذهب فى تاريخ طرابلس العرب ، مكتبة الفرجانى ، ص ٥٧ .

أخماسا ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، ثم جعلهم حرسه ويطائنه ، وأخذ محمد بن يزيد القرشي فعذبه وجلده جلدا وجيما » (١٠١) .

وقع ظلم يزيد بن أبي مسلم على البربر كالصاعقة ، ومن ثم فكروا في وضع حد لأعمال الطاغية الظالم ، ولم يجدوا أمامهم سبيلا غير الثورة للقضاء عليه ، ويرى لنا ابن عذارى نهايته فيقول : « فقام على المنبر خطيبا فقال (يزيد بن أبي مسلم) : إني رأيت أن أرسم حرسى في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره حرسى ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فلذا وقفوا على أحد ، أسرع لما أمرت به فلما سمعوا ذلك منه أعنى حرسه اتفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى ، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه » (١٠٢) .

وحول البربر - الذين كانوا يتوقون إلى المساواة والعدل - أن يخففوا من وقع الحادث على الخلافة فولوا عليهم محمد بن أوس الأنصارى (١٠٣) وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك يحدقونه عن دوافع ثورتهم وعن التزامهم بالطاعة قالوا : « إننا لم نخلع يدا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم يزيد : إني لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم وأقر محمد بن يزيد على المغرب » (١٠٤) ، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سببا في وضع حد لحالة القلق التي كان البربر يشعرون بها ، فأصبحوا يشعرون بعدها أن بإمكانهم فرض رأيهم على الخلافة ولو أدى هذا بهم إلى استعمال القوة ، ولعل هذا كان سببا في أن بشر بن صفوان - الذي أقامه يزيد بن عبد الملك واليا

(١٠١) ابن عبد الحكم : فوج مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨ .

(١٠٢) ابن عذارى : البيان للمغرب ، ج ١ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(١٠٣) ابن عبد الحكم : فوج مصر والمغرب ، ص ٢٨٩ ، ابن عذارى : البيان للمغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ ، وقرن ابن خلدون الذي يذكر أن البربر ونوا عليهم محمد بن يزيد التوالى السابق ، ابن خلدون : العبر ، ط ١ ، دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ .

(١٠٤) السلاوى : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٧ .

على المغرب بعد ذلك سنة (١٠٣ هـ / ٧٢١ م) - اصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب تهدئة لخواطريهم ، وقام بمصادرة ما تبقى من أموال موسى بن نصير وعلب مواليه (١٠٥) ونجح في تهدئة المغرب ، فسادته فترة من الهدوء لم يقطعها غير وفاته سنة (١٠٩ هـ / ٧٢٧ م) عند عودته من غزو صقلية (١٠٦) .

وقد عاصر سوء الإدارة في بلاد المغرب في أواخر العصر الأموي انتشار التنافس البغيض بين سكانه العرب من اليمنية والقيسية وكان غلبة أى منهما على الآخر تتوقف على ميول الخلفاء أنفسهم ولما كان أكثر عرب المغرب من أصل يكاد يكون ينيا خالصا . فقد جرت عاداتهم على التزام الهدوء حين يكون ولائهم من اليمنيين ، أما إذا كان الولاة من القيسية فإن المغرب يصبح مسرحا لاضطرابات عنيفة مفرعة (١٠٧) . وذلك ما حدث بعد وفاة بشر بن صفوان إذ صادف ذلك تحول ميول الخليفة هشام بن عبد الملك عن اليمنية إلى القيسية ، ومن ثم ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١٠٨) - وكان من غلاة القيسية - فقدم إلى المغرب في ربيع الأول سنة (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) (١٠٩) . وما أن صارت الأمور إليه حتى اشتد في معاملة اليمنيين شدة لا مثيل لها ، فزج بهم في السجون واغتصب منهم أموالا كثيرة (١١٠) ، ولقى البربر نفس المعاملة

(١٠٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(١٠٦) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(١٠٧) رينرت دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا ، ترجمة د . حسن حشيش ، الجزء الأول ، الحروب الأهلية ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ١٣٤ ، ٥ . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٦٣

(١٠٨) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(١٠٩) ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(١١٠) دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا : ج ١ ، ص ١٣٥ (ومن هؤلاء اليمنية الذين عذبوا ، وكل بهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الذي يذكر ابن عدي أنه كتب أبياتاً يمت بها إلى هشام بن عبد الملك لأمر هشام بعزل عبيدة من إفريقية والمغرب ، ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٠ - ٥١) .

السيد ، فسبى نساءهم ، وأسرف في غزو قبائلهم . وكان لهذه السياسة العاقبة أثرها في اعتناق البربر لمبادئ الخوارج وانتشارها بينهم (١١١) . بيد أن هذا الوالى غادر المغرب في شوال سنة (١١٤ هـ / ٧٣٢ م) (١١٢) ، متوجها إلى دمشق يحمل ما جمعه من أموال وهدايا ليقدّمها إلى هشام بن عبد الملك ، وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخيل واللوايح والذهب والفضة والآنية (١١٣) وهناك طلب من هشام أن يعفيه من ولاية المغرب فأعفاه (١١٤) .

عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ هـ / ٧٣٤ م) .

أسند هشام ولاية المغرب إلى عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول بن قيس (١١٥) ، والذي كان واليا على مصر . فمضى إلى بلاد المغرب بعد أن استخلف على مصر ابنه القاسم (١١٦) . وقد تمتع هذا الوالى بثقافة عالية أشار إليها كثير من المؤرخين أمثال ابن عذارى الذي وصفه بقوله : « هو مولى بنى سلول وكان رئيسا نبلا وأميرا جليلا بارعا في الفصاحة والخطابة ، حافظا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها » (١١٧) وما أن تسلم ابن الحبحاب ولايته حتى قسمها بين

(١١١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٩٧ .

(١١٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥١ .

(١١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٩٢ .

(١١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(١١٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ت : عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٤٠ ، المؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٣٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥ .

(١١٦) نفس المصدر والصفحة ، ابن خلدون يذكر أن اسمه (أبا القاسم) ابن خلدون : العبر ، انظر ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٤ .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥١ ، (ويقول النويرى : « وكان رئيساً كاتباً بليفاً حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها » ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ور ١٥) .

بنيه وأنصاره فاستعمل على الأندلس « عقبة بن الحجاج السلولى ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابه إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادى » (١١٨) . واتبع عبيد الله فى المغرب سياسة قوية متشددة مع البربر ولم يكن هدف هذه السياسة بسط سلطان العرب وتقوية شأنهم فى بلاد المغرب بقدر ما كان هدفها الرغبة فى إرسال الأموال والهدايا والطرف إلى الخلافة التى كانت تواجه ارتباكاً مالياً خطيراً فى ميزانيتها وقد أدت هذه السياسة بعبيد الله إلى منزلق خطير حيث استباح لنفسه هو وعماله جمع الأموال من البربر بطرق غير مشروعة ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن وإلى طنجة عمر بن عبد الله المرادى كما يروى المؤرخون « أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فى المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام » (١١٩) .

وكان ذلك تطوراً خطيراً فى سياسة الإدارة العربية فى بلاد المغرب الأمر الذى دفع البربر إلى إرسال لجنة من شيوخ القبائل المغربية لتقصي الحقائق عند الخليفة الأموى فى دمشق واستطلاع رأيه قبل أن يندفعوا فى أى عمل من أعمال العنف التى طالما زينها لهم الخوارج الذين نشروا مبادئهم آنذاك فى أنحاء المغرب وألحوا فى إقناع البربر بأن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه وأن الخليفة هو الذى بكرههم على امتصاص دم الرعايا (١٢٠) . وقد شرح الطبرى هذه الحقيقة الهامة شرحاً وافياً . حيث قال : « فما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك . فلما دب إليهم أهل العراق (أى الخوارج) واستثاروهم ، قالوا : إنا لا نخالف الأئمة بما نجنى العمال ،

(١١٨) ابن عثاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥١ .

(١١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ ، د . حسين مؤنس . ثورات البربر فى إفريقيا والأندلس ، ص ١٦٦ .

(١٢٠) يوليوس فلهورن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة : د . محمد عبد الحادى أبو ريدة ، الألف كتاب رقم ١٣٦ ، ص ٣٣١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

ولا نحمل ذلك عليهم فقالوا : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا : لا نقبل هذا حتى نخيرهم . فخرج ميسرة المضغرى في بضعة عشر إنسانا حتى قدم على هشام . فطلبوا الأذن ، فصعب عليهم قاتلوا الأبرش (وزير هشام بن عبد الملك) فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين بأن أمورنا يغزو بنا وبجندته ، فإذا أصبنا نفلهم دوننا ، وقال : هم أحق به ، فقلنا : هو أخلص لجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال تقدموا ، وأحر جنده قلنا : تقدموا فإنه ازدياد للجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه ، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم ... ثم إنهم (أى الولاة) عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يقررونها عن السخال يعطون القراء الأبيض لأمر المؤمنين ، فيقتلون ألف شاه في جلد ! قلنا : ما أيسر هذا لأمر المؤمنين فاحتملنا ذلك وغليناهم وذلك . ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جملة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة فنحن مسلمون . فأحبينا أن نعلم ، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا . قال الأبرش : قعل . فلما طال عليهم ، وتفقدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ، ورفضوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماءنا وأنسابنا ، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه (١٢١) . وعلى إثر عودة الوفد اندلعت نيران الثورة في بلاد المغرب حيث كان يدعو لها إذ ذاك جماعات الخوارج في تلك البلاد .

(١٢١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ، (ذخائر العرب) (٣٠) ، ١ ، ٤ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(ج) انتشار المذاهب الخوارجية بين البربر

والدلاع الثورات المحلية ضد الخلافة العباسية

فر كثير من دعاة الخوارج إلى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب هربا من بطش الأمويين وضرباتهم ، ووجدوا في هذه البلاد مسرحا بكرا لنشاطهم وتربة صالحة لنشر مبادئهم وغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين ، والثورة على الظلم ، في جميع أشكاله ، وحلول هؤلاء الدعاة تعبير أفكار البربر وانجاساتهم السياسية والدينية . وكانت فرق الخوارج التي لجأت إلى المغرب من جماعات الصفرية والإباضية ، حيث كانت فرق الخوارج الأخرى المعروفة بالتشدد مثل الأزارقة قد عهاوت في المشرق تحت ضربات الأمويين العنيفة .

وقد اختلف البربر في مدى تقبلهم لهذه التعاليم فانتشرت الصفرية بين بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن بينما اعتنق بربر المغرب الأوسط والقسم الشمالي من المغرب الأقصى تعاليم الإباضية (١٢٢) . وإلى جانب الصفرية والإباضية كان هناك المتطرفون الغلاة من البربر الذين يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة في برغواطة عند أتباع صالح بن طريف الذي تسمى بصالح المؤمنين (١٢٣) .

ومما ساعد على انتشار دعوة الخوارج على هذا النطاق الواسع أن دعاة الخوارج من إباضية وصفرية عندما نشروا دعوتهم ببلاد المغرب حرصوا على عدم ذكر مذهب من المذاهب وإنما نشروها تحت شعار المناداة باسم الإصلاح والعمل بالكتاب والسنة (١٢٤) .

(١٢٢) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٣١٠ .

(١٢٣) نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٢٤) د . إبراهيم المدوي : بلاد الجزائر ، ص ١٦٧ .

ويجوع هؤلاء الدعاة في تفجير الوضع في بلاد المغرب في صورة ثورات متتالية عمت أرجاء المغرب وأماهاته ، وكانت أولى هذه الثورات ثورة ميسرة .

ثورة ميسرة :

اشتهرت هذه الثورة في التاريخ باسم قائدها ميسرة المدغري نسبة إلى قبيلة مدغرة التي ينتمي إليها (١٢٥) . وبعض المصادر تلقبه بالفقير (١٢٦) أو الحقير (١٢٧) ، وبعضها يلقبه بالسقاء لأنه امتنع بيع الماء بسوق القيروان (١٢٨) ولكن ابن خلدون يذكر أنه كان شيخا لقبيلة مضغرة (١٢٩) ، وهذا هو الأرجح لأنه نجح في ضم كثير من القبائل إلى جانبه حين قام بالثورة ، ويؤيد ذلك أيضا أنه ترأس وفد شيوخ القبائل المغربية إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٣٠) . ولما لم يجد وفد المغرب من الخلافة اهتماما يبحث مشاكل البربر ومتاعيمهم ، وكانوا قد تلخصوا في دمشق المنهاج الذي يسير عليه خوارج المشرق وطريقتهم لنا فقد قرروا الخروج من المعارضة السلمية الصامتة إلى الثورة والصراع المسلح مع الخلافة وممثليها من العمال (١٣١) .

وجاء إعلان الثورة في أنسب الظروف حين خرج جيش الولاى في حملة بحرية لغزو صقلية بقيادة حبيب بن أبى عينة الفهري سنة

(١٢٥) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ، ت ١ عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٣

(١٢٦) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٢٧) ابن عديم : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(١٢٨) ابن القوطية : تاريخ اختراع الأندلس ، ص ١١ ، ابن الأثير الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩١

(١٢٩) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى بيروت ، ج ٦ ، ص ١١٨

(١٣٠) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى بيروت ، ج ٦ ، ص ١١٩ ، د . حسين مؤنس . ثورات البربر في إفريقية والأندلس : ص ١٥٦ ، د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٥٠ .

(١٣١) د . سعد زعول : عبد الحميد : تاريخ المغرب المعرف ، ص ٢٥٦ .

(١٢٢ / ٨ / ٧٤٠ م) (١٣٢) . وعندما قامت الثورة وادعى ميسرة الخلافة وتسمى بها وبابيه الثوار عليها (١٣٣) ، وانضم إلى ميسرة في هذه الثورة « بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف كما انضم إليه الأفرقة في طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج » (١٣٤) وانضمت إليه أيضاً أقوى قبائل المغرب الأوسط وهي زناته (١٣٥) ، وقد روى المؤرخون ضراوة هذه الثورة فيقول ابن عذارى : « فخرج ميسرة المدغرى وقام على عمر بن عبد الله المرادى بطنجة فقتله (١٣٦) » ويذكر صاحب الأخبار المجموعة أن الثوار دخلوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها ويقال إنهم قتلوا (١٣٧) الصبيان . وبعد أن سيطر ميسرة على الأمور في طنجة ترك عليها أحد أعوانه وهو عبد الأعلى بن جريج الإفريقى واتجه إلى السوس وهناك التقى بإسماعيل بن عبيد الله فهزمه وقلته (١٣٨) . وأمام هذه الانتصارات تأجج غضب الثورة فعمت أنحاء المغرب حيث وثب كل قوم من العرب على من يلهم فقتلوا وطردها .

وأمام مفاجأة الثورة لمبيد الله بن الحبحاب حاول تجميع قواه لضرب هذه الثورة ، فأرسل إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامله على الأندلس يطلب إليه مهاجمة مواقع الثوار في طنجة ، ولكن عقبة لم يستطع إتمام هذه المهمة وعاد أدراجه (١٣٩) . فأرسل ابن الحبحاب جيشاً بقيادة خالد بن حبيب الفهرى ، وفي نفس الوقت أرسل في استدعاء حبيب بن أبى عبيدة من صقلية وبعثه في إثر

(١٣٢) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٣٣) ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المقيم عامر ، ص ٢٩٣ .

(١٣٤) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٠٤ .

(١٣٥) د . إبراهيم العلوى - بلاد الجزائر ، ص ١٧٠ .

(١٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(١٣٧) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٣٨) ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المقيم عامر ، ص ٢٩٣ .

(١٣٩) د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٦٧ .

خالد (١٤٠)، ولقي ميسرة خالدا بناحية طنجة فاقتتلا قتالا شديداً ثم تجاوزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه ، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتي (١٤١) الذي التقى بخالد بن حبيب ما بين وادي شلف إلى قرب طنجة (١٤٢) ، وأنزل بالعرب هزيمة قاذحة راح فيها كما يقول ابن عذارى : « حماة العرب وفرسانها وكائنها وأبطالها » (١٤٣) لذا سميت هذه المعركة « غزوة الأشراف » (١٤٤) وقد تأثر هشام بن عبد الملك لتدهور الأمور في المغرب على هذا النحو وقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عرية ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عنى » (١٤٥) .

نجحت ثورة ميسرة في فصل المغرب الأقصى عن الخلافة الأموية وأخذ سكانه من البربر يعتمدون على أنفسهم في حل مشاكلهم بحسب ما هم فيه من أوضاع سياسية واجتماعية ودينية ، وبهذا وضحت شخصية المغرب وضوحاً تاماً (١٤٦) .

أما المغرب الأوسط فقد ظل مسرحاً للصراع الدامي بين قوات الخلافة التي تحاول استرداد نفوذها على أرضه بكل الوسائل ، وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم .

(١٤٠) ابن علقون . المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن عذارى . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩٢ .

(١٤١) ابن علقون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩٢ .

(١٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(١٤٣) نفس المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٤٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شقم ، ص ٤٠ .

(١٤٥) ابن أبي دينار - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شقم ، ص ٤٠ .

(١٤٦) د . حسن أحمد محمود . قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

جهود الخلافة لاسترجاع نفوذها في المغرب :

تولى أمر المغرب كلثوم بن عياض القشيري وقدم إلى المغرب سنة (١٢٣ هـ / ٧٤١ م) (١٤٧) في جيش جرار تضخم تضخما عظيما بمن انضم إليه من جند الشام ومصر وبرقة وطرابلس حتى بلغ عدده ٧٠ (سبعين) ألف رجل (١٤٨) . ولكن المعصية لعبت دورها التمس في تحطيم صفوف هذا الجيش القوى ، فالظاهر أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم على التناكيد من أهل إفريقية والمغرب الذين حطمهم البربر في أكثر من موقعة (١٤٩) ، علاوة على ذلك فإن قائد الجيش الإفريقي حبيب بن أبي عبيدة لقي الكثير من الإهانة من بلج بن بشر القيسي ، ومن كلثوم بن عياض نفسه يقول ابن عبد الحكم : « قدم كلثوم فتلقيه حبيب فتهاون به أيضا ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له ، فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته » (١٥٠) وإلى جانب هذه المعاملة السيئة التي لقيها العرب المقيمون في البلاد فإن كلثوما استهان بقوة البربر ولم يستفد بخبرة من سبقوه بالقتال في هذا الميدان الوعر فقد أشار حبيب بن أبي عبيدة على كلثوم أن يقاتل البربر الرجالة بالرجالاة ، والخييل بالخييل (١٥١) فقال له كلثوم : « ما أغنانا عن رأيك يا ابن أم حبيب » (١٥٢) . وهكذا أصبح جيش الخلافة على هذه الحالة من التفرق والانشقاق فما أن دارت المعركة بينه وبين البربر عند وادي سبو (١٥٣) ،

(١٤٧) د . سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٦٢ .

(١٤٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(١٤٩) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(١٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٥ .

(١٥١) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٥٢) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٥٣) ابن عذارى : البيان للمغرب ، ج ١ ، ص ٥٥ .

حتى مى بالهزيمة الفادحة ويصف ابن عذارى هذه المعركة وصفا دقيقا رائعا فيقول : « ثم نشب القتال ، وقعدت البربر تحت الدرق ، وتناشبت الخيل وكشفت خيل العرب خيل البربر ، ثم انكشفت خيل العرب ، والتقت الرجال بالرجال فكل صبر وقتال ، وخالطت خيل البربر ورجالهم كلثوما وأصحابه فقتل كلثوم ، وحبيب بن أفي عينة وسليمان بن أفي المهاجر ، ووجوه العرب ، فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية » (١٥٤) . ويذكر ابن القوطية أن خسائر العرب في هذه المعركة كانت عشرة آلاف كان من بينها كلثوم بن عياض (١٥٥) .

ورغم الهزيمة التي منى بها جيش الخلافة عند وادي سبو (بقنورة) فقد تابعت الخلافة الأموية جهودها لوضع حد لثورة البربر الصفرية ، فأرسلت حنظلة ابن صفوان (والى مصر) لمباشرة هذه المهمة سنة (١٢٤ هـ / ٧٤٢ م) (١٥٦) وكان قد ظهر في هذه الآونة رعيمة من البربر هما أبو يوسف الهواري ، وعكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى ، استطاع هذان الزعيمان أن ينقلا منطقة الصراع إلى بلاد المغرب الأوسط وبخاصة إقليم الزاب في شرق تلك البلاد ، وكان كل منهما يتأهب للزحف على القيروان (١٥٧) . فسار إليهما عكاشة عن طريق مجانة ، بينما اتجه عبد الواحد إليها عن طريق جبل باجة وتوقف عبد الواحد على بعد مرحلة من القيروان عند موضع يعرف بالأصنام بينما عسكر عكاشة على بعد ستة أميال من القيروان عند موضع يعرف بالقرن (١٥٨) . وأمام تكتل جهود الصفرية لاقتلاع القيروان من قبضة العرب رأى حنظلة أن يلقي كلا منهما على حدة لذا

(١٥٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٥٥) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤١

(١٥٦) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧٢

(١٥٧) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٣١٢

(١٥٨) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧٤ .

أرسل إلى عكاشة وأخذ يرغبه ويمنيه (١٥٩) ، حتى يكسب مزيدا من الوقت يهاجم فيه عبد الواحد الذى يقف قريبا منه عند الأصنام وزحف حنظلة إلى عبد الواحد ومن معه « فلقبهم بالأصنام ، فهزم الله عبد الواحد وجمعه ، وقتل ومن معه قتلا ما يدرى ما هو ، وهرب من هرب منهم » (١٦١) .

سار حنظلة بعد ذلك برجاله المظفرين نحو موضع القرن قبل أن يبلغ عكاشة الفزاوى نيا مصرع حليفه عبد الواحد ، وانقض القيروانيون بكل ما عندهم من حماس النصر والقوة على عكاشة الذى أخذ من هول المفاجأة فانهزم وأصحابه (١٦١) . ويقول ابن عبد الحكم : « وهرب عكاشة حتى انتهى إلى بعض نواحي إفريقية فأخذه قوم من البربر أسيرا حتى أتوا به إلى حنظلة فقتله » (١٦٢) .

وكانت الخلافة الأموية آنذاك قد دب فيها الضعف وأصابها الزهون وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة حيث كانت الدعوة إلى آل البيت على أشدها في المشرق ، وانشغل الأمويون في الصراع مع هذه الدعوة وكان لذلك صدها في بلاد المغرب التي أصبحت مرتعا للمتعلين عليها من الخوارج والمعاشرين من ذوى النفوذ والسلطان (١٦٣) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب أحد هؤلاء المغامرين من القادة العسكريين الذين عملوا في ميدان المغرب (١٦٤) ، وقد هرب إلى الأندلس بعد أن هزم في بقلورة وهناك حاول أن يصل إلى الإمارة ولكنه فشل في مسعاه فركب سفينة حملته إلى تونس وهناك قام بالدعوة لنفسه وحاوله في ذلك العرب والأفارقة ،

(١٥٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٩ .

(١٦٠) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٦١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٢٦ .

(١٦٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٩ .

(١٦٣) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٨ .

(١٦٤) ابن عفرى . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٦٠ .

والبربر الزناتيين ويبدو أن الذي دفعه إلى ذلك أنه كان يشعر أنه زعيم العرب الأفاقة فهو ينتمى إلى أقدم بيوت العرب الفاتحين مجده عقبة بن نافع هو الذي أسس القيروان كما ساهم أبوه حبيب وجده أبو عبيدة بن عقبة بنصيب كبير في الفتح الإسلامي للمغرب (١٦٥) .

وأراد حنظلة أن يخرج لقتال عبد الرحمن بن حبيب ولكنه كره قتال المسلمين وكان رجلا ذا ورع ودين (١٦٦) . ولعله رأى أن الخلافة الأموية قد تدهورت أحوالها وأنها من الضعف بمكان يصعب معه أن تقوم بمساعدة حنظلة إن هو دخل في صراع جديد في المغرب ، لذا قرر حنظلة أن يتنازل عن الإمارة ورحل عن القيروان إلى دمشق في جمادى الأولى سنة (١٢٧ هـ / ٧٤٤ م) (١٦٧) . وما أن صارت الأمور لمروان بن محمد واستقرت له الخلافة حتى أمر عبد الرحمن بن حبيب واليا على المغرب تفاديا للانقسامات والفتن (١٦٨) . وأصبح عبد الرحمن بن حبيب أول أمير استيلاء على ولاية المغرب .

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يظل واليا على بلاد المغرب برغم سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ وقيام الدولة العباسية إذا اضطرت الخلافة العباسية إلى الاعتراف بهذا الوالى جريا على قاعدة إمارة الاستيلاء لأنها كانت

(١٦٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(١٦٦) ابن عسكري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(١٦٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ .

(١٦٨) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، طر ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، ص ١٢ . رعت موري عبد انطلب الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، ص ١١٧ .

في المراحل الأولى لدعم كيائها في المشرق (١٦٩) .

(١٦٩) د . إبراهيم المدوني : بلاد الجزائر ، ص ١٧٤ ، « بقيام المباسين على عرش الخلافة الإسلامية حدث تطور هام في الإدارة في المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب ، وجاء هذا التطور وليد الأحداث السريعة التي سادت أواخر العصر الأموي ، وقد ظهرت دلائل هذا التطور الجديد في تطلع نقر من قادة الجيوش إلى السيطرة على مقاليد الحكم وعبء منوم في تحقيق مطامعهم الشخصية والأسرية ، وانقسم أولئك القادة إلى قسمين : أحدهما جئح إلى الانفراد بالأمر دون رضاء الخلافة وهو النوع الذي أطلق عليه فقهاء المسلمين اسم « أمراء الاستيلاء » والآخر انفراد بإدارة البلاد بتعرض من الخلافة ، وهو ما سماه فقهاء المسلمين باسم « أمراء الاستكفاء » ، نفس المصنر السابق ، نفس الصفحة .

(د) النقال مقاليد الصراع في المغرب

من الصفرية إلى الإباضية

دخلت ظاهرة الثورات في بلاد المغرب في دور جديد من تاريخها عندما أخلت تنتقل مقاليد القيادة فيها من أيدي الصفرية من الخوارج إلى أيدي الإباضية من نفس فرقة الخوارج ، ويعزى السبب في ذلك إلى أن أهل المغرب ضاقوا ذرعا بعنف الصفرية .

وظهرت بوادر ذلك التطور عندما عين عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس بن حبيب واليا على طرابلس إحساسا منه بمخطر الإباضية عليه بعد أن بايعوا عبد الله بن مسعود التجيبي رئيس الإباضية في طرابلس إماما لهم (١٧٠) . فما كان من إلياس إلا أن قتل عبد الله بن مسعود التجيبي (١٧١) . وكان لهذا التصرف الأثر من جانب إلياس عواقبه الوخيمة إذ ثار الإباضية وأخذوا يحتشدون للشوة ، وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأمور فعزل إلياس عن طرابلس ، ولكن هذا الإجراء من جانب عبد الرحمن لم يحل دون ثورة الإباضية بقيادة إمامهم الجديد الخارث بن تليد الحضرمي وقاضيه ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي (١٧٢) . واستطاع هذان الزعيمان الإباضيان أن يحرزا النصر تلو النصر على قوات عبد الرحمن بن حبيب (١٧٣) . إلا أن عبد الرحمن تمكن في النهاية من قتلهما ، ويروى ابن عبد الحكم أن خلافا حدث بين الزعيمين الإباضيين

(١٧٠) محمد علي ديور ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

(١٧١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ .

(١٧٢) د إسماعيل عيسى : تاريخ ليبيا ، ص ٤٢ ، محمد علي ديور ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤١١ .

(١٧٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

وأُنهما اقتتلا فقتل كل منهما الآخر (١٧٤) . وقولُ إمامة الإباضية إسماعيل بن زيادة النفوسى ، واستطاع عبد الرحمن بن حبيب القضاء عليه هو الآخر قبل أن يستفحل أمره وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقباسي قدام ابن عمه شعيب بن عثمان في خيل فلقمه إسماعيل فقتل إسماعيل وأصحابه ، وأسر من البربر أسارى كثير » (١٧٥) . ولم عهداً الأحوال لعبد الرحمن إذ واجه ثورات عديدة كان أكثر القتالين بها من بقايا الصفرية وقد أجمل ابن عسارى هذه الثورات في قوله : « ولما ولي عبد الرحمن ، ثار عليه جماعة من العرب والبربر ، ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصدفى فاستولى على تونس ، وثار عليه عرب الساحل وقام عليه ابن عطفاف الأزدي وثار البربر في الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بياضة فأخذها » (١٧٦) .

وتمكن عبد الرحمن بن حبيب بعد جهود مضنية من إخماد هذه الثورات ، وساعده في ذلك أخوه إلياس بن حبيب ، وبمرور الوقت ازدادت أقدم عبد الرحمن بن حبيب رسوخاً في إفريقية ، فلما أن جاءت سنة (١٣٥ هـ / ٥٢ - ٧٥٣ م) حتى وجه أنظاره نحو المغرب الأوسط (١٧٧) ، إدراكاً منه أن المغرب الأوسط عصب الحياة لأية قوة سياسية تريد البقاء في بلاد المغرب لذا جهد عبد الرحمن في أن يجعل هذا الإقليم الهام ضمن ولايته (١٧٨) ، فغزا أرض رنات بنواحي قلمسان (١٧٩) . وقام بعد ذلك بتأمين سواحل إمارته

(١٧٤) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، (يذكر ديور أن عبد الرحمن بن حبيب دس إليها من قتلها ثم أدخلوا في كل واحد مبيها سيفاً وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليتوهم الناس أنهما تنازعا فقتلا فقتل كل مبيها صاحبه وقد ثار بين الإباضية خلاف شديد حول البراعة مبيها أو الشك في مقتلها ، محمد على ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤١٣)

(١٧٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد النعم عامر ، ص ٣٠٢

(١٧٦) ابن عسارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٦١ .

(١٧٧) د . سعد رغلولة عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٩٣

(١٧٨) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(١٧٩) ابن خلدون : المعجم ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٠٧ .

بغزو بحرى لكل من صفلية وسردانية (١٨٠) .

ولكن أحقاد إلياس بن حبيب دفعته إلى قتل أخيه عبد الرحمن سنة (١٢٧ هـ / ٧٥٤ م) ، وسطا على الولاية فأخذها لنفسه (١٨١) من حبيب بن عبد الرحمن صاحب الحق الشرعى في هذه الولاية ، وتودت الأسرة الفهرية في صراع دموى قتل فيه إلياس بن حبيب سنة (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) (١٨٢) .

ومضت الأمور في البلاد من سئ إلى أسوأ حيث لاذ إخوة إلياس ببطن من بطون بربر نقزة يقال لهم ورفجومة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، وهناك طلبوا من أميرها عاصم بن جميل مساعدتهم ضد منافسهم حبيب بن عبد الرحمن وكانت هذه فرصة عظيمة للصفرية لتحقيق أهدافهم السياسية بالاستيلاء على القيروان ، وقد تم لهم ذلك فعلا فاستولوا على القيروان سنة (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) (١٨٣) . وتمكن عبد الملك بن أبى الجعد من قتل حبيب بن عبد الرحمن في المحرم من سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٨٤) .

وقد استفاد دعة الإباضية من هذه الأحوال المضطربة ، فنشروا مذهبهم على نطاق واسع وساعدتهم على ذلك أن كثيراً من عامة البربر رفضوا سلوك الصفرية ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذى تردوا فيه فقد كانت ثورات الصفرية شراً مستظراً على البربر ومصلحهم وقد بلغ هذا الشر مداه عندما استولت ورفجومه على القيروان بقيادة أميرها عاصم بن جميل ، وكان قد ادعى النبوة والكهانة . فبدل الدين وزاد في الصلاة ، وأسقط ذكر النبي ﷺ من

(١٨٠) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٩٢

(١٨١) نفس المرجع السابق : ص - ٣ .

(١٨٢) ابن عشارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(١٨٣) د . السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ، ص ٣٢٧

(١٨٤) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

الأذان (١٨٥) . وزادت فظائع الصفرية في القيروان « فاستحلت ورفجوه المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه » (١٨٦) .

وتلك ظاهرة خطيرة استغلها دعاة الإباضية في التقليل من شأن منافسهم من الصفرية ومن ناحية أخرى في نشر مذهبهم حتى أصبحوا القوة السياسية الوحيدة التي يمكن لأهل القيروان وغيرهم من الزبر أن يستغيثوا بها ضد أعمال الصفرية ومقاسدهم بعد أن قضى على القوة العربية المتمثلة في آل الفهري ونجح هؤلاء الإباضية في إعادة تنظيم صفوفهم من جديد وتولى أمر هذه المهمة حملة العلم الخمسة الذين درسوا أصول المذهب الإباضي في البصرة على يد داعية الإباضية الأكبر أي عبيدة مسلم بن أي كريمة (١٨٧) . ويذكر الشماخي أن رجال الإباضية تشاوروا بموضع يقال له « صياد » في غربي مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية أي الخطاب المعافري إماماً لهم (١٨٨) .

اتجه أبو الخطاب المعافري بعد مبايعته إلى طرابلس فاستولى عليها وطرده عاملها عمر بن عثمان القرشي سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٨٩) . واتخذها مقراً

(١٨٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٦٥

(١٨٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(١٨٧) الدرجيني : طبقات الإباضية ، خطوط ، ورقة ٤ .

(١٨٨) الشماخي : السير - ص ١٢٤ ، ١٢٥ (ويذكر الشماخي : أن الاجتماع الذي تمت فيه مبايعة أي الخطاب أحيط بالسرية التامة حيث تظاهر الإباضية . أن اجتماعهم بسبب أوضاع أوضاعهم فسحتهم وقيل بسبب رجل وامرأة انحصرا فاتفقوا ليوم معلوم يجتمعون فيه ويأتى كل واحد من خلفه من أتباعه ويجمعون عددهم في غراتر مخوفة تبا فأخرجوا أي الخطاب معهم فتكلم فقال امضوا الأمر الذي عزم عليه فقامت طائفة يتناجون كل ذلك لا علم لأى الخطاب بشئ فلما رجعوا من المناجاة قالوا لأى الخطاب أبسط يدك نيابتك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وستة ثبته عليه السلام وآثار الصالحين من بعده) .

(١٨٩) الشماخي : السير ، ص ١٢٦ ، بحر الدين الزركلي : الأعلام ، الطبعة الثانية ، ج ٤ ،

ص ٤٢

له ، وما أن انتهى من تنظيم شئوننا حتى وصلته أنباء الفطائع التي ترتكبا ورفجوه في القيروان فقد روى ابن الأثير « أن رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة فرأى ناساً من الورفجوميين قد أدخلوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع فترك الإباضى حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى فأعلمه ذلك فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « يبتك اللهم يبتك » (١٩٠) .

خرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من ربة الصفرية ، فاستولى في طريقه على قايس وترك عليها عاملاً من قبله (١٩١) ، ثم توجه نحو القيروان فالتقى بالصفرية في موضع قرب القيروان يذكر البكري أن اسمه رقادة (١٩٢) . وهناك دارت رحى معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية ومرارهم أمام أبي الخطاب الذي دخل القيروان سنة (١٤١ هـ / ٧٥٨ م) (١٩٣) ، فنظم شئوننا وترك عليها شخصية من أبرز الشخصيات الإباضية من حملة العلم وهي شخصية عبد الرحمن بن رستم (١٩٤) الذي تألق نجمه في الأفق السياسي منذ ذلك الوقت فحمل لواء الفكر السياسي في المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة ، ونقل هذا الفكر من مرحلة الدعوة والنظريات إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ في إطار أكد

(١٩٠) ابن الأثير . الكامل ، ج ٥ ، ص ٣١٦ ، البويرى ، نهاية الأرب . مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٨ ، الشماخي السير ، ص ١٢٧ .

(١٩١) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١٩٢) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ص ٢٨ (يروى البكري أنها سميت رقادة لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض) .

(١٩٣) ابن عذارى . ألباء المغرب ، ج ١ ، ص ٧١ ، ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب النشائي ، ج ٤ ، ص ٤١٠ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ٥ ، ص ٣١٦ ، البويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ . القسم الأول ورقة ١٩ ، وفلارن الشماخي : السير ، ص ١٢٩ .

(١٩٤) نفس المصادر السابقة . نفس الصفحات

وجوده في بلاد المغرب تحت اسم الدولة الرستمية (١٩٥) .

وبينا رشحت أحداث الإباضية شخصية عبد الرحمن بن رستم بتوليته
شعوب القيروان كانت الخلافة العباسية تدل بدلوها في توجيه تلك الأحداث
إد وجه الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي اهتمامه لاسترداد سلطان الخلافة
الإسلامية على بلاد المغرب (١٩٦) .

وأصدر أبو جعفر المنصور أوامره إلى محمد بن الأشعث وإلى مصر بتحريك
الجيش إلى المغرب ويبدو أن ابن الأشعث استهان بقوة الحركة الإباضية في إفريقية
حيث أرسل قوة من ناحية بركة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي فخرج إليها
أبو الخطاب وما أن وصل ورداسه حتى وجه إلى هذه الحملة صحران الموارى
فلقى العوام وهزمه بأرض سرت (١٩٧) .

فجهز محمد بن الأشعث جيشاً آخر جعل عليه أبا الأحوص عمر بن
الأحوص البجلي فلقه أبو الخطاب بمحمداس سنة (١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) ،
ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبي الأحوص وانسحابه إلى مصر (١٩٨) .

أمام هذه الهزائم المتلاحقة أمر أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث بالتوجه

(١٩٥) د - إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٧٦ .

(١٩٦) نفس المرجع السابق : نفس الصفحة ، (ويرى النويري أن جماعة خرجت إلى أبي جعفر
المنصور منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، ونافع بن عبد الرحمن السلمي ، وأبو الهول بن عبيدة ،
وأبو العباس فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر ، ووصفوا عظيم ما فقه ، النويري : نهاية الأرب ،
مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، ابن خلدون : المعبر ، ط ، دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ،
ص ٤١١) .

(١٩٧) الشماخي : السير ، ص ١٣٠ .

(١٩٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٧ ، ابن عداري : البيان المغرب ، ج ١ ،
ص ٧١ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣١٧ ، الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، ص ١٠٩ .

إلى المغرب بنفسه بعد أن أسند إليه ولاية إفريقية (١٩٩) . ولم يكتف بذلك بل أمدّه بالجيش ، يذكر النويري أن عندها كان أربعين ألفاً منهم ثلاثون ألف فارس من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام (٢٠٠) ، ويبدو أن هذا الجيش قد تضخم حين خروجه من مصر حتى بلغ خمسين ألفاً من الجنود (٢٠١) ، كان عليهم ثمانية وعشرون قائداً (٢٠٢) ، منهم الأغلب بن سالم التميمي والحارب بن هلال الفلومي ، والحارقي بن عفار الطائي وهم نواب ابن الأشعث في القيادة (٢٠٣) .

مضى ابن الأشعث بهذا الجيش الكثيف ، وكان أبو الخطاب قد تهيأ للحرب ابن الأشعث فأرسل في استدعاء عيد الرحمن بن رستم من القيروان (٢٠٤) ، وتذكر معظم المصادر أن حلفاء كبيراً نشب بين جماعات الإباضية حيث تنازعت زنقة وهوارة واتهمت زنقة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة وفارق بعضهم أرض المعركة (٢٠٥) . يقول ابن عذارى : « ثم إن زنقة وهوارة تنازعت فيما بينهما ،

(١٩٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ ، النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ .

(٢٠٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الورقة .

(٢٠١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ .

(٢٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢ (ويذكر ابن الأثير أن عددهم كان مائة وثمانية وعشرون قائداً ولكن رواية ابن عذارى أقرب إلى الصحة لأن عدد القادة يتناسب وعدد الجيش ، ابن الأثير : الخلة السواء ت ٥ . حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٢٠٣) النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، الشماخي : السير ، ص ١٣١ .

(٢٠٤) النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ .

(٢٠٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢ ، النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ ، (ويبدو أن قبيلة زنقة قد تفرقت أرض المعركة جملة ولم تشترك في القتال فالشماخي يروي أن القبائل التي اشتركت مع أبي الخطاب في القتال هي : نفوسة ، وهوارة وطريشة) .

وأصبحت زنانة أبا الخطاب في ميله مع هوارة ففارقه جماعة منهم (٢٠٦) . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف جبهة الإباضية رغم كثرة عددهم فالتقى ابن الأشعث بمن تبقى مع أبي الخطاب واقتتلوا قتالا شديداً هزمت فيه الإباضية وانتهت المعركة بمقتل أبي الخطاب سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) (٢٠٧) .

والشماخي المؤرخ الإباضي لا يذكر شيئاً من هذا الخلاف بين زنانة وهوارة وإنما يروى أن انصراف الجموع عن أبي الخطاب كان بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الأشعث حول الإباضية حيث تظاهر بالعودة إلى مصر وكان الوقت وقت زرع ففرق الناس عن أبي الخطاب إلى زروعهم وأوطانهم فذهبهم ابن الأشعث الإباضية وهم على هذه الحال فهزمهم عند تورغا (٢٠٨) .

وصلت أبناء الكارثة التي حلت بالإباضية إلى مسامع عبد الرحمن بن رستم فسار بأهله إلى المغرب الأوسط وقد حمل معه ما خف من ماله تاركاً خلفه القيروان (٢٠٩) التي وصلها محمد بن الأشعث في جمادى الأولى سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) (٢١٠) .

وتأكد لعبد الرحمن بن رستم أن نجاح الإباضية في منطقة يسود فيها المذهب السني ، وتقاتل عنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير مكفول النتائج (٢١١) ، ولذلك أصبحت منطقة تاهرت في المغرب الأوسط هي المكان الطبيعي الذي تضمن ظروفه الطبيعية والسياسية إقامة الدولة الإباضية .

(٢٠٦) ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٢٠٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣١٧ .

(٢٠٨) الشماخي : السير ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢٠٩) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٢١٠) د . سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربي ، ص ٣١٥ .

(٢١١) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، ص ٤٨ .

الفصل الثاني

قيام الدولة

نسب الرستميين :

كان انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط إزداناً بظهور الدولة الرستمية ، التي أصبحت قوة جديدة لها أثرها البالغ في تشكيل أحداث المغرب كله ، إلى نهاية القرن الثالث الهجري . والحديث عن الدولة الرستمية يشدنا إلى الحديث عن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذي أجمعت المصادر على أنه فارسي الأصل (١) . وإن اختلفت هذه المصادر فيما بينها في تحديد طبيعة هذا الأصل الفارسي .

فالبيكري يرتفع بنسب عبد الرحمن بن رستم إلى أصل ملكي يرتبط بأكاسرة الفرس الساسانيين ، فيجعله هو : « بهرام بن ذي شرار بن سابور بن بابكان بن

(١) اليعقوبي . كتاب البلدان ، ص ٣٥٣ ، ابن خردادبه . المسالك والممالك ، ص ٨٧ ، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ص ٢٢٥ ، يوسف أسعد دافر ، دار الأندلس ، بيروت ، ط . ١٩٦٥ ، ص ١٨٦ ، ابن علقمى . البيان المغرب ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ (يقول السمعاني في ضبط الاسم رسم الذي نسب إليه الدولة الرستمية « الرستمى » : يضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة بالتيين من فوقها وفي آخرها الميم ، هذه النسبة إلى رستم ، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه ، والمشهور بهذه الانساب جماعة من أهل أصبهان قديماً وحديثاً . وقد ذكر الطبري الاسم رسم بفتح التاء ، ويؤيد الطبري والسمعاني في ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خردادبه حيث يقول : « وفى يدى « الرستمى » وهو ميمون ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس » . السمعاني : الأسماء ، مخطوطة ، نسخة مصرية نشر المستشرق د . م . مرجليوث ، لندن سنة ١٩١٢ ، ورقة ٢٥٢ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوكة ، ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، ابن خردادبه . المسالك والممالك ، ص ٨٧)

شاهور ذي الأكتاف الملك الفارسي (٢) . ونفس الرواية نجدها عند ياقوت مع مزيد من الإيضاح في الوصول بهذا النسب إلى الأصل الملكي الفارسي فهو : « بهرام بن بهرام جور بن شاهور بن باذكان بن شاهور ذي الأكتاف ملك الفرس » (٣) .

أما ابن خلدون ، فيجعل عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية وقد عير عن ذلك بقوله : « وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية » (٤) .

وعند ابن حزم الأندلسي أن بني رستم ينتمون إلى الملك الفارسي جاماسب بن فيروز ، وجاماسب هذا هو عم أنو شروان يقول : « وبني رستم ، ملوك تهرت » من ولد جاماسب (٥) .

ولا يعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية إذ أن الأقرب إلى المعتاد من الأعمار يجعل في قبول ذلك كثير من الشك لأن رستم قتل سنة (١٦ هـ / ٦٣٧ م) ، وتوفي عبد الرحمن بن رستم سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) ، فيكون عبد الرحمن قد عمر مائة وبضعاً وخمسين سنة ولم يذكر هذا أحد من المؤرخين (٦) . أما نسبة عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام

(٢) البكري : المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٣ (ويعلق المستشرق زامباور على ذلك النسب بأنه نسب عراقي ، زامباور : معجم الأتساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، أخرجه د . زكي محمد حسن ، د . حسن أحمد محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ١٠٠) .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦ ، مادة تاهرت ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٤) ابن خلدون . العرب ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٦ ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ، ت . عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ١٩٦٢ ، ص ٥١١ .

(٦) محمد بن تايوت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطريد ، المجلد الخامس ، العدد ١ ، ٢ ، ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧ م ، ص ١٠٥ .

(مولى عثمان بن عفان) فليس فيه ما يستبعد (٧) ، لأن يزدجرد آخر ملوك فارس كان له ابنان هما بهرام و فيروز ، وثلاث بنات هن أدرك ، وسها ومراد وزيد (٨) .

وينفرد المسعودى من بين المؤرخين برواية تقول : بأن هناك من يرى أن الرستميين من بقايا الإشبان حيث يقول : « وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم الفارمى وهو إباحى المذهب ، وهو الذى أنشأ فى ذلك مذهب الخوارج وقيل إنهم (الرستميون) من بقايا الإشبان » (٩) .

وقد اختلف المؤرخون فى حقيقة الإشبان فعزى المسعودى أنهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد أصيبهان (١٠) . وله رأى آخر فى هذا الشأن ذكره فى كتابه أخبار الزمان فهم من ولد سودان بن كتعان الذين تناسلوا بالمغرب (١١) . وفى ضوء هذين الرأين للمسعودى يصبح الرستميون من سكان المغرب الأصليين الذين كانوا موجودين قبل الفتح الإسلامى للمغرب .

وقد أشار المقرئ فى كتابه نفح الطيب إلى رأى ثالث فى حقيقة الإشبان فهم نسبة إلى ملك الأندلس ، إشبان بن طيطش الذى تنسب إليه مدينة إشبيلية ، وقد قيل إن إشبان هذا من عجم رومة أو أنه من أصيبهان التى ولد بها (١٢) . وهذا الطرف الأخير من الرواية يعنى أن الإشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالى من

(٧) نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .
(٨) المسعودى : مروج الذهب ، ط . المطبعة البية المصرية ، ١٣٤٦ هـ ، ج ١ ، ص ١٧٧ (وفى نسخة كتاب التحرير) بدلاً من « سها » شهر بانو وبدلاً من « مراد وزيد » مرحلونك ، المسعودى - مروج الذهب ، ط . كتاب المصير ، ص ٢١٢)

(٩) المسعودى : مروج الذهب ، ط . دار الأندلس ، ص ١٨٦ .

(١٠) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١١) المسعودى : أخبار الزمان ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ ، ص ٨٧ .

(١٢) المقرئ : نفح الطيب من قصص الأندلس الرطيب ، ت . د . إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٦ ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، وانظر أبو عبد الله الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ت . قللى بروفنسال ، طاعة ١٩٣٧ ، ص ١٩ ، ٢٧ .

أصل فارسي ، كما تعني هذه الرواية أيضاً أن البيت الرسمي وافد إلى المغرب من الأندلس وقد يكون هذا صحيحاً إلا أن ذلك يعوزه الدليل ولكن الذي يتضح من الروايات السالفة على اختلاف مصادرهما أن الرسميين يتسبون إلى أصل فارسي .

البيت الرسمي :

أسفرت حركة الفتح الإسلامي في بلاد فارس ، عن انتقال أعداد من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ليعيشوا ضمن المجتمع الإسلامي تحت اسم الموالي ، وكان بهرام جد عبد الرحمن بن رسم من هؤلاء الموالي ، إذ كان حوّل لعثمان بن عفان (١٣) . وطبعاً أن تدخل علاقة عثمان بهرام على هذا النحو في تحديد المدينة مكاناً طبيعياً لإقامة بهرام ، حيث يكون قريباً من مولاه عثمان بن عفان ، وبالتالي فإن رسم ولد بهرام أقام في المدينة . وتعتبر إقامة البيت الرسمي على هذا النحو في المدينة ، دعماً لأركانه الإسلامية حيث يحتمل أنه درج في بيت الخلافة ، قتل من فيضها الإسلامي الرفيع ، وغداً ذلك مهبطاً عظيماً لشخصية عبد الرحمن بن رسم .

طوائف صلة البيت الرسمي بالمغرب :

سلك البيت الرسمي طريقه إلى المغرب ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن رسم ، وقد جلد ابن خلدون طوائف علاقة البيت الرسمي بالمغرب بطوائف الفتح الإسلامي لهذه البلاد حين قال : « وقدم (عبد الرحمن بن رسم) إلى إفريقية مع طوائف الفتح فكان بها » (١٤) والمعروف أن الطوائف تتحدد تاريخياً ببداية الفتح وتنتهي بالطوائف التي قدم بها موسى بن نصير لإتمام فتح المغرب نهائياً وضمه إلى الدولة الإسلامية .

(١٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٢ ، ياقوت . معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، ج ٢ ، ص ٨ .

(١٤) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب للنشر ، ج ٦ ، ص ٢٤٦ .

وللشماخي رواية توضح الإجمال في رواية ابن خلدون ، حول طلائع
علاقة البيت الرستمي ببلاد المغرب يقول : « وكان (عبد الرحمن بن رستم)
بمدينة القيروان وسبب وصوله إليها أن أباه رستم بن بهرام . . . قدم مكة حاجا
بزوجته وابنه عبد الرحمن فمات فتزوجت زوجته رجلا من القيروان فأقبل مع
أمه » (١٥) .

ولم يكن عبد الرحمن بن رستم حين وصل إلى القيروان قد شب عن
الطوق ، إذ كان في طفولته المبكرة ، والقرائن التاريخية تؤكد ذلك ، فإذا عرفنا أن
عبد الرحمن رحل إلى البصرة وهو شاب حدث السني (١٦) ، بعد أن تلقى المذهب
الإباضي على يد سلمة بن سعيد في أول القرن الثاني الهجري (١٧) وقارنا هذه
الفترة بطوالح الفتوح الأخيرة التي جاء فيها عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب وصلنا
بسهولة ويسر إلى أنه كان طفلا صغيرا حين انتقل من الحجاز إلى القيروان .

الوطن الجديد :

أصبحت القيروان موطننا جديدا لعبد الرحمن بن رستم حيث تفتحت
مواهبه في رحابها على يد قضاةها وعلمائها ، فقد كانت القيروان إذ ذاك مصرا من
الأمصار الإسلامية الهامة (١٨) ، التي كانت تقف مصدرا وحيدا يشع بالعلم
والعرفان في بلاد المغرب كلها .

وتمثل عبد الرحمن بن رستم ما استطاع تمثله من ثقافة القيروان ، ولكنه مال
إلى تعاليم الخوارج كما يقول ابن خلدون : « وأخذ (عبد الرحمن بن رستم) بدين
الخارجية والإباضية منهم (١٩) ، وكان ذلك بتأثير من سمة بن سعيد داعية

(١٥) الشماخي : السير ، ص ١٢٤ .

(١٦) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩ ، أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط
بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، ميكروفيلم برقم ١٧٣٦ ، ورقة ٥ ب .

(١٧) الشماخي : السير ، ص ١٢٣ ، د . السيد عبد العزيز سام : المغرب الكبير ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٥ .

(١٨) إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٨٧ .

(١٩) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٦ ، ص ٢٤٦ .

الإباضية الذي كان يجتهد آنذاك في نشر المذهب الإباضى في ربوع المغرب (٢٠) . وقد حفظ الدرجينى في طبقاته نصا جاء على لسان عبد الرحمن بن رسم نفسه يؤكد العلاقة الوثيقة بينه وبين هذا الداعية الإباضى فقد قال عبد الرحمن بن رسم : « أول من جاء يطلب مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد قل : (عبد الرحمن بن رسم) قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتق على بيع وسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية وسمعت سلامة يقول وددت أن لو ظهر هذا الأمر يعنى مذهب الإباضية يوما واحدا أو النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده فقام عبد الرحمن مجتهدا في طلب ذلك الأمر » (٢١) .

ويلاحظ أن عبد الرحمن بن رسم عندما اعتنق المذهب الإباضى كما قال ابن خلدون ، كان ذلك المذهب قد تطور تطورا جعله قريبا من مذهب أهل السنة (٢٢) . وهو أمر كانت له دلالاته في الأسس التي شيد عليها عبد الرحمن بن رسم دولته .

فهذا المذهب ينتسب إلى عبد الله بن إباض المرى القيمى الذى يصفه الدرجينى بأنه كان إماما لأهل الطريق ورئيسا لإباضية البصرة وغيرها من الأقطار (٢٣) . ويمثل المذهب الإباضى آخر تطورات الفكر الخارجى (٢٤) لأن حركة الخوارج أخذت تلفظ من بين صفوفها دعاة التطرف وتجنح إلى كثير من

(٢٠) الشماخى : السير ، ص ١٢٣ .

(٢١) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٦ ، أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢ أ .

(٢٢) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٦ ، ٣٠٩ .

(٢٣) الدرجينى . طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩٣ ، البعداوى . الفرق بين الفرق ، ت . محمد محسى الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، ص ١٠٣ .

(٢٤) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٧ .

الاعتدال ، ونجلى ذلك في مدينة البصرة مركز هذه الحركة بالعراق . فقد تضامن أهل هذه المدينة ضد الخوارج وأخرجوا منها كل متطرف مثل : نافع بن الأزرق ولم يبق بالمدينة غير اثنين هما ابن إياض وابن الصفار وعلى ذلك انقسم الخوارج إلى قسمين ، نادى أحدهما بالجهاد وهو القسم الأول المتطرف الذى انهار أمام طرقات الأمويين العنيفة ، على حين ظل القسم الآخر المعتدل يتابع نشاطه في خطى وثيدة ومضطردة ، وانقسم الفريق المعتدل بدوره إلى قسمين ، مال أحدهما بقيادة ابن إياض إلى مزيد من التسامح مع المخالفين ، والآخر إلى التزامه بنوع من عدم التساهل مع المخالفين (٢٥) .

وتتضح أهم معالم الفكر الإباضى في المبادئ التى نادى بها شيوخ هذا المذهب والتى شرحها البغدادي والشهرستاني على النحو التالى . فالإباضية اعتبروا أن مخالفهم من هذه الأمة ليسوا مؤمنين ولا مشركين وإنما هم كفار بالنعم ، ولذلك أجازوا شهادتهم وحرّموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية ، وصحّحوا مآكلهم والتوارث منهم ، واستحلوا من أموالهم الخيل والسلاح فى حالة الحرب (٢٦) . كما اعتبروا أن دار مخالفهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان (٢٧) . بمعنى أنها (دار المخالفين لهم) ليست أرض أعداء وإنما هى وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز ، كما اعتبر علماء الإباضية مرتكبى الكبائر وجميع المقصرين فى الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين ، وقد كان هذا التمييز حدثا هاما فى الحركة الخارجية ، لأن الأزارقة اعتبروا الشرك واحدا وطبقوه على جميع المخالفين لهم فى تطرف شديد (٢٨) . وقد ترتب على هذه امبادئ القول بالعقود عند الإباضية وعدم محاربتهم للمخالفين لهم بل لقد فتحت

(٢٥) د . إبراهيم المدنى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢٦) البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٠٣ . الشهرستاني : الملل والنحل ، ت . عبد العزيز محمد التركى ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٢٧) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ١٠٣ . الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٢٨) د . إبراهيم المدنى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٥ .

الباب على مصراعيه لمعاشرة هؤلاء المخالفين والاشترائك معهم في الحياة العامة . وبذلك أصبحت جماعة الإباضية مسألة إلى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب إلى مذهب أهل السنة (٢٩) .

على أن جماعة الإباضية لقيت الكثير من العنت والاضطهاد من جانب الأمويين في أواخر القرن الأول الهجري على يد الحجاج بن يوسف الثقفي (٣٠) . مما جعل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة - الذي كان شيخا للمذهب الإباضي آنذاك - يفكر في نشر المذهب الإباضي في أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص في بلاد المغرب . فاختار رجلا من أنشط تلاميذه وهو سلمة بن سعيد وكان ذلك استغلالا ذكيا من أبي عبيدة ، فالمغرب بعيد عن مقر الخلافة الأموية في دمشق ، وهذا يهيئ للدعاة الأمان من ضربات الحكومة المركزية كما أن أرض المغرب ما زالت ميلنانا بكرة تستطيع أفكارهم أن تصول وتجول فيه لأن البربر ما زالوا قريبي العهد بالإسلام ، وأصبح من السهل على الدعاة أن يوجهوا سكانه إلى حيث يريدون ، ومما ساعد الدعاة على التقدم في مهمتهم سوء الإدارة العربية واضطرابها نتيجة لسياسة بعض ولادة المغرب .

وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان (٣١) مما جعل البربر يتوقون إلى التعمق في دراسة المذهب من أصوله الشرقية فكونوا بعثة علمية رحلت إلى البصرة ، ولقبوا أصحابها حملة العلم وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم .

(٢٩) نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة د . سعد رطلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٠٩ ، د . محمد جمال الدين سرور . الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة . دار الفكر العربي ١٩٦٠ ، ص ١٣١ .

(٣٠) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٥٣٤ .

(٣١) المرجع السابق . ص ٥٣٥

حملة العلم :

كانت البعثة العلمية التي سمي أصحابها حملة العلم هي أولى الثمار الحقيقية التي جناها دعاة الإباضية في المغرب ، إذ أن هذه البعثة تمثل مرحلة الإعداد الفكري للأشخاص الذين سيقومون بالتطبيق العملي لمبادئ الفكر الإباضي في بلاد المغرب ، ومن ثم كان حرص سلمة بن سعيد على أن تعد هذه البعثة إعدادا خاصا على أئمة المذهب في البصرة .

واختار سلمة بن سعيد لهذه المهمة أربعة من تلاميذه المخلصين هم عبد الرحمن بن رسم ، وعاصم السدراتي ، وإسماعيل بن درار الغنمسي ، وأبو داود النفزاوي (٣٢) . وراعى سلمة في هذا الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يسهلوا للدعوة الإباضية فرصة الانتشار في أكبر مساحة ممكنة في بلاد المغرب بعد عودتهم (٣٣) . فعبد الرحمن بن رسم كان من القيروان ، وعاصم السدراتي من غرب الأوراس والمغرب الأوسط ، وأبو داود النفزاوي كان ينتمي إلى نفزاوة في جنوب إفريقية ، أما إسماعيل بن ضرار الغنمسي فهو من غدامس في جنوب طرابلس (٣٤) .

وعندما وصلت هذه البعثة إلى البصرة انضم إليها أحد دعاة الإباضية العاملين في اليمن ، وحضر موت ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح (٣٥) . ويبدو أن حملة العلم وصلوا إلى البصرة في ظروف سياسية اقتضت من الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أن يلقنهم العلم في سرب على فمه سلسلة

(٣٢) الشماخي : السمر ، ص ٩٨ ، ١٢ ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤ .

(٣٣) علي يحيى معمر : الإباضية في موكب التاريخ ، مكتبة وهبة : الحلقة الثانية ، القسم الأول ، ص ٢٦ .

(٣٤) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

فإذا أقبل أحد حركت فيسكتون وإذا انصرف حركت فيأخذون في القراءة » (٣٦) .

عكفت هذه الجماعة مدة امتدت إلى خمس سنين (٣٧) ، درست خلالها المذهب الإباضي كما درس أفرادها أحوال المغرب السياسية وأنسب الأوضاع لإقامة دولة إباضية ، وانتهت هذه الدراسة بترشيح أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري رئيساً لهذه الدولة المنتظرة يقول الدرجيني : « فقالوا يا شيخنا أرايت لو كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا في أنفسنا طاقة فتولى علينا رجلاً منا فقال لهم أبو عبيدة توجهوا إلى بلادكم فإن يكن من أهل دعوتكم من العدد والعدد ما تحب منه التولية عليكم فولوا على أنفسكم رجلاً منكم فإن أبا فاختلوه وأشار إلى أبي الخطاب » (٣٨) .

وأصبح حملة العلم بعد عودتهم إلى بلاد المغرب من البصرة يمثلون طلائع الرابطة الجديدة التي غفقت تربط بين المغرب العربي والمشرق العربي ، ورمزاً للتجاوب بين التيارات الفكرية السائدة بينهما (٣٩) .

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الأحداث :

عاد عبد الرحمن بن رستم مع زملائه حملة العلم من البصرة وأصبح أقوى

(٣٦) الشماخي : السير ، ص ١٢٤ ، (والمعروف أن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة تعرض للاعتقال من جانب السلطات الأموية فقد سجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ولم يُفرج عنه إلا في خلافة سليمان بن عبد الملك ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٤) .

(٣٧) الشماخي : السير ، ص ١٤٢ .

(٣٨) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩ .

(« أبا » هكذا في الأصل ، وذكر أبو زكرياء النص مع اختلاف في اللفظ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٦ أ) .

(٣٩) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٦٦ .

مساعدي أي الخطاط فقد ولاء منصب القضاء في طرابلس (٤٠) . وبعد استيلاء أي الخطاط على القيروان سنة (١٤١ هـ / ٧٥٨ م) أسند إلى عبد الرحمن بن رستم إدارة شئونها (٤١) ، بالإضافة إلى قسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية ، يمتد من جزائر بني مزغنة إلى وهران (٤٢) .

ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب ، وأن ينفذ المذهب الإباضي بالكثير من الأنصار والأتباع ، إذ رأى في المغرب الأوسط امتدادا يحمي الدولة الناشئة في طرابلس ، ويؤكد نظرية عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة لماية البترية التي كانت تسكن ذلك الإقليم (٤٣) .

ولكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا في القيروان ذلك أن الخليفة العباسي المنصور أرسل قائده محمد بن الأشعث لضرب الإباضية في المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاط سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) ورأى هذا القائد العباسي في عبد الرحمن بن رستم أكبر الخطر على وجود العباسيين في بلاد المغرب ، وكان عبد الرحمن بن رستم قد خرج في جيش عظيم لدعم قوات أي الخطاط التي زحفت لمقاومة جند ابن الأشعث ، وما أن وصل هذا الجيش إلى قابس حتى بلغته أنباء بمقتل أي الخطاط وهزيمته (٤٤) . فعاد مسرعا إلى

(٤٠) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، مكتبة الاستقامة بتونس ، الطبعة الثانية ، ص ٣٠ .

(٤١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧١ ، ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، ج ٩ ، ص ٨٦٥ ، (ويذكر البكري في كتابه البلدان أن عبد الرحمن بن رستم كان يتولى أمر إفريقية كلها وليست القيروان وسدما . البكري : البلدان ، ص ٣٥٣) .

(٤٢) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٦ أ . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٧ .

(٤٣) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ص ٢٤٧ ، JULIEN, op. cit p. 31, 32 .

(٤٤) الشافعي : السير ، ص ١٣٢ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢ ، ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

القيروان ، فوجد أن الأمور قد ازدادت سوءا فيها ، وأخذ أهل القيروان عامله فأوثقوه في الحديد ، وولوا على أنفسهم عمر بن عثمان القرشي (٤٥) . وهكذا تبدلت آمال عبد الرحمن بن رستم ، ولم يكن أمامه إلا أن يفر بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط .

التجاء عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط :

وجد عبد الرحمن بن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه التجاء إلى المغرب الأوسط فهناك يستطيع بفضل أنصاره وأتباعه أن يقيم دولة على المذهب الإباضي على غرار دولة أبي الخطاب في طرابلس فخرج مستخفيا قاصدا المغرب الأوسط (٤٦) .

وقد أحاط كتاب الإباضية فرار عبد الرحمن بن رستم بهالة قصصية فيها شيء من البطولة وقوة الإرادة ، فقد وقع عبد الرحمن بن رستم قبل فراره من القيروان في يد عبد الرحمن بن حبيب ولكنه أطلقه بعد أن تشفع له أحد القيروانيين من نوى المكانة عند عبد الرحمن بن حبيب (٤٧) . ويرى الشماخي سوء العلاقة بين عبد الرحمن بن رستم وبين عبد الرحمن بن حبيب بأن : « ابن رستم حين أراد المسلمون توليته (أي عبد الرحمن بن حبيب) لبعض أمورهم قال : إن ابن حبيب إبليس أو شيطان في صورة إنسان فحقدتها عليه ابن حبيب » (٤٨) .

(٤٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٤٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٥٣٩ .

(٤٧) د . سعد رغلوي عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٨٠ ، (ويروي الشماخي ذلك بشئ من التفصيل فيقول : « قدم ابن الأشعث وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس عبد الرحمن بن رستم وفر رجه إلى المغرب . قال أبو يحيى : ظفر به عبد الرحمن ابن حبيب فتشفع فيه رجل من أهل القيروان فقال له ابن حبيب كل حاجة لك عندي مفضية إلا ابن رستم . فقال إن لم أسألك ابن رستم فمن ذا أسألك ؟ فأطلقه له » الشماخي : السير ، ص ١٣٣ ، وعبد الرحمن بن حبيب هنا حفيد عبد الرحمن بن حبيب (الفهرى) : انظر د . سعد رغلوي عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٣٠)

(٤٨) الشماخي : السير ، ص ٤٣٣ ، (ونفس النص موجود عند أبي زكرياء مع اختلاف في اللفظ) (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ورقة ١١١ أ) .

وأما كان الأمر فقد أقفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة عبد الرحمن بن حبيب وخرج من القيروان جادا في المسير سنة (١١٤ هـ / ٧٦١ م) (٤٩) . ولم يكن معه شيء إلا ما خف من ماله وابنه عبد الوهاب ومملوكه وفرسه (٥٠) ، وما سار هذا الركب غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوها حتى لا يتبع آثارهم أحد ممن يجلون في طلبهم ، ولما تعب عبد الرحمن من السير وأدركه الإعياء والملل صار ابنه عبد الوهاب وغلामه يحملانه بالتأوب (٥١) ، وغدا كل منهما يقول لصاحبه : « إن أدركنا العدو فما دون الخمسائة لا تضع الشيخ لجلدهما وشجاعتهما » (٥٢) .

وقد سلك عبد الرحمن بن رستم في سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطلية (٥٣) ، إذ واصل عبد الرحمن بن رستم طريقه من جنوب نقطة مخترقا شمال وادي سوف ، متجها إلى الغرب على شمال (تيفورت) ومدينتي القرارة وير ريان من وادي ميزاب إلى مدينة الأغواط ومن غرب هذه المدينة اخترق جبال بني راشد فذهب شمالا على شرق مدينة (آغلو) وغرب وادي شلف حتى انتهى به الطريق إلى وادي (سوفجج) وعين سوفجج التي تتبع من سفح جبل سوفجج (٥٤) . ويؤيد هذا ما ذهب إليه الدرجيني من أن عبد الرحمن بن رستم دفن فرسه التي ماتت في خارج جهة قسطلية وأن هذا الموضع سمي قبر الفرس (٥٥) .

(٤٩) البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨

(٥٠) الشماخي : السير ، ص ١٣٣ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢ ، وقارن البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(٥١) الشماخي : السير ، ص ١٣٣ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٥٢) الشماخي : السير ، ص ١٣٣

(٥٣) د السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٤٠ .

(٥٤) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٥٥) الدرجيني : طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ١٦

وتعتبر منطقة سوفجج - التي لجأ إليها عبد الرحمن بن رستم - من أمنع المناطق الجبلية في المغرب الأوسط ، فسوفجج هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التي تمتد من مدينة (السوفر) في الجنوب العربي لمدينة تاهرت ، ومدينة شلالة في الجنوب الشرق منها (٥٦) ، وحول هذا الجبل كانت مواطن لمائة ولوثة وهوارة (٥٧) وهي قبائل كانت قوية الصلة بالمدن الإيباضية بل إن لمائة كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم ، لذا فقد آثر أن ينزل بين أبناء هذه القبيلة ، وقد حفظ لنا ابن خلدون نصاً يؤكد هذه الحقيقة الهامة يقول ابن خلدون : « وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان أمارته في القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق بإباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ونزل على لمائة لتقديم حلف بينه وبينهم » (٥٨) .

وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفجج حتى سمع به « وجوه الإباضية وعلمائهم فقصلوه من كل النواحي حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نقوسة من العلماء ، فقط ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأي » (٥٩) .

أخلت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق في المغرب الأوسط حتى وصلت مسامع محمد بن الأشعث في القيروان ، فجهز جيشاً سار به نحو سوفجج ونزل في سفحه وحفر خندقاً حول معسكره خوفاً من هجوم عبد الرحمن بن رستم ومن معه عليه وظل محاصراً للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل ولكنه فشل (٦٠) . واضطر إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد

(٥٦) موق : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

(٥٧) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٥٨) ابن خلدون : المعبر ، ط دار الكتاب اللبناني ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ .

(٥٩) البلوي : الأزهار الرباضية ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٦٠) الشامي : السمر ، ص ١٣٣ ، الباروني : الأزهار الرباضية ، ج ٢ ، ص ٣ .

أن تفشى داء الحمى والجذرى بين جنوده ومات منهم خلق كثير (٦١) . وانسحب إلى القيروان قائلا : « ان سوفجج لا يدخله إلا دارع ومدجج » (٦٢) .

أخذت فلول الإباضية تتجمع ، وتتكاثر على جبل سوفجج الذى اتخذوه مكانا يتلربون فيه على القتال ، ويستعدون لخوض المعارك التى ستواجههم (٦٣) واستطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه أمام الأحداث ويسير بخطى ثابتة فى المغرب الأوسط بينما عاد ابن الأشعث إلى القيروان محاولا تثبيت أقدام العباسيين فى إفريقية ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليه ، فما لبث أن واجهته ثورة الجند الخلافي ، ولم تنته هذه الثورة إلا بإخراجه من المغرب سنة ١٤٨ هـ (٦٤) . وخلفه الأغلب بن سالم الذى لم يسلم هو الآخر من ثورات جند الخلافة عليه ، فراح ضحية سهم طائش أصيب به حينما كان يخضع أحد الجنود الثائرين وهو الحسن بن حرب الكندى سنة (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) (٦٥) .

المحالف الإباضى الصفرى :

لما بلغ أبا جعفر المنصور نبأ قتل الأغلب بن سالم بعث إلى إفريقية عمر بن حفص الذى وصلها سنة (١٥١ هـ / ٧٦٨ م) ، وعرف عمر هذا بشجاعته الفاتكة فى ميادين الحرب والقتال حتى أنه لقب بهزارمرد هى كلمة فارسية معناها ألف رجل (٦٦) . وهذأت الأحوال فى عهده واستقامت الأمور طيلة ثلاث

(٦١) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٦٢) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٣ .

(٦٣) محمد بن توفيق : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بطنجة ، ص ١٠٨ .

(٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٣ ، ابن الأبار : الحلة السوداء ، ت . د . حسين مؤنس ص ٦٩ .

(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٨٧ .

(٦٦) التوبرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٠ ، ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، ج ٤ ، ص ٤١٢ .

سنوات (٦٧) ، وقد أغرى ذلك السكون أبا جعفر فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الأوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طينة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وبناء سورها (٦٨) . وقد أشار النويري وابن أبي دينار إلى الكتاب الذي أرسله أبو جعفر إلى عمر بن حفص في هذا الشأن (٦٩) .

وتعتبر قاعدة طينة المفتاح الذي يجب الاحتفاظ به للتحكم في المغرب الأوسط فضلا عن أنها السبيل لاسترداد القيروان نفسها إذا ما سقطت في أيدي الأعداء (٧٠) . وأحسن عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الإباضية بخطورة العمل الذي أقدم عليه عمر بن حفص « فاتفق ابن رستم مع أنصاره في طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتفاض ومحاربة العباسيين » (٧١) ، ويذكر ذلك على أن الأمور كانت تسير بتنسيق تام بين جماعات الخوارج في بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها .

استخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى (٧٢) ، وخرج هو إلى طينة لتنفيذ المهمة التي كلف بها ، حيث نذر البربر بإفريقية وزحفوا نحو القيروان ، فخرج إليهم حبيب بن حبيب المهلبى فقتلوه (٧٣) .

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٩٨ .

(٦٨) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٦٩) النويري . هامة الأرب ، مخطوط ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٠ ، ٢١ ، يقول النويري : « وكان كتاب المنصور قدم عليه بالشخص إلى الزاب لبناء طينة » ، وقارن ابن أبي دينار . المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ٤٦ .

(٧٠) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ص ١٧٨ .

(٧١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٥١ .

(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٨ .

(٧٣) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤١٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٩٨ .

وفي نفس الوقت اجتمع البربر الإباضية في طرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب ابن حبيب الإباضي (٧٤) ، الذي ألحق الهزيمة بالجنييد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس ، ولم يكتف بذلك بل تقدم وحاصرت قواته القيروان ، واشترك أيضا في حصار عمر بن حفص المقيم بطبنة (٧٥)

واشتعلت نيران الفتنة بإفريقية وجاءتها جيوش الإباضية الصفيرية من كل فج ، ويجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثني عشر عسكرياً (٧٦) ، « ورؤسائهم أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً وعبد الرحمن بن رستم الإباضي في خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم في عدد كثير وعاصم السبرائي في عدد كثير : قبل في ستة آلاف والمصور الزناتي في عشرة آلاف وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في ألفين سوى جماعات أخرى » (٧٧) .

اتجهت هذه الجيوش كلها نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص الذي كان في خمسة عشر ألفاً وخمسمائة (٧٨) . وانجلي الموقف عن نتائج محطمة ، فالقيروان تحاصرها القوات الإباضية ، وعمر بن حفص محاصرة قوات التحالف الإباضي الصفري ، وإزاء هذا جمع عمر بن حفص قواده واستشارهم فيما يفعله فأشاروا عليه بالبقاء في طبنة وقالوا : « أخرج منا من أردت إلى علوك ولا تخرج أنت ، فإنك إن أصبت تلف المغرب وفسد » (٧٩) .

ولم يكن أمام عمر بن حفص إلا أن يعمل الحيلة لتفريق هذه الجموع ،

(٧٤) ابن خلدون . المعبر ، دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤١٢ .

(٧٥) التومري : نهاية الأرب ، مطبوع ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٦ .

(٧٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٩٩ ، التومري : نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٦ .

(٧٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٧٨) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

فأرسل إلى أبي قررة رسولا برشوة من المال تقدر بستين ألف درهم ليرجع عن حصار طيبة ولكن أبا قررة رفض ذلك بشدة قائلا : « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا » (٨٠) . فأنصرف رسول عمر بن حفص إلى أخى أبي قررة ، ونجح في مهمته وقدم إليه أربعة آلاف درهم وثيابا ليعمل في صرف أخيه عن حصار طيبة ، فأجانبهم وارتحل في نفس الليلة عن طيبة وتبعه العسكر متصرفين إلى بلادهم فلم يجد أبو قررة بدا عن اتباعهم وانسحب مضطرا من أرض الحصار (٨١) .

وبعد نجاح هذه الحيلة ، لم يعد أمام عمر بن حفص إلا أن يحطم قوة الإباضية الذين كانوا يحتفظون بقواتهم الرئيسية عند تهوذة بقيادة عبد الرحمن بن رستم . والتي يظهر من الروايات التي ذكرها المؤرخون (٨٢) أن عبد الرحمن بن رستم ، قوجي بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة معمر بن عيسى العبدى . ورغم صغر حجم هذه القوات المهاجمة ، التي ذكر الرقيق أنها كانت ألفاً وخمسمائة جندي بينما كان عبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً ، فقد استطاعت هذه القوة الصغيرة إلحاق الهزيمة بجيش عبد الرحمن بن رستم الكثيف ، وهذا ما يؤكد تحقق عنصر المفاجأة التامة ، الأمر الذي جعل خسائر ابن رستم كثيرة جداً ، إذ قتلها ابن عذاري بثلاثة آلاف جندي (٨٣) .

(٨٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨١) ابن عذاري . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٩٩ .

(٨٢) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، ب . المسجى الكعبي ، طبعة تونس ، ص ١٤٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٩٩ ، النويري : نهاية الأرب ، مخطوط مجلد ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢١ ، (ويذكر النويري أن اسم القائد الذي هاجم عبد الرحمن بن رستم هو معمر بن عيسى السعدي) .

(٨٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٦ .

تراجع عبد الرحمن بن رستم منهزماً إلى إقليم تاهرت (٨٤) . وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة في تاريخ قيام الدولة الرستمية ، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن يسلم عن قوى الصفرية المتضاربة التي لا تجمعها أهداف واحدة ، وفضل أن يعمل بمفرده معتمداً على نفسه وعلى التجمعات الإباضية التي تقف حوله في المغرب الأوسط . وهكذا حصل الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم أعباء الصراع في المغرب الأوسط بعد أن تراجعت قوى الصفرية تلك القوى التي وجدت نفسها في مأمن هناك في المغرب الأقصى .

مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة :

كان عبد الرحمن بن رستم يحمل شخصية الداعية القوي ، التي تستطيع أن تستقطب حولها المؤيدين بسرعة ، وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئاً عن عبد الرحمن بن رستم في الفترة ما بين انهزامه أمام قوات عمر بن حفص وبين مبايعته بالإمامة سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) (٨٥) ، فالذي يظهر أن عبد الرحمن قضى هذه الفترة في تنظيم وتدعيم صفوف الإباضية ، وفي نفس الوقت قام بدعاية واسعة شملت المغرب الأوسط كله .

وقد كان للوضع الجغرافي للمنطقة التي تركز فيها عبد الرحمن بن رستم أثره في نماء قوته ، ونجاح الدعاية الواسعة التي قام بها لنشر تعاليم المذهب الإباضي ، إذ ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التي نزحوا تعتبر امتداداً لبلاد الزاب ، وأن كثيراً من قبائلها من لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة ، أصلها من أقاليم المغرب الشرقية في طرابلس ونقراوة وبلاد الجريد - مهد الدعوة الإباضية - ولقد سهل هذا الأمر مسير كثير من إباضية تلك الأقاليم إلى ابن رستم حيث أقاموا بين بني جلدتهم في المغرب الأوسط (٨٦) .

(٨٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، (وتاهرت التي يذكرها ابن عسلى ليست المدينة وإنما هي إقليم تاهرت لأن تاهرت لم تكن قد اختطت بعد ، وقد تكون تاهرت القديمة . انظر هـ . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٤) .

(٨٥) الشماخي : السمر ، ص ١٣٩ .

(٨٦) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٥ .

نجحت هذه الدعاية التي قلم بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير ، إذ كانت الركيزة الهامة التي اعتمد عليها في دعائيه هي تحقيق المساواة الكاملة والتسامح الديني وقد جعل ذلك الكثير من سكان المغرب الأوسط يلتفون حول عبد الرحمن بن رستم ويرحبون بدعوته (٨٧) . وكان من بين هؤلاء من يعتقدون مذاهب أخرى فقد انضم إليه كثير من الخوارج الصفرية ، وجماعات تسمى بالواصلية الذين اعتبرهم البكرى من الإباضية (٨٨) ، فقد كان للواصلية مجمع قريب من تاهرت ، وكان عندهم نحو ثلاثين ألفاً (٨٩) ورغم أن الواصلية فرقة من فرق المعتزلة فالظاهر أن الفرقتين تماثلتا نتيجة لأتبعها بموقف الوسط بالنسبة لمركبي الكبائر (موقف المنزلة بين المنزلتين) وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الإباضية (٩٠) .

ومما دعم موقف ابن رستم أيضاً أن الإباضية في شرق المغرب الأوسط لم يضعوا السلاح ، وما زالوا يناضلون في حلبة الجهاد ، ينافعون عن مبادئهم في صبر وهلاء . وقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال في شرق المغرب الأوسط إذ أن ذلك يصرف الأنظار عن جهوده التي يقوم بها لإقامة دولة إباضية . وكذلك أدركت هذه التجمعات الإباضية في شرق المغرب الأوسط بقيادة أبي حاتم الإباضي - إمام الدفاع (٩١) هذه الحقيقة الهامة ، فأخذت ترسل المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم فكان أبو حاتم هذا يرسل ما زاد على ما يحتاج إليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور (٩٢) . ويبدو أن الأمور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع

(٨٧) د - إبراهيم السنوي : بلاد الجزائر ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٨٨) د - سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧٩ .

(٨٩) البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(٩٠) د - سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٩ .

(٩١) البرادي - الجواهر المتفقا ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤٥٦ ح ، ورقة ٨٨ ، الدرجيني . طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٦ ، أبو ذكرياء . السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١١ ب .

(٩٢) التماحي . السير ، ص ١٣٨ .

سلطان عبد الرحمن بن رسم على نحو دفع الجميع إلى التفكير في مبايعته وإعلان قيام الدولة الجديدة .

وفي موضع تاهرت القديمة (٩٣) ، انعقد مجلس ضم رؤساء الإباضية وقالوا في حوار دار بينهم : « قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا الإمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فيتنا فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم : أنتم رؤساء ولا تأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الإبتلاف » (٩٤) .

من هنا الحوار تتضح الظروف التي بويغ فيها عبد الرحمن بن رسم ، إذ كان رؤساء الإباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر لا قبيلة تحمىها إذا ما ظهر عدم صلاحيتها للحكم فيصبح من السهل عليهم تنحيتها (٩٥) . وكان عبد الرحمن بن رسم هو تلك الشخصية التي يتطلعون إليها فقالوا : « هنا عبد الرحمن بن رسم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقللوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بغير العدل عزلوه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه » (٩٦) .

(٩٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت : ص ٩ ، (يقول ابن الصغير : لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤسائهم ، والذي يُتهم من عبارة ابن الصغير أنه تاهرت هي القديمة وأن التي استحدثها عبد الرحمن بن رسم لم تكن أبشفت بعد ، انظر ابن خلدون - المعبر ، دار الكتاب اللبناني ، ج ٦ ص ٢٤٧ ، الذي يجعل مبايعة عبد الرحمن بن رسم قبل بناء تاهرت الحديثة) .

(٩٤) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٩

(٩٥) محمد بن ناويث : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ببليريد ، ص ١٠٨ .

(٩٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٩ .

والشماعى رواية تحدد المبادئ الأساسية التى روعيت فى اختيار عبد الرحمن بن رستم يقول فيها : « فاتفق رأيهم (رؤساء الإباضية) على عبد الرحمن لفضله وكونه من حملة العلم ... ولكونه عامل أى الخطاب على إفريقية وما والاها ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل » (٩٧) .

اتجهت أنظار الجميع إلى عبد الرحمن بن رستم لهذه الأسباب مجتمعة فنهضوا إليه بأجمعهم وقالوا : « يا عبد الرحمن رضيك الإمام فى ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك وقدمتك على أنفسنا فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا بإمام تلجأ إليه فى أمورنا ونحكم عنه فيما ينوب من أمسابتنا فقال لهم إن اعطيتمنى عهد الله وميثاقه لتستطيعوا إلى ولتطيعونى فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم » (٩٨) .

وهكذا تمت مراسم البيعة ، وأعلن قيام الدولة الإباضية الجديدة ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إماماً لها يسجل الدرجين والشماعى سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) تاريخاً لهذه البيعة ثم يعودان مرة أخرى فيذكران أنها كانت سنة (١٦٣ هـ / ٧٧٨ م) (٩٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأرجح لأن ابن عذارى يجعل تأسيس ناهرت فى سنة (١٦١ هـ / ٧٧٧ م) (١٠٠) والمعروف من المؤرخين أن بناء ناهرت كان بعد تقديم عبد الرحمن ومبايعته بالإمامة كما يذكر

(٩٧) الشماعى : السور ، ص ١٤٠ .

(٩٨) ابن الصعير : سورة الأئمة الرعسين فى ناهرت ، ص ٩ ، ١٠ .

(٩٩) الدرجين : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ ، الشماعى : السور ، ص ١٣٩ ، (وفى هذا يقول أبو ركرىاء : « وحدث غير واحد من أصحابنا أن عبد الرحمن بن رستم رضى الله عنه ولى ناهرت فى سنة ٩٦٠ سنين ومائة وذكر بعض أصحابنا أنه إنما ولى على رأس اثنين وستين ») (أبو ركرىاء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٣ أ)

(١٠٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٩٩٦ ، خير الدين الزركلى : الأعلام ، الطبعة الثانية ، عشرة أجزاء ، ج ٤ ، ص ٧٨

البكري (١٠١) ، وابن الصغير (١٠٢) .

بناء تاهرت :

رأى عبد الرحمن بن رستم بعد أن بويع بالإمامة ، أن يتخذ لنفسه عاصمة يباشر منها مهام الحكم ، وكان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الأمن والرخاء ، لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة بالأرض وانضم إليهم أيضاً في هذه المهمة رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين (١٠٣) . وطاف الجميع أنحاء البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى استحسنوا موضع تاهرت وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة (١٠٤) .

وجاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التي واجهت الدولة الرستمية في مطلع تأسيسها ، فكان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أمثل وجه وتتضح بميزات تاهرت في :

أولاً : هي بعيدة عن خطر العباسيين ، حيث تقع في منطقة داخلية منظوية على نفسها في السفح الجنوبي لجبل كزول لذا فهي تدبر ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل وهذا يمثل موقعا استراتيجيا لحماية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب (١٠٥) .

(١٠١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، (ويقول البكري : « فاجتمعت إليه الإباضية واقفوا على تقديمه وبنوا مدينة لهمهم ») .

(١٠٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٩ ، الدرر الجسي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ .

(١٠٣) الشماخي : السمر ، ص ١٢٩ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٠٤) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

GAUTIER, E. F., Le Passé de L'Afrique de nord, P, 3. 6.

(١٠٥) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، (ويذكر البكري اسم الجبل جزول بالجمع بينما يروي صاحب الاستبصار أن اسمه قرقل ويبدو أن هذه الأسماء كلها صحيحة إلا أنها استعملت في فترات زمنية مختلفة) انظر البكري : المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ . الاستبصار في عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٧٨ .

ثانياً : تقع تاهرت في منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتائهم القوي للمذهب الإباضي وقد حدد البكري على نحو دقيق هذه القبائل فقال : « وبفيلها (أي تاهرت) لواطه وهواره في قرارات وبغريبها زواغة وبجوفيلها مطمطة وزناتة ومكناسة » (١٠٦) يضاف إلى ذلك أن موقع تاهرت يعتبر امتداداً لبلاد الزاب وهذا يتيح لعبد الرحمن بن رستم سرعة الاتصال بالجماعات الإباضية في أقاليم المغرب الشرقية في طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد مما يساعد في اتساع رقعة الدولة دون وجود عوائق طبيعية تمنع ذلك الاتساع (١٠٧) .

ثالثاً : وإلى جانب الموقع الاستراتيجي ، فتاهرت تقع في منطقة غنية اقتصادياً فهي تشتهر بمراعيلها الواسعة ، وثرواتها الزراعية المتنوعة ، ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها في المنطقة (١٠٨) ، فتجري فيها أنهار عظيمة كنهر مينة ، ونهر فانس (١٠٩) ، وكان لذلك أثره في دعم اقتصاديات الدولة ، وجعل من تاهرت عاصمة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى . وقد تحدث ابن حوقل عن الغنى الاقتصادي الذي تتمتع به منطقة تاهرت فقال : « وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » (١١٠) وذكر الاصطخري أيضاً ثراء تاهرت فقال : « وهي

(١٠٦) البكري المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، وروى ياقوت نفس الرواية مع اختلاف طفيف في اللفظ ، ياقوت معجم البلدان ، ط دار صادر ودار بيروت ، ج ٢ ، ص ٨ ، ابن عسلى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٥

(١٠٧) د . سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٧٥

(١٠٨) المرجع السابق ، ص ٣٧٧

JULIEN, op. cit, p. 34, 35.

(١٠٩) مؤلف مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار ، ت د سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٧٨ ، البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ (والبكري يذكر أن قسم النهر تاتش بدلاً من فانس)

(١١٠) ابن حوقل صورة الأرض دار مكتبة الحياة بيروت ص ٨٦

مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه (١١١) .

رابعاً : تقع تاهرت في مكان يتوسط التل والصحراء (١١٢) وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غرباً إلى المغرب الأقصى وجنوباً إلى قلب أفريقيا عبر الصحراء الكبرى ثم هي تشرف من موقعها هذا أيضاً على الطريق المار من منطقة التلول إلى أسفل وادي شلف المؤدى إلى البحر (١١٣) وأصبحت تاهرت بذلك نموذجاً للحياة التجارية القوية في بلاد المغرب .

وكشف عبد الرحمن بن رستم باختياره موقع تاهرت عن المهارة الفائقة التي تحلّى بها الإباضية في اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن ، وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصادياً وحريةً وسياسياً (١١٤) . ويروى البكري أن موضع تاهرت كان يمتلكه قوم مستضعفون من قبيلتي مراصة وصنهاجة ، وقد رآوهم عبد الرحمن بن رستم على بيع المكان لبناء تاهرت عليه ، فرفضوا ذلك الأمر ولكنهم قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على شريطة أن يؤدي إليهم خراج أسواقها (١١٥) . وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم في بناء المدينة واختار من أرض المنطقة موضعاً مربعاً لا شعراء فيه ولذلك قالت البربر نزل (تأقدمات) وتفسره الدف - شيهوه بالدف لثريعه - (١١٦) .

(١١٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٣٤ .

(١١٢) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، الجلال : تاريخ الجزائر العام ، دار مكتبة الحياة - بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(١١٣) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ، ص ٥٢٥ .

(١١٤) د . إبراهيم العلوي ، بلاد الجزائر ، ص ١٩٢ .

(١١٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، الشماخي : السمر ، ص ١٤٦ ، البارودي : الأما ، الرياضية ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١١٦) سكرى : ص ١٠٠ و ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

وقد أضفى كتاب الإباضية على بناء تاهرت لونا قصصيا مشيراً قهيم يروون لبنائها قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبنائه للقيروان . فبعد أن اتفق الجميع على موضع تاهرت أمروا منادياً : « فنادى بأعلى صوته من بها من الوحش أن اخرجوا وارتحلوا قلنا مريدون عمارها ونازلين بها وأجلوا ثلاثة أيام قال أبو زكريا إنهم رأوا وحشاً تحمل أولادها في أفواهها يعنى سباعا والله أعلم وهي خارجة من تلك الأشجار والغياطل فرغهم ذلك فيها وزادهم بصيرة في عمارتها فلما تم الأجل أرسلوا فيها ناراً فأحرقت ما ظهر من الأشجار » (١١٧) . ويبدو أن الأمر لم يكن يعدو أكثر من عملية تطهير للمنطقة من الأشجار بحرقها لإزالتها بسرعة وقد دفع ذلك الحيوانات إلى أن تهرع من المنطقة خوفاً من الحريق ، فتطرق خيال الكتاب إلى نسج هذه القصص لإحاطة المدينة بهالة من الكرامة والتبريك .

ولم يسلم البكري من رواية مثل هذه القصص ، فعبد الرحمن بن رستم والإباضية عندما نزلوا تاهرت أدركتهم صلاة الجمعة « فصلى بهم هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد فأخذ حيا وأقى به إلى الموضع الذي صلوا فيه وقتل هناك فقال عبد الرحمن بن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً » (١١٨) وفي موضع آخر يروي البكري أنهم « لما أرادوا بناء تاهرت كانوا بينون النهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السعلى وهي الحديثة » (١١٩) .

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذي اتبع في بناء المدن الإسلامية الكبرى ، بحيث تساعد على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم (١٢٠) . فاحتضت الإباضية المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا في

(١١٧) الشافعي - السير ، ص ١٣٩ .

(١١٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ (وذكر هذه الرواية أيضاً باقوت في معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، ج ٢ ، ص ٩) .

(١١٩) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(١٢٠) د (إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٩٣ .

بنائه بأخشاب شجر الشعراء المنتشر في المنطقة (١٢١) . وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والأسواق والحمامات والقنادق وتفنن أهل تاهرت تفرجياً في عمارتها وتنظيمها (١٢٢) ، وأحاطوا المدينة بعد ذلك بسور محكم شيد من الصخر (١٢٣) .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء تاهرت فابن خلدون يجعل تأسيسها سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) أي في نفس السنة التي فر فيها عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط يقول ابن خلدون : « فأسسها (أي تاهرت) عبد الرحمن بن رستم واحتطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن » (١٢٤) .

أما ابن عذاري فقد روى عن ابن القبطان أن بناء تاهرت الحديثة كان بعد سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٢٥) ، ثم عاد ابن عذاري في موضع آخر إلى تحديد بنائها بشئ من الدقة فقال : « فر عبد الرحمن إلى المغرب بما خف من أهله وماله ، فاجتمعت إليه الإياضية ، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا بموضع تبهرت وهي غيضة بين ثلاثة أنهار ، فبنوا مسجداً من أربع بلاطات ، واختط الناس مساكنهم وذلك سنة ١٦١ هـ » (١٢٦) .

(١٢١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ياقوت : معجم البلدان ط . دار صادر ودار بيروت ، ج ٢ ، ص ٩ (ويذكر الشماخي أن اختيار المسجد الجامع تم بطريق القرعة بين أربعة أماكن استقر الرأي على إحداها ، انظر الدرجيني : طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ ، الشماخي : السير ، ص ١٣٩) .

(١٢٢) الشماخي : السير ، ص ١٣٩ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٨ .

(١٢٣) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ت د سعد زهلولى عبد الحميد ، ص ١٧٨ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٨ .

(١٢٤) ابن خلدون . العبر ، ط دار الكتاب اللبناني ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ .

(١٢٥) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

ومناقشة هذه التواريخ المختلفة نجد أن سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) التي حددها ابن خلدون لا تتسجم مع واقع الأحداث فالمعروف أن عبد الرحمن بن رستم فر إلى المغرب الأوسط في صفر سنة ١٤٤ هـ (١٢٧) . وفي خلال هذه السنة وقع تحت حصار محمد بن الأشعث مدة طويلة في جبل سوفجج (١٢٨) ، ورغم أن مدة الحصار غير معروفة فإن المتبقى من السنة لا يكفي لتجميع قوى الإباضية بحيث تفكر في بناء عاصمة تجمعهم .

أما رواية ابن عذارى التي نقلها عن ابن القطان ، والتي قالت إن إحداه تاهرت كان بعد سنة ١٤٠ هـ ، ففي هذه السنة وحتى سنة ١٤٤ هـ كان عبد الرحمن بن رستم قاضياً في طرابلس ، وعاملاً لأبي الخطاب على القيروان (١٢٩) . تبقى بعد ذلك رواية ابن عذارى الثانية وهي أن بناء تاهرت كان في سنة (١٦١ هـ / ٧٧٧ م) وهي الرواية الأرجح لأنها تتفق مع سير الأحداث .

أولاً : لأن أقدم نص عن بناء تاهرت وهو عند البكري يؤكد أن بناء تاهرت كان في أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة يقول البكري : « إنه بعد اتفاق الجماعة الإباضية على إمامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربي المدينة (أي تاهرت القديمة) واختار ابن رستم موضعاً لا شعراء فيه » (١٣٠) . وإذا كانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة قد تمت قبل بناء تاهرت تبعاً لرواية البكري ، وعلى وجه التحديد في سنة ١٦٠ هـ وفقاً لرواية الشماخي (١٣١) فرواية

(١٢٧) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(١٢٨) الشماخي : السير ، ص ١٣٣ ؛ الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٣ .

(١٢٩) اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٥٣ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧١ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(١٣٠) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(١٣١) الشماخي : السير ، ص ١٣٩ ، أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٢ .

ابن عذارى الثانية التي تقول بأن بناء تاهرت كان في سنة ١٦١ هـ هي أرجح هذه الروايات .

ثانياً : إن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليربط مصيره ومصير أتباعه بالمغرب الأوسط إلا بعد أن يستعد كل محاولاته في العودة إلى إفريقية ، وبعد أن يكون قد نظم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الإباضي بين قبائل المنطقة ، وهذا أمر طبيعي تطلب تنفيذه أكثر من خمسة عشر عاماً (١٢٧) .

وقد يكون عبد الرحمن بن رستم قد ارتاد موضع تاهرت قبل تأسيسها أو أنه اتخذ من موضعها هذا معسكراً للجماعة الإباضية ، وهذا ما أدى إلى اختلاف الروايات حول تاريخ تأسيسها ، وعند البكري إشارة تدل على أن صفة المعسكر هذه ظلت لاصقة بالمدينة فترة طويلة من الزمان (١٣٣) ، يقول البكري : « وسمى الموضع (أى تاهرت) معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم » (١٣٤) .

مساعدة إباضية المشرق للدولة الجديدة :

انتشرت أنباء الدولة الجديدة وأخبار العدل الذي سادها بفضل إمامها عبد الرحمن بن رستم الذي أحسن السيرة في الناس وجلس في مسجده - كما يقول ابن الصغير - للأئمة والضعيف لا يخاف في الله لومة لائم (١٣٥) . حتى صارت الإباضية تقصد إلى رحاب هذه الدولة من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس حيث يطاردونهم

(١٣٢) د . سعد زعزلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧٥ .

(١٣٣) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(١٣٤) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(١٣٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٠ ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ .

إرهاب العباسيين (١٣٦) . أما الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى أراضى الدولة الجديدة فقد جمعوا أموالا كثيرة خرجت من البصرة - مركز الدعوة الإباضية في المشرق - مع نفر من ثقات الإباضية ، وقال لهم إخوانهم من أهل الدعوة في البصرة : قد ظهر بالمغرب إمام ملاء عدلا وسوف يملك المشرق ويعمل له عدلا فانهضوا إليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التي سكنها فإن كان على ما تفل من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوا إليه وإن كان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم آتونا بذلك كله ، (١٣٧)

وصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من بابها المعروف بباب الصفا ، وسألوا عن دار الإمام فلما اقتربوا منها وجلوا عند بابها غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقا في والعلام يناوله ما يصلح فسلموا على الغلام ، فرد السلام ثم قالوا : هذه دار الإمام فقال : نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه وأعلمه أننا رسل إخوانه إليه من البصرة فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم فقال : قل للقوم بصيرون قليلا ثم أقبل على ما كان عليه من إصلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون إليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ثم توصأ وضوء الصلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره فسلموا عليه وأعلموا أنهم رسل إخوانه إليه فأمر علامه بالحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخب وسمن وشيء من ملح فأمر بتلك القرص فهشمت وأمر بالسمن به ثم قال : على اسم الله أذنوا واكلوا ثم أكل معهم يأكلهم ، (١٣٨) .

(١٣٦) محمد بن قايوت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بباريس ، ص ١٠٩ .

(١٣٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٠ ، ١١ .

(١٣٨) للنص السابق ، ص ١١ (نفس الرواية موجودة باختصار شديد عند أبي زكرياء) (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤) .

« فلما انقضى طعامهم قال ما مرادكم ؟ وما جاء بكم فقالوا له نحب أن تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك فقال : افعلوا فجلسوا نجيا فقال : بعضهم لبعض يكفيني من السؤال عنه ما رأينا من إصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحلية بيته فما نرى إلا ندفع إليه المال ولا نشاور أحداً فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال فأجمع رأيهم على حمل المال إليه ورجعوا إليه ثم أقبلوا عليه فقالوا أعزك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتتفق بها على زمانك وتصلح بها شأنك » (١٣٩) .

وكان الوقت وقت صلاة فذهب الجميع إلى المسجد وبعد انتهاء الصلاة ، عقد عبد الرحمن بن رستم مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لبحث أمر هذه المعونة وأنسب السبل لإنفاقها وتوزيعها ، وقرر الجميع أن يقسم هذا المال إلى ثلاثة أقسام ثلث على الكراع وثلث للسلاح وثلث على الفقراء والضعفاء ، وظل الوفد فى تاهرت حتى قسم المال وتم توزيعه على النحو الذى اتفق عليه (١٤٠) .

وقد كان لهذه المعونة المادية أثرها الكبير فى نماء الدولة الرستمية وتقدمها فقد أمنت الدولة على نفسها بما اشترته للقوم من الكراع والسلاح وقوى الضعيف وانتعش الفقير ، وأمن الجميع ممن كان يظروهم من عدوهم . لذلك شرعوا فى العمارة والبناء وإحياء الأموات وعرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك واتسعوا فى البلد وتقسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصى الأقطار (١٤١) .

ولم يكتف إياضية البصرة بما قدموا من أموال للدولة الناشئة فلم تمض ثلاث

(١٣٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١١ ، ١٢ .

(١٤٠) الدرجيسى : طيقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ، ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٢ .

(١٤١) المصدر السابق ، ص ١٢ ، ١٣ .

سنوات على المساعدة حتى وصلت إلى تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة
أحمال من الأموال (١٤٢) ، ولكن الوفد المشرق في هذه المرة بهوته صورة تاهرت
إذ خطت خطوات سريعة في مضمار الحضارة والتقدم فانتشرت القصور وغرست
البساتين ونصبت الأرحاء على الأنهار ، وظهرت آثار الغنى على أهلها فالتحفوا
الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت ألبيستهم وتعددت اللغات
والأزياء (١٤٣) .

اجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى في المسجد بعد صلاة
الظهر ، وكان رأى عبد الرحمن بن رستم هذه المرة أن تعاد الأموال لأن الدولة
أصبحت قوية وليست في حاجة إليها ، وقال للوفد : « ارجعوا بمالككم فإن أربابه
أسوج إليه منا لأننا في أرض قد استولى عليها العدل وهم في بلد غلب عليهم الجور
يدارون به على أنفسهم ومالههم ودينهم » (١٤٤) .

وهذا يدل على أن عبد الرحمن بن رستم لم يكتف بما تحقق من استقلال
« أهل المغرب » في تاهرت وأعمالها بل كان يطمح إلى تحرير الجماعة الإباضية
في المشرق من الحكم العباسي ، وإلى انتشار المذهب الإباضي في كل دولة
الخلافة (١٤٥) وهذا ما يشير إليه كتاب الإباضية في قولهم ، واعترف كل إباضي
بإمامته ووصلوه بكتبهم ووصاياهم (١٤٦) . بل إن ابن الصغير يذكر أن إباضية
المشرق قد اعتبروا أن إمامة عبد الرحمن بن رستم أصبحت فرضاً عليهم منذ رد
الأموال إليهم ليقبوا بها وفي ذلك يقول : « فعند ذلك رغب القوم في إمامته

(١٤٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٣ ، الشماخي : السير ، ص ١٤٠ .

(١٤٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسامين في تاهرت ، ص ١٣ ، ١٤ . الباروي : الأزهار الرياضية ،
ج ٢ ، ص ٩٠ .

(١٤٤) الشماخي : السير ، ص ١٤١ .

(١٤٥) د . سعد زعلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٨٧ .

(١٤٦) الشماخي . السير ، ص ١٤١ ، وفاروق ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسامين في تاهرت ،
ص ١٣ ، الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

ورأوا أنها فرض عليهم » (١٤٧) ويقول الدرجيني : « وأقروا (الإباضية) بإمامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت حرزا وحصنا لجماعة أهل الدعوة وسميت المعسكر المبارك » (١٤٨) بل إن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد دولته من الأمن والرخاء لم يجذب أهل المذهب الإباضي فقط من البلدان الأخرى ، وإنما جذب أيضاً التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين قصلوا تاهرت وحلوا بها من مصر وإفريقية وسائر بلاد المغرب الأخرى (١٤٩) .

نجاح عبد الرحمن بن رستم في إدارة دولته :

أصبح عبد الرحمن بن رستم ممثلاً لنظام حكم مثالي عملي لا نظري ملتزم بقواعد الدين الإسلامي فالإباضية سواء في المشرق أو في المغرب لم يجدوا من خلفاء بغداد - رغم تمسكهم بالنسب إلى البيت النبوي - المثل الأعلى للحكم ، ونفروا من انغماس هؤلاء الخلفاء في مظاهر الترف الفارسي وتقليد الأبهة والبهلاط الفارسي (١٥٠) . وقد شرح ابن الصغير للملكي الذي عاصر الرستميين ملاح هذا الحكم الإسلامي المثالي في الدولة الرستمية على نحو تفصيلي فقال عنه :

« وقضائه مختارة (أي عبد الرحمن بن رستم) وبيوت أمواله ممثلة وأصحاب شرطته والعلائفون قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم .. من أهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . فإذا حضر جميع ذلك صرف الطعام إلى الفقراء ويبيع الشاة والبعر فإذا صارت أموالاً دفع منها إلى العمال بقدر

(١٤٧) ابن الصغير : سورة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٥ .

(١٤٨) الدرجيني : ملبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ .

(١٤٩) د . سعد زعلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٨٧ ، محمد بن ناوية : سورة الأئمة الرستميين في تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١٠٩ .

(١٥٠) JULIEN, op. cit., p. 35, 39.

د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

ما يستحقون على عملهم ثم نظر في باقي سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من في البلد وفيما حول البلد ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما في الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفاً وجبايا صوفاً وفراء وزيتاً ثم دفع في كل بيت بقدر ذلك ويأتي بأكثر ذلك أهل القافة من مذهبه ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشيشه وقضائته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم ثم إن فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين ، (١٥١) .

وكما كان عبد الرحمن بن رستم رجل إدارة على هذا النحو المثالي الذي أشاع العدل في دولته فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد ، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولاً أن يكسب لها كل دواعي الأمن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبي القاسم الذي تولى أمر الصقرية في سجلماسة سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) (١٥٢) . ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار بسجلماسة (١٥٣) . فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم مدرار بن اليسع (١٥٤) ، وكان لهذا الزواج أثره في تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفي دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين .

(١٥١) ابن الصغر : سيرة الأئمة الرسنبيين في تاهرت ، ص ١٥ ، ١٦ (١ ممتلأه ، هكذا في الأصل)

(١٥٢) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٦

(١٥٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٨٤ .

(١٥٤) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، الباروني : الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم في مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود حيث
رغب في تقوية فرص السلام مع أعداء دولته وهو الوالي العباسي في القيروان
روح بن حاتم ، فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته ، ويبدو أن معاهدة
سلام قد عقدت بين الطرفين عام (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) (١٥٥) ، وإن كانت
شروطها غير معروفة . وقد أشار ابن خلدون إلى أحداث هذه المصادعة بقوله :
« ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة ١٧١ هـ في مصادعة صاحب
القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعه » (١٥٦) ، وقد كان لهذه
الاتفاقية أهميتها إذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن
رستم ، ويقول ابن خلدون في هذا أيضاً : « ورغب (يعني روحاً) في مصادعة
عبد الوهاب بن رستم وكان من الرهبة فوادعه » (١٥٧) .

واستطاع عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يخلق حالة من الاستقرار السياسي
بين دولته الناشئة وبين سائر القوى السياسية الأخرى في بلاد المغرب ، فكان
لذلك أثره في تدعيم أوتاد الدولة الرستمية ، فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها ،
وهاجر إليها الكثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، وقصدها التجار
والعلماء والكتاب ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف من كل مكان ، فكان
لذلك أثره في ازدهار الدولة ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية ، لذا فقد
نعم المغرب الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والأمن الذي لم يعرفهما
من قبل (١٥٨) .

ويبدو أن عبد الرحمن بن رستم في أواخر أيامه قد أصيب بمرض أحسن منه

(١٥٥) ابن خلدون : المعبر ، ط . مؤسسة الأعلمي بيروت ، ج ٤ ، ص ٦١٣ ، الباروي : الأزهار
الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٥٦) المصدرين السابقين ، نفس الصفحات .

(١٥٧) ابن خلدون : المعبر ، ط . مؤسسة الأعلمي بيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٤ ، الباروي : الأزهار
الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(١٥٨) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٠ .

بدنو أجله فاقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب فجعل الإمامة شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية ممن توسم فيهم الصلاح والعلم والتقوى والورع وهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ومسعود الأندلسي ، وأبو قدامة يزيد بن فندس بن اليفري ، وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي ، ومصعب بن سدمان (١٥٩) . وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء السبعة بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم (١٦٠) . ثم تولى عبد الرحمن بن رستم سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) (١٦١) أما ابن عذارى فيجعل تاريخ وفاته سنة (١٦٨ هـ / ٧٨٤ م) (١٦٢) وارتضى هذا التاريخ الأخير زاملور في معجمه (١٦٣) . والتاريخ الأول أولى بالصحة لأنه يوافق تاريخ الموادعة بين عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم الذي ذكر ابن خلدون أنه كان في سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) (١٦٤) ، ولأن مبايعة عبد الوهاب تمت في نفس السنة أيضاً .

(٦٥٩) الدرجيس : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ، الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٩ ويذكر أبو زكرياء أنهم كانوا ستة المرشحين للإمامة . ولما عاد إلى تفصيل هؤلاء الستة كتبهم سبعة ، وهذا ما جعل الآخرين من مؤرخي الإباضية يقولون أنهم سبعة وقد يكون هذا خطأ من النسخ . (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، ورقة ١٤ ب) .

(٦٦٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٠ .

(٦٦١) الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٦٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

(٦٦٣) زاملور : معجم الأسباب والأسرار الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ص ١٠٠ .

(٦٦٤) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمي بيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٤ .

الفصل الثالث

توطد الدولة الرستمية وازدهارها

(١) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم موطد الدولة الرستمية
(١٧١ هـ / ٧٨٧ م - ٢١١ هـ / ٨٢٦ م)

١ - مبايعته بالإمامة :

تعتبر الفترة التي أعقبت وفاة عبد الرحمن بن رستم من اخرج الفترات التي مرت بها الدولة الرستمية ، ولا أدل على ذلك من أن المرشحين السبعة للإمامة لم ينتهوا في فترة وجيزة من عملهم الذي كلفهم به الإمام الراحل عبد الرحمن بن رستم ، وهو اختيار واحد منهم للإمامة فقد استمرت اجتماعاتهم شهرا كاملا دون أن يتخلوا قرارا في هذا الشأن (١) . وحالت اجتماعات القوم وكان كل منهم يظهر عزفه عن منصب الإمامة كما يقول الشماخي . حتى أجمعوا رأيهم على اختيار أحد الثنين : مسعود الأندلسي ، أو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثم مال أكثر المرشحين للإمامة والعامه معهم إلى تولية مسعود الأندلسي (٢) . ويبدو أن الذي دفعهم إلى ذلك أحد أمرين :

أحدهما : أن مبدأ الإباضية كان يقتضى الالتزام بالشورى دون الوراثة .

(١) أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤ ب ، الشماخي : السيرة ، ص ١٤٥ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات .

والآخر: أن مسعود الأندلسي كان أعلم من عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم (٣) .

غير أن مسعود الأندلسي اختفى عن الأنظار يوم البيعة زهدا منه في تولي هذا المنصب الخطير ، وقد زاد ذلك من فرصة تولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم للإمامة ، لأنه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الأندلسي في نظر الجميع . يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوىاء يدعمون موقفه في هذه المعركة الانتخابية فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب لأن أمه كانت من بفرن وهي فرع من زناتة (٤) . كما انحازت إليه أيضاً جماعات الفرس الذين كانوا يكونون جالية قوية لا بأس بها في دولة الرستميين (٥) .

ولما بُسّ من البحث عن مسعود ابتدروا عبد الوهاب لمبايعته بالإمامة ، وما أن سمع مسعود بذلك حتى ظهر إلى مجتمع الناس ليكون في مقدمة المبايعين لعبد الوهاب . ولكن جدلا خفيفا حدث في أثناء البيعة ، فقد قام أبو قدامة يزيد بن قنديل خطيبا فقال : « إنا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو ألا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه » (٦) ، وكان يزيد يطمع فيما وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل في الحصول على منصب الإمامة وسارع مسعود الأندلسي بالرد عليه قائلا : « ما سمعنا بهذا وما علمنا أن في الإمامة شرطا غير أن يحكم الإمام بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين قبله » (٧) ، وكان الجميع يؤيدون رأي مسعود ويقفون ضد يزيد بن

(٣) « السيد عبد العزيز خاتم : العرب الكبير ، ص ٥٥١ .

(٤) الشماخي : السير ، ص ١٤٥ ، محمد بن ثابت . دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٣ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) الطبروني . الأذهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، الشماخي : السير ، ص ١٤٥ ، مع اختلاف في اللفظ .

(٧) أبو ركناء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤ ب .

فنديين وجماعته التي أبدت رأيه ، وفي ذلك يقول الشماخي : « فسكت يزيد عن ذكر الشرط حين رد عليهم المسلمون » (٨) .

وكان مسعود الأندلسي أول من بايع عبد الوهاب وتتابع من وراءه الحاضرون ، ثم بايعه المسلمون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الإمامة في موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت ، وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شرط للإمامة (٩) .

٢ شخصية الإمام الجديد :

تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منصب الإمامة سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) وكان آنذاك في الثانية والخمسين من عمره (١٠) ، وقد قضى عبد الوهاب أغلب هذه السنين إلى جوار والده عبد الرحمن بن رستم يقاسمه فيها حلل الحياة ومرها . ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير من التفاصيل عن حياة عبد الوهاب قبل توليه منصب الإمامة إلا أن الذي لا شك فيه أنه كان إلى جانب والده في كل جهوده السياسية والحربية التي قام بها لتأسيس دولة إباحية ، وأنه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم في القيروان أيام ولايته عليها من قبل أبي الخطاب ، ومما يؤيد ذلك ويدعمه ، أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الأوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب و غلام لهما وضرب عبد الوهاب في أثناء هذه الرحلة الشاقة المضنية مثلاً رائعا في القوة والشجاعة ، للمحافظة على والده عبد الرحمن بن رستم حتى وصل هذا الركب الصغير إلى جبل سوفجيج ، وكان عبد الوهاب ضمن من حوصروا في الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه .

(٨) الشماخي : السمر ، ص ١٤٥ .

(٩) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الدرجي . طبقات الإباحية ، عطاوط ، ورقة ٢٦ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(١٠) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٤٥٥ .

جمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بقنون السياسة والإدارة والحرب واكتسب من والده قوة الشخصية ، ومثانة الشكيمة ، فهو شخصية صقلتها ونمتها الأحداث حتى إذا جاء دورها انطلقت تساهم في صنع الأحداث على نحو هو أحسن ما يقبل منها وفوق هذا وذاك ، تمتع بين سائر أقرانه بمكانة علمية تكون رصيدها الهائل لديه على يد اثنين من حملة العلم ، أحدهما والده عبد الرحمن بن رستم ، والثاني أبو دلود القبلي (١١) ، ويضاف إلى ذلك أنه تمتع ببعض الصفات الجسمية التي تكسب صاحبها الهيبة ، وتضفي عليه الكثير من قوة الشخصية فقد كان ضخما ممتد القامة ، وقد عبر عن ذلك الشماخي فيما نقله عن أبي زكريا من أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان له مصلى « بثلاث وفي موضع من المصلى هذه بلاطة كان الإمام عبد الوهاب يتكىء عليها إذا قعد مساو بها رأسه وهذه البلاطة اليوم تحاذي رأس الواقف (١٢) .

استطاع عبد الوهاب بفضل هذه المميزات المتعددة لشخصيته أن يحتفظ بمركزه كإمام يقود دفعة الأحداث في الدولة الرستمية التي كانت الجبهة الداخلية فيها تغلى بأزمات انفجرت تباعا ، وحتى يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية في دولته رأى أن يجدد فوراً وبسرعة اتفاقية المودعة التي تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وبين روح بن حاتم أمير القيروان والتي رغب روح بن حاتم منه في استمرارها (١٣) .

(١١) إسماعيل بن عيسى الجليطالي النفوسى - قاطر الخيرات ، ت - عمرو خليفة القاسى ، طبعة ١٩٦٥ . القسم الأول ، هامش ١٦٢ .

(١٢) الشماخي : السور ، ص ١٥٩ (ونفس الرواية موجودة عند أبي زكرياء ، مع اختلاف في اللفظ) ، (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٢٣)

(١٣) ابن خلدون العمري ، ط - مؤسسة الأعلمى ببيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٤ ، القيرواني - تاريخ إفريقية والمغرب ، ت - المنجى الكعبى ، ص ١٧٣ ، البارونى . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

GAUTIER, O.P. cit. p. 303.

٣ - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم وتأمينه للجبهة الداخلية :

أولاً : ثورة النكار :

تزعم يزيد بن فنديس - وهو أحد الذين رشحهم عبد الرحمن بن رسم لمنصب الإمامة - تيار المعارضة ضد الإمام عبد الوهاب ، وذلك سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) وهي نفس السنة التي تولى فيها عبد الوهاب منصب الإمامة برضى العامة والخاصة . ويؤيد بن فنديس هذا ينتمى إلى بنى يفرن وهم فرع قوى من قبيلة زناتة البثرية . ويرجع بعض كتاب الإباضية (١٤) أسباب خروج يزيد بن فنديس على الإمام عبد الوهاب إلى أسباب شخصية ، فيزيد أخفق في الوصول إلى منصب الإمامة رغم أن عبد الرحمن بن رسم جعله من بين المرشحين السبعة لهذا المنصب ، ومما زاد الأمر سوءاً أن عبد الوهاب لم يسند إليه بعد توليته الإمامة منصبا من مناصب الدولة التي كان يزيد يتطلع إلى توليتها . ومما ساعد يزيد على ذلك تلك الخلافات التي ظهرت في مطلع عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم والتي ترجع إلى أن بعض زعماء الإباضية راعهم تحول إمامتهم إلى ملك وراثي في أبناء عبد الرحمن بن رسم (١٥) .

ولكن الذى يبدو أن سياسة الإمام عبد الوهاب ومبادئه الصلومة في الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد ، دفعته إلى أن يعهد بالمناصب إلى من يعرف فيه العزوف عنها ، ويبعد عن تلك المناصب الطامعين فيها وهو الأمر الذى سيثير عليه سخط أصحاب المطامع . وقد أوضح الدرجيني هذه الحقيقة حين قال : « فأما سبب افتراق الإباضية فيما ذكر غير واحد من أصحابنا فهو أن عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولاياته كلها أهل الورع والزهد وكل من علم أنه ليست له رغبة في الولاية واستعان على ما قلده الله

(١٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٥ ، الباروتى : الأزهار الرباضية ، ج ٢ ،

ص ١٠٢ ، أبو ربيع الباروتى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٤

(١٥) د محمود إسماعيل عبد الرزاق : الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية ، دار القلم ببيروت ،

١٩٧٣ ، ص ٢٠

من أمور المسلمين بأهل العلم والبصائر في الدين » (١٦) .

عملت هذه السياسة على اتساع الدعوة بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبين الطامعين في السلطان من خصومه (١٧) ، وخاصة يزيد بن فندين الذي نهض مشوا للفتنة بتاهرت ، وأخذ يجمع حوله الأنصار والمؤيدين ، واتخذ لذلك شتى الوسائل لاقتناعهم بوجهة نظره فأشاع أن عمال الإمام ليسوا على قدر كبير من الكفاءة والدراية لتدبير مشئون الدولة وأنه هو وأتباعه أولى بهذه المناصب (١٨) وجعل ابن فندين وأتباعه الدعوة إلى وجود جماعة معلومة لا يقطع الإمام أمرا دون الرجوع إليها (١٩) . وتدرج ابن فندين من ذلك إلى إنكار إمامة عبد الوهاب وإعلان فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن في المسلمين من هو أكثر منه علما .

ويحدثنا الشماخي عن الطريقة التي كان يتبعها يزيد بن فندين وأتباعه لإقناع الناس برأيهم فيقول عنهم : « وخادعوا الناس بأقوالهم واضطربوا فإذا لقوا من لا بصيرة له في الدين قالوا شرطنا أن لا يقطع أمرا ولا يقضي دون جماعة معلومة ، وإذا خلوا بإخوانهم قالوا قدم علينا من عن أولى منه بالتقديم وقد وليناه الأمر على أن يقدمنا ويرفع درجتنا فأحزننا وإذا لقوا الضعفاء قالوا لا تجور إمامة رجل إذا كان في المسلمين من هو أعلم منه فأغشوا القليل والقال وارتحفوا خارج المدينة وإلى الجبال ليتمكنوا من قارب الضعفاء ومن لا بصيرة له ولتم كلمتهم » (٢٠) .

أدت هذه الأحداث إلى انقسام مذهبي خطير داخل الجماعة الإباضية

(١٦) العرجي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ .

(١٧) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٨٩ .

(١٨) العرجي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤١ ، البارون : الأزهار شريافية ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(١٩) العرجي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ ، الشماخي : السور ، ص ١٤٦ .

(٢٠) ابن الصعير : سورة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٩ ، « قارب » هكذا في الأصل .

في المغرب الأوسط فأصبح هناك النكار وهم أتباع يزيد بن فنديل الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب ، أما جمهور الإباضية بالمغرب الأوسط وهم مؤيدو عبد الوهاب فسموا بالوهمية نسبة إلى الإمام عبد الوهاب (٢١) . وانسلخ النكار عن مجتمع تاهرت وأصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عرف (بكدية النكار) (٢٢) .

ظل عبد الوهاب يراقب خصومه بحذر شديد ، وفي تلك الأثناء دير يزيد بن فنديل مؤامرة لقتل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، والتخلص منه نهائياً ، فعمد ابن فنديل إلى وضع رجل مسلح داخل صندوق مغلق وتظاهر رجلاً من أتباع ابن فنديل بأن بينهما خلافاً حول هذا الصندوق وأن كلا منهما لا يأمن صاحبه عليه وأتت يديهما الاحتفاظ به عند الإمام حتى ينتهي ما بينهما من خلاف واتفق القوم مع صاحبهم الذي بداخل الصندوق على أن ينهض في الليل فيقتل عبد الوهاب ، وعندما يتمكن من ذلك يؤذن لصلاة الصبح فتكون هذه شرارة ينطلق بعدها أتباع ابن فنديل فيضعون السلاح في أهل المدينة ويستولون على السلطة بالقوة (٢٣) .

وثارت الشكوك في نفس الإمام فالصندوق ثقيل ، وقفله من داخله لذا وضع الإمام في فراشه زقا منفوخا وألقى عليه رداء أبيض ، وفي المساء تحققت شكوك الإمام حيث خرج الرجل من الصندوق ، وظن الزق هو الإمام فضربه بسيفه ، وهنا عاجله الإمام بضربة قاتلة ووضعه في صندوقه وظل القوم حتى الصباح ولم يسمعوا شيئاً من صاحبهم ، فاجتمعوا إلى الإمام وقالوا اتفقنا ونريد

(٢١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٢ .

(٢٢) ابن الصمير : سيرة الأئمة الرسامين في تاهرت ، ص ١٦ ، (ويذكر العرجي أنهم سُموا بالشعبة لإدخالهم شعباً في الإسلام ، ويقول أيضاً إنهم أخذوا في أسماء الله وسُموا الملحدة وسُموا النكات أيضاً لكنهم للبيعة بعير حدث) ، العرجي : طيقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢

(٢٣) المصدر السابق ، ورقة ٢٢ ، الصمير . السير ، ص ١٤٩ ، البرومي الأرهار الرياضية ،

ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

الصندوق وحملوه إلى مأمئهم فوجدوا صاحبهم قتيلا (٢٤) .

وبفشل المؤامرة توقع النكار فثك الإمام بهم فخرجوا من قاهرت وعادوا إليها في جموع تحمل السلاح ، فنهاهم الإمام عن ذلك بواسطة بعض خواصه فقالوا لهم : « ما في امساك السلاح معصية ولا في حمله من بأس والمؤمن بسلاحه وإن رأى الإمام في ذلك معصية فليقتنعنا بالحجة » (٢٥) ، فأصدر الإمام أوامره بالاستعداد للحرب ، فازداد الناس خوفا واشتدت وطأة النكار فأكثروا من التعدي حتى اشتعلت الحرب بينهم وبين الإمام وسفكت في هذه الحرب دماء كثيرة الأمر الذي جعل الإمام وأنصاره من الإباضية يطلبون الهدنة مع النكار على أن تكون هذه الهدنة فترة يجرى فيها التحكيم بينهم وبين الإمام ويتولى هذا التحكيم علماء الإباضية المشاركة وذلك عن طريق رسل يمثلون الأطراف المتنازعة تكون مهمتهم الذهاب إلى المشرق والحصول على رأى زعمائه من الإباضية في هذه القضية (٢٦) .

وانطلق رسل الإباضية نحو المشرق يحملون قضية الخلاف إلى علماء الإباضية المشاركة ، ويدور الخلاف في هذه القضية حول موضوعين أساسيين أثارهما يزيد بن فندين وجماعته :

أحدهما : أن على الإمام عبد الوهاب ألا يقطع برأى في مسألة من المسائل إلا إذا رجع إلى جماعة معلومة تكون بمثابة هيئة استشارية له وهذا ما رفضه عبد الوهاب حين بويع بالإمامة .

ثانيهما : أن إمامة عبد الوهاب باطلة من أصلها لأن في المسلمين من هو أكثر منه علما .

(٢٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، ورقة ١٧ أ ، الدرر الجدي . طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٣ ، ٢٤ ، الشماخي : السيرة ، ص ١٤٩ .

(٢٥) البزوني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

والذى تذكره بعض المصادر الإباضية أن رسل الإباضية مروا على مصر وأنهم قابلوا هناك من علماء الإباضية أبا المعروف شعبيا وغيره من علماء الإباضية ، وهناك قاموا بعرض الأمور عليهم (٢٧) . ثم توجهوا بعد ذلك إلى مكة حيث التقوا هناك بعدد من علماء الإباضية منهم أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند في الحديث ، وأبو غسان مخلد بن معمر الغساني ، ووائل بن أيوب (٢٨) . وأمام هؤلاء جميعا طرحت القضية ثانية وجاء رأى أولئك العلماء من إباضية مكة مؤيدا لموقف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبعثوا برسالة مطولة تضمنت فساد تعليق الإمامة على شرط وجود جماعة تحكم مع الإمام لأن ذلك فيه إيقاف لحدود الله وتعطيل لها ، كما ذكرت الرسالة أنه يجوز تولية رجل من المسلمين وبينهم من هو أعلم منه لأن أبا بكر تولى أمر المسلمين وبينهم من هو أعلم منه (٢٩) .

وفي الوقت الذى كان فيه رسل إباضية مكة في طريقهم إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان أبو المعروف شعيب العالم الإباضى المصرى قد خرج من مصر متجها نحو تاهرت كى يستفيد من هذا التوتر الذى أصاب الدولة . فالتقى أولا بالإمام عبد الوهاب وأوضح له أن إمامته صحيحة وأن الشرط الذى وضعه النكار باطل . وإن الإمامة تجوز لأى شخص ولو كان من المسلمين من هو أعلم منه (٣٠) . ثم حين قابل أبو المعروف يزيد بن فندين - زعيم النكار - أوضح له ضعف موقفه ، وأن عليه أن يستأنف حرب الإمام

(٢٧) الشماخى ٠ السمر ، ص ١٥٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

(٢٨) الدرجى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، وعن الربيع بن حبيب . انظر : البرادى : الجواهر المنتقا ، مخطوط ، ورقة ٨٨ .

(٢٩) الدرجى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورعه ٢٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٣٠) أبو ركرماء السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٦ أ ، الدرجى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ .

ثانية قبل أن تعود الرسل من المشرق ، فيقوى من مركز عبد الوهاب (٣١) .

أخذ ابن فندي ومن معه من النكار يتجهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على العاصمة تاهرت وفي يوم كان الإمام عبد الوهاب غائبا عن المدينة لقضاء بعض حوائجه فهجم ابن فندي بجيشه على المدينة ، وكان أفلح بن عبد الوهاب يمشط رأسه وقد ضفر منه نحو الشطر وبقي الشطر فأخذ سلاحه وترسه فوقف على باب المدينة وقد كادوا يخلوها وشب إحدى رجله على العتبة السفلى من باب المدينة فانسليخ رجله إلى العرقوب وجالدهم حتى لم يبق في مفرقه ما يصلح أن يكون رقاية فأخذ إحدى مصراعي باب المدينة فأتى به وابن فندي بين يديه يضرب الناس يمينا وشمالا وعلى رأسه بيضتان فضربه فقسمه بصعين فنشب السيف في الصفا من شدة الضربة فلما مات ابن فندي انهزمت أصحابه (٣٢) . ويذكر كتاب الإباضية أن عدد القتلى بلغ النى عشر ألف قتيل ، وجد الإمام عبد الوهاب أكثرهم على باب تاهرت حين عودته إليها فصلى عليهم جميعا رغبة منه في اجتماع كلفة المسلمين في دولته (٣٣) .

ولم تتوقف أعمال النكار عند هذا الحد ، ففي أعقاب وصول رسل الإباضية من المشرق بصحة إمامة عبد الوهاب ، غضبوا وعبروا عن ذلك الغضب بقتل ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثلوا بجثته (٣٤) ولكن أحد أبناء ميمون تعرف على قتلة أبيه حين كان يقوم بجباية الخراج من بعض تواحي الدولة الرستمية . وبعض كتاب الإباضية يروون أن عبد الوهاب تصرف بطريقة مثالية نحو المجناة إذ عمد إلى البحث عنهم حتى اتضح ارتكابهم لهذه الجريمة

(٣١) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣٢) الشماخي . السير ، ص ١٥٠ .

(٣٣) أبو ركرياء . السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٨ أ ، الدرر ج ١ : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٤ ، الشماخي : السير ، ص ١٥٠ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١١ .

(٣٤) الدرر ج ١ : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ .

بالحجة القوية ، فأرسل في طلبهم فرفضوا الامتثال لأوامره واحتموا بمن كان معهم من بقايا ابن فندين من النكار . ولذلك اتخذ الإمام عبد الوهاب من هذه الحادثة ذريعة لتقليم أظافر النكار وكسر شوكتهم فأرسل إليهم جيشا بقيادة ابن ميمون ، قتل الجناة ، وقتل من النكار عددا كبيرا فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك الخطورة التي تهدد عبد الوهاب (٣٥) . إلا أن الذي يلاحظ أن حركة النكار خلقت وضعا جديدا في الدولة الرستمية ، فقد أعطت حركة النكار الفرصة للجماعات الواسلية من المعتزلة من أهل المغرب أن يناقشوا مسألة الإمامة في الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا هذه الدولة وهذا ما جعل بقايا النكار يتضمون إلى هؤلاء الواسلية في حركتهم ، وأصبحت حركة الواسلية للمشكلة الثانية التي تهدد الجبهة الداخلية في الدولة الرستمية بعد ثورة يزيد بن فندين .

ثانياً : ثورة الواسلية :

كانت جماعات الواسلية تؤلف حزبا قويا في الدولة الرستمية فهم ينتسبون إلى واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة (٣٦) ، ويقدر عددهم في الدولة الرستمية بثلاثين ألفا يعيشون في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها (٣٧) وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مستغانم ووهران ، وإلى الجنوب من تاهرت في (تيلغمت) وفي بعض المناطق الصحراوية ، وفي وادي ميزاب كما انتشرت هذه الجماعات من الواسلية أيضا وبأعداد كبيرة في شمال المغرب الأقصى في ويلي ، وكان رئيسهم هناك هو اسحاق بن محمد الأورلي (٣٨) ، وكانت هذه الجماعات تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية في ظل الدولة الرستمية ، فاستطاعوا بذلك أن

(٣٥) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الشماخي : السمر ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣٦) البندادي : الفرق بين الفرق ، ص ٩٦ .

(٣٧) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(٣٨) دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

يدعوا مدعهم وأن يحتجوا له وأن ينادوا من يريدون حتى ولو كان إمام الدولة
نفسه (٣٩).

ويعزى خروج الواصلية على الإمام عبد الوهاب ، إلى أنهم غضبوا لمقتل
يزيد بن فندين (٤٠)، باعتباره من بنى يفرن التي هي فرع من زناتة التي ينتمى إليها
معظم الواصلية ، ويؤكد ذلك انضمام بقايا النكار بعد مقتل يزيد بن فندين
إلى هؤلاء الواصلية ، وخاصة الموجودين منهم في شمال تاهرت (٤١) .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لثورة الواصلية على الإمام عبد الوهاب ،
فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصلية إلى الثورة ، وتظهر هذه
المؤثرات واضحة عندما اتجه الإمام إدريس الأكبر بمجيوشه نحو تلمسان سنة
(١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) (٤٢) . وهي إذ ذاك قاعدة المغرب الأوسط (٤٣) وبها من
القبائل مغراوة وبنى يفرن (٤٤) . وتمكن إدريس الأكبر من إخضاع أميرها
محمد بن عزز بن صولات المغراوي الذي طلب من إدريس الأكبر الأمان
واعترف بإمامته (٤٥) .

(٣٩) الشماخي : السير ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، البارون : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١٧ ،
ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٤٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٣ .

(٤١) الترجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ ، ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ،
ص ٤٨٤ .

(٤٢) ابن أبي ذرع : الأنيس المطرب مروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،
م . محمد المحامي الفيلالي ، ط . المطبعة الوطنية بالمغرب ١٩٣٦ ، ص ٢٢ ، د . حسن علي حسن : دولة
الأندلس بالمغرب ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٦٧ ، ص ١١٨ .

(٤٣) الشكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٧٦ .

(٤٤) م . أبي ذرع . الأنيس المطرب ، ج ٦ ، ص ٢٢ .

(٤٥) م . مخلوف : السير ، ط . مؤسسة الأعلمي بيروت ، ج ٤ ، ص ٧ ، د . حسن علي حسن :
دولة الأندلس بالمغرب ، ص ١١٨ .

وقد قام أمراء تلمسان من مغراوة وبنى يفرن بعد خضوعهم لسلطان الأدارسة بمحاولات لضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الأدارسة التابعين لها . وعند ابن خلدون نص يؤيد هذا ، يقول ابن خلدون : « ولم يزل الملك في بنى رستم هؤلاء بتاهرت ، وحازتهم جميعاً من مغراوة وبنى يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زنانة من لندن ثلاث وسبعين ومائة » (٤٦) ، وقد تكاثفت الجهود في هذا الشأن مع زعيم الواسلية في المغرب الأقصى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي لإثارة واسلية المغرب الأوسط على حكامهم من الرستميين ، وقد حدثت مكاتبات بين إسحاق الأوربي وبين هؤلاء الواسلية بالمغرب الأوسط (٤٧) ، وجاء مقتل يزيد بن فندين فرصة لتدخل الواسلية وإثارة الجدل مرة ثانية حولة إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ولم يقف الأمر بهم عند حد الجدل بل جمعوا جيوشاً عظيمة اقتربت من تاهرت ودارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالات بين الطرفين (٤٨) .

وفي ضوء هذه الأحداث رأى عبد الوهاب أن يطلب المساعدة من إياضية جبل نفوسة (٤٩) . وكان الإياضية بجبل نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي عن نفوذ الدولة العباسية منذ زمن أبيه عبد الرحمن بن رستم . وفي عهد عبد الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين إياضية هذا الجبل قوة (٥٠) . تقول رواية الشماخي إن عبد الوهاب طلب من أهل الجبل أربعمئة نفر . مائة من الفرسان للمبارزة ، ومائة مفسر ، ومائة متكلم ومائة فقيه عالم بفنون الجلال والحرام

(٤٦) ابن خلدون : المعر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٢

(٤٧) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٤٦ .

(٤٨) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١٧

(٤٩) الشماخي : المعر ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٥٠) . . إسماعيل حباس : تاريخ ليبيا ، ص ٥٦ .

ولأن الواصلية معهم عالم عيا من هناك في الكلام وفيهم شاب لا يبارزه أحد إلا قتله» (٥١) والغريب في هذه الرواية أن هذه الأعداد المطلوبة لا تتسجم مع ما أرسلته إياضية نفوسة فعلا لمساعدة عبد الوهاب ، إذ أرسلت له نفوسة أربعة أفراد بدلا من أربعمائة وهم محمد بن يانس ، ومهدى النفوسى ، وأبو الحسن الأبدلاني ، وأيوب بن العباس (٥٢) . ولكن يبدو أن هذه الرواية أرادت أن تضيفى الشاء على هؤلاء الأربعة وتقول أن الواحد منهم كان يعدل مائة (٥٣) . وعند الدرجينى رواية تخفف من حدة هذه المبالغة في رواية الشماخى يقول الدرجينى : « فلما رأى الإمام (عبد الوهاب) ما نزل به منهم (الواصلية) وأن حربهم مقيم أرسل إلى أهل جبل نفوسة يستمدهم طالبا منهم جيشا نجيا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفاسير ورجل شجاع يستعد لمبارزة الواصل (٥٤) .

وكان الإمام عبد الوهاب ينتظر قدومهم بفارغ الصبر حتى أنه وعد أن من أتاه بخير وصولهم أعتقه وأخرجه حرا ، وكان من بين الغلمان غلام أعرج ، فلما رأى الغلمان يتسابقون يوما إلى الإمام ، فعلم أن ذلك من قدوم نفوسة . فأعبر الإمام بقدومهم فخرج حرا ، فلما بشر الغلمان الإمام عبد الوهاب ، قال لهم فاز بها الأعرج ، وأرسلت مثلا (٥٥) .

وعلى الفور اجتمع عبد الوهاب بوفد نفوسة وقال لعالمهم الملقب بمهدى النفوسى : « وقع بينى وبين المعتزلى في مناظرتى له كذا وكذا فذكر ما وقع بينهما من الحديث فكلما زاغ المعتزلى عن الحق وحاد عن الصواب قال مهدى ها هنا

(٥١) الشماخى : السمر ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ (« عيا » هكذا في النص) .

(٥٢) الشماخى : السمر ، ص ١٥٥ .

(٥٣) د . إحسان عباس . تاريخ ليبيا ، ص ٦٦ .

(٥٤) الدرجينى : طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥

(٥٥) أمير زكرياء . السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٠ أ ، الشماخى : السمر ، ص ١٥٥ .

ذهب عن الالتزام وها هنا ليس بالشبهة حتى أطلعه على مكانه وما ليس به (٥٦) .

ولما تأكد الإمام عبد الوهاب من تمام استعداداته للقاء الواصلية دعاهم إلى المناظرة فاستعد الفريقان وجمع كل منهما جموعه ، وتقدم الإمام عبد الوهاب من بين الصفوف ومعه جماعة من بينهم مهدي النفوسى ومحمد بن يانس فتناظر مهدي النفوسى مع عالم الواصلية حتى غاصا فى كلام لم يفهمه الحاضرون ، وتمادى بهم الحديث والمناظرة حتى أفحم مهدي عالم الواصلية فكبر الحاضرون من أتباع عبد الوهاب ، وعلى أثر ذلك نشب قتال ضارى بين الإباضية وبين الواصلية استطاع فيه أيوب بن العباس أن يقتل فارس الواصلية ، وبمقتله انهزمت جماعات الواصلية ، وعاد بعضهم إلى طاعة الإمام والبقاء داخل نطاق الحكم الرسمى (٥٧) ، والبعض الآخر كونوا لهم بعض الإمارات مثل إمارة (ايزرج) بجانب تاهرت ، كما كان منهم من توجه إلى المغرب الأقصى والتف هناك حول زعيمه المعتزلى إسحاق بن محمد الأورى الذى امتد نفوذه ما بين (طنجة) إلى (ولى) بجبل (زرهون) (٥٨) . ويمثل القضاء على حركة الواصلية خطوة هامة للمحافظة على حدود الدولة الرسمية العربية فقد أوقف الأدارسة عند حدود تلمسان ، وأكد سلطان الدولة الرستمى على ما على تلمسان شرقا من أراضى المغرب الأوسط .

ثالثاً : ثورة مرانة وسدراتة :

لم تكن هذه الأحداث السابقة هي كل ما واجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فالتنكار ما زالت بقاياهم تحاول إثارة الشعب فى الدولة

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٥٧) الشماخى السر ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٥٨) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية

في مدريد ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

عن طريق الدعوة السرية التي قاموا بها بعد هزيمتهم أمام عبد الوهاب ، لأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يمارسون ذلك علنا خوفا من بطش الإمام بهم . ورأى النكار في أشهر الربيع فرصة عظيمة لكسب الانتصار والمؤيدين لهم ، ففي أشهر الربيع تكون تاهرت وما حولها مناطق رعوية مليئة بالعشب ، وإلى هذه المناطق تأتي قبائل مزاة وسدرة وغيرها للالتجاع والرعى ، وبعد انتهاء موسم رعيهم يدخل وجوههم ورؤسائهم مدينة تاهرت ، فيكرم أهلها ويكرمونهم ، ويقضون حوائجهم ثم يرتحلون بعد ذلك إلى بلادهم (٥٩) .

وإلى هذه الحقائق الهامة أشار ابن الصغير بقوله : « إن قبائل مزاة وسدرة وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيره ... وكانوا إذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤسائهم المدينة فيرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياهم ويعيرونهم فيقيمون بها إلى ظعهم » (٦٠) .

استغل النكار هذه الفرصة لتأليب هذه القبائل الوافدة على تاهرت ، وقاموا بدعوة سرية وعلى نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها فقالوا لهم « إن الأمور قد تغيرت والأحوال قد تبدلت قاضينا جائر وصاحب بيت مالنا خائن وصاحب شرطتنا فاسق وإماننا لا يغير من ذلك شيئا وقد جاء الله بكم فادخلوا إلى هذا الإمام واسألوه عن قاضيه وصاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا وأن يولى علينا خيارنا فأجابوهم إلى ما يسألون » (٦١) .

فذهب وفد من رؤساء هذه القبائل إلى عبد الوهاب وقالوا له « إن رعيتك قد ضجت من قاضيتك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك فاعزلهم عنهم وولى

(٥٩) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ١٧ ، البارون : الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٠) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ١٧ .

(٦١) نفس المصدر السابق ، ص ١٨ .

عنهم خيارهم فقال عبد الوهاب : جزاكم الله من وفد خيراً . . الأمر إليكم قدموا من رأيكم وأخروا من رأيكم » (٦٢) وبعد خروجهم من عنده استشار عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته في هذا الأمر فقالوا له إنك لو استجبت إلى مطالبهم فلا بأس أن يطلبوا منك ما هو أكثر من ذلك فيقولون لك : ه إن المسلمين قد نقموا عليك أشياء أو على ولدك فإن أجبتهم إلى ذلك شكروك وحملوك وإن آبيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ثم لا تأمن لو أجبتهم إلى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولون لك إن المسلمين في ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانتزع وردد إليهم أمرهم » (٦٣) .

وأحسن الإمام بخرج موقفه فقد وعد رؤساء سدراته ومزاةة بعزل القاضى وصاحب بيت المال والقائم بأعمال الشرطة وتولية غيرهم ، ولكنه استطاع التخلص من هذا المأزق في اليوم التالى ، فقال لهم هو ومن معه من خاصته : « أنه لا يجب عزل القاضى ولا صاحب بيت المال إلا بجرحة تظهر عليه ولا يجب عزل القضاة ببغي البيعة وسمى السعاة » (٦٤) فقالوا للإمام : لم يكن هذا اتفاقنا بالأمس وخرجوا من عنده متوجهين إلى الكدية المعروفة بكدية النكار وأقسموا على ضرورة عزل من سألوا عزلهم ومحاكمة عبد الوهاب (٦٥) .

ولم يجد عبد الوهاب بدا من محاربتهم والقضاء على حركتهم خاصة وأن الصلة أصبحت قوية بينهم وبين النكار أعدائه القدامى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن قبيلة مزاةة كما يقول ابن حوقل لها انتماء قوى للمذهب الاعتزال على رأى واصل بن عطاء (٦٦) .

وجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإنذار إلى تجمعات مزاةة

(٦٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٦٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٦٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٤ .

وسدراة ومن معهم من النكار بالالتزام بالطاعة فلم يستجيبوا له فخرج إليهم عبد الوهاب في قوات ضخمة قضت على حركتهم أما ما بقي من هذه القبائل فقد فر إلى مواطنهم (٦٧) . أما النكار فإن معظمهم انحاز إلى جبال الأوراس حيث ظلوا محصين بها حتى نهاية الدولة الرستمية (٦٨) .

ونجح عبد الوهاب في القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته الأمر الذي جعل ابن الصغير يقول : « ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك » (٦٩) .

رابعاً : عصيان قبيلة هواره :

كانت سياسة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم الحيلولة بين المصاهرات التي تقوم بين القبائل الكبرى في دولته وذلك كجزء من سياسته في تأمين الجبهة الداخلية للدولة ، وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بنفس الأسلوب الذي اتبعته هذه القبائل ، ومما يذكر في هذا الشأن أن قبائل هواره التي كانت تقيم بإزاء تاهرت ، كان لهم رؤساء مقدمون يقال لهم الأوس ويعرفون أيضاً ببني مسالة وكان لدى أحد رؤساء قبيلة لواتة ابنة جميلة ، فأراد مقدم بني مسالة أو رئيسهم أن يصاهر لواتة ، وبذا تصبح مصالح القبيلتين واحدة ويتعقد التحالف بينهما (٧٠) .

وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة هذه المصاهرة « فأرسل عبد الوهاب إلى الرجل فأحضره فأجلسه وخطب إليه ابنته فزوجه إياها فاتصل ذلك بالأوس

(٦٧) ابن الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٠ .

(٦٨) محمد بن تلويت . دولة الرستميين في تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٤ .

(٦٩) ابن الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٠ .

(٧٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٠ ، البارون . الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

فقال : عمل على تجارية خطيتها ورمى إلى تزويجها فانتزعها منى
بسلطانه » (٧١) .

وغضب مقدم الأوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت فارتحل
عنها حتى نزل بوادي هواره بينه وبين تاهرت نحواً من عشرة أميال أو أكثر ،
وانضم إليهم كثير من الخارجين على الإمام ، وبدأت هذه الجماعات من هواره
تقوم ببعض أعمال العنف ضد مواطني الدولة ، فقتلوا ولداً للبغال عند موضع
يقال له « شرات » بالقرب من نهر أبي سعيد (٧٢) ، وقام أتباع عبد الوهاب بتفقد
القتيل وذلك تبعاً لمبادئهم التي تنص على عدم محاربة خصومهم إلا إذا ثبت أنهم
استحلوا الأموال ، وقد وجدوا خاتم ولد البغال مفقوداً ، هنا كبروا وقالوا :
« قد استحلوا الأموال وحل قتالهم (بنو مسالة ومن معهم) ثم أخذوا في التهيؤ
للحرب والخروج إلى عدوهم فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق
عظيم » (٧٣)

والتقى الفريقان عند نهر أسلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب في هذه
الحرب بلاءً عظيماً ، فكان عبد الوهاب كلما نظر في اتجاه وجد فارساً يقاتل
بشجاعة فيسأل عن الفارس « فيقال له ابنك أفلح قال : لقد استحق أفلح الإمامة
فكان أول يوم عقلمت له الإمامة » (٧٤) .

وانتهت المعركة وهزمت جموع الأوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم
إلى جبل ينجان (٧٥) . وهكذا بذل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جهوداً
مضنية للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها وتمكن بفضل هذه
الجهود من القضاء على الفتن والثورات الداخلية .

(٧١) ابن الصغير : سورة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٦ .

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، الباروني : الأرهاط الرياضية ، ج ٤ ، ص ١٣٣ .

(٧٣) ابن الصغير . سورة الأئمة الرستميين ، ص ٢٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٧٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣ .

خروج الإمام للحج :

يذكر الشماخي أن الإمام عبد الوهاب - بعد أن استقرت أوضاع الدولة الرسمية اعتزم السفر لأداء فريضة الحج (٧٦) . فاستخلف ابنه أفلح على تاهرت وخرج مستصحباً زوجته وجمعاً كبيراً من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق (٧٧) ، متخذاً الطريق الصحراوية المارة بقسطلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من مدينة قايس وإلى الشمال الغربي من جبل نفوسة (٧٨) ولكن الإباضية في شرق الدولة منعو الإمام من مواصلة السفر للحج خوفاً من أن يقبض العباسيون عليه وطلبوا منه أن يستشير علماء الإباضية المشاركة في هذا الأمر . فأرسل عبد الوهاب رجلاً نفوسياً من أهل تمزدا إلى أبي عمر الربيع بن حبيب وإلى ابن عباد من علماء الإباضية المشاركة في مكة يطلب رأيهم في أمر ذهابه إلى الحج . فأجابه الربيع من كان مثلك في العناية بأمور المسلمين وحمل أماناتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث بحجة وهو حي ، وأجابه ابن عباد أن من كان على هذه الصفة فلا حج عليه لأن شرط الحج أمان الطريق فلما قدمت عليه رسله أخذ بقول الربيع فأرسل رجلاً من أهل تمزدا يحج عنه (٧٩) .

ويشك البعض في أن يكون هدف الإمام من هذه الرحلة هو الحج بدعوى أن الإمام أقام في بني زمر مدة امتدت إلى سبع سنوات ، وأن أحداثاً هامة حدثت خلال وجود عبد الوهاب في هذه المناطق ، وأنه شارك فيها بنفسه (٨٠) . وقد أثر عبد الوهاب أن يبقى في أقاليم الدولة الشرقية لينظم الأوضاع بها خاصة وأن متعلق جديدة بأكملها قد انضمت إلى الدولة الرسمية .

(٧٦) الشماخي . السمر ، ص ١٥٩ .

(٧٧) البروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

(٧٨) نفس المرجع السابق . ص ٥٥٧ .

(٧٩) الشماخي . السمر ، ص ١٥٩ .

(٨٠) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير . ص ٣٩١ .

٤ - تدعيم الجبهة الشرقية للدولة .

(١) انضمام جبل دمر للدولة الرسمية :

كان جبل دمر هو أول المناطق التي نزل بها الإمام عبد الوهاب وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ، ومع أنهم من الإباضية إلا أن استقرارهم بالقرب من إفريقية - ركيزة النفوذ العباسي في المغرب - جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرسمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين (٨١) .

نزل الإمام في ضيافة أهل الجبل أياما ، وفي أثناء ذلك دعاهم الإمام عبد الوهاب إلى الانضمام إلى دولته ، فبايعوه وانضموا إليه واعترفوا بإمامته عليهم وقدموا له البيعة مباشرة ، فولى عليهم شيخا صالحا منهم يدير شئونهم يعرف بمزار (٨٢) . وبني هناك مسجدا ومصلى ، والمسجد مشهور باسم مسجد عبد الوهاب ، وقد أقامه في موضع يقال له (ثلاث) من هذا الجبل (٨٣) .

(ب) زيارة الإمام لجبل نفوسة :

مضى الإمام بعد ذلك إلى جبل نفوسة الذي يتصل اتصالا وثيقا بجبل دمر (٨٤) . ويعتبر هذا الجبل معقلا هاما من معاقل الدولة الرسمية فأهل الجبل كلهم من الإباضية ، وهم لا يدينون بالطاعة لأحد غير إمام تاهرت وفي ذلك يقول اليعقوبي : « لا يؤدون خراجا إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم » (٨٥)

(٨١) د . سيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٥ .

(٨٢) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٩ ، الباروني - الأزهار الرياضية ، ص ١٣٧ .

(٨٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، الشماخي . السير ، ص ١٥٩ .

(٨٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ت . إسماعيل العري ، ص ١٤٥ .

(٨٥) اليعقوبي : كتاب البلدان ، ص ٣٤٦ .

ويذكر البكري أن قبائل هذا الجبل إذا تداعيت للقتال فإنها تستطيع أن تجند للحرب ستة عشر ألف مقاتل (٨٦) وهذه الكثرة العددية كان لها أثرها في الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية في بلاد المغرب .

أقام الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبع سنوات واتخذ من قرية (ميري) مقرا له وبنى بها مسجده وكان غاية في الانساع والترتيب والصناعة (٨٧) وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم جهودا ثقافية رائعة حيث عقدت حلقات الدراسة للطلاب الذين تعاقبوا على الإمام ينهلون من علمه . ويقال : إن موضوع الصلاة قد استأثر بكثير من اهتمام عبد الوهاب طيلة هذه السنوات السبع (٨٨) ولقد ظهر في جبل نفوسة جيل من العلماء الذين حملوا شعلة العلم في عصر الرستميين ، ومن هؤلاء العلماء مهدي النفوسي ، ومحمد بن يانس ، وأبو الحسن الأبدلاني ، وعمروس بن فتح ، ويعقوب بن أفلح ، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناواني ، ومعيد الجناواني (٨٩) .

(ج) حصار طرابلس :

ومن جبل نفوسة كان عبد الوهاب يراقب الأحداث المضطربة في طرابلس التي استشرت فيها حوادث الشعب ، نتيجة للخلافات القبلية التقليدية بين القيسية والبنية والتي حاول الأمير الأغلب إبراهيم بن الأغلب معالجتها بشتى الوسائل حتى أنه استعان بمجتد مصر في قمع هذه الفتن دون جدوى . فلجأ عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب - نائب طرابلس - إلى الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف المتأزم ، ولكن هذه الجهود فشلت هي الأخرى وعمت الفوضى أنحاء طرابلس ،

(٨٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب . ص ٩ .

(٨٧) الشماخي : السير ، ص ١٥٩ ، الباروي : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٨٨) النرجسي . طبقات الإياضية . مخطوط . ورقة ٣٩ ، الباروي : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، على يحيى مصر : الإياضية في موكب التاريخ ، ج ٢ ، القسم الأول ص ٨٧ .

(٨٩) د . السيد عبد العزيز مسة . شعب كبير . ص ٥٧٥ .

وقام البربر بثورة على جند المدينة وعلى العرب عموما بما فيهم نواب بنى الأغلب فنارت هواره في وجه الأغالبة (٩٠) . ويدعو أن الذي شجعها على ذلك ، وجود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم في جبل نفوسة ، القريب من طرابلس (٩١) . فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون القدامى لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام (٩٢) .

خرج جند الأغالبة من طرابلس لإخماد ثورة هواره ، والتقى الجند بمجموع هواره عند وادي الرمل (٩٣) ، ولكن هواره استطاعت أن تسحق جند الأغالبة وجعلتهم يفرون أمامها إلى طرابلس وتبعهم هواره حتى دخلت طرابلس وهدمت أسوارها ، ويصور ابن الأثير هذه المعركة بقوله : « فنارت هواره بطرابلس فخرج الجند والتقوا واقتتلوا فهزم الجند إلى المدينة فتبعهم هواره ، فخرج الجند هارين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها » (٩٤) .

وصلت أنباء الثورة إلى مسامع إبراهيم بن الأغلب فسر إليها ابنه أبا العباس عبد الله في ثلاثة عشر ألف جندي ، وتمكن عبد الله من إلحاق الهزيمة بهواره ، وقتل منها عددا كبيرا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها (٩٥) . ورأى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم أن هزيمة هواره على هذا النحو اعتداء

(٩٠) د . محمود إسماعيل عبد الرزاق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، مكتبة سعيد رافت ١٩٧٢ ، ص ٣٤ .

(٩١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٥ .

(٩٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٩ ، ابن سعيد : كتاب الجغرافيا : إسماعيل العربي ، ص ١٤٥ .

(٩٣) الشماخي ، السور ، ص ١٦٠ .

(٩٤) ابن الأثير الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٧ .

(٩٥) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

صاحح من الأغالبة على مواطني دولته فأعد الجيوش وجمع القوات وتقدم بها لحصار طرابلس ، وتمكن عبد الوهاب من فرض حصار قوى على المدينة سنة (١٩٦ هـ / ٨١١ م) (٩٦) . وقد وجد عبد الوهاب متاعب كثيرة في أثناء الحصار بسبب عدم التكتم على الخطط العسكرية في معسكره الأمر الذي جعله يكتفى بمشورة وزيره مزوار بن عمران فقط دون غيره من القادة (٩٧) . ورغم هذه المتاعب التي عانى منها عبد الوهاب فإن أبا العباس عبد الله لم يجرؤ على فتح أبواب المنهنة والخروج منها للقاء عبد الوهاب ، وإنما سد أبواب المدينة كلها ، وكان يقاتل من باب واحد هو باب هواره ، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذي كان قد عهد بالإمارة إلى ابنه عبد الله ، وقام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بأخذ المهود والمواثيق على الجند ، وأرسل إلى أخيه عبد الله رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه (٩٨) ولكن الرسول والرسالة وقما في أيدي جند عبد الوهاب ويروى ذلك ابن الأثير فيقول : « فأخذ البربر الرسول والكتاب ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فأمر بأن ينادى عبد الله بن إبراهيم بموت أبيه (٩٩) وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بدا من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب ، وجاءت شروط هذا الصلح اعترافا من دولة الأغالبة - الممثل الشرعي للخلافة العباسية في بلاد المغرب - بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس إذ كانت أهم بنود هذا الصلح أن يكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس والبحر . أما ما كان خارجا على ذلك فهو لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٠٠) .

(٩٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، الشماخي . السير ، ص ١٦٠ .

(٩٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(٩٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٧٠ .

(٩٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(١٠٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

وبهذه المعاهدة قوى مركز الإمام الرستمي عبد الوهاب في الجهات الشرقية للدولة الرستمية ، ولم يتوان هذا الإمام عن انتهاز أية فرصة لتوطيد دعائم دولته فنراه بعد ما صالح الأغالبة في طرابلس ، يتطلع إلى المناطق التي يسود فيها المذهب الإباضي ليضمها إلى الدولة ، ويعين الولاة والعمال عليها من قبله ، فأرسل سلمة بن قطفان الزواغي إلى قابس ، فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى استولى عليها ، وضمها إلى الدولة الرستمية وكانت ضمن نفوذ الأغالبة ، ثم تقدم ذلك القائد إلى ما يلي قابس من القرى والجبال والقبائل يخضعها لسلطان الرستميين كمطماطة ، وزنزقة ، ودمر وزواغة وجزيرة جربة (١٠١) .

وأخذ الإمام عبد الوهاب في رصد عماله على هذه النواحي الجديدة وغيرها مما بسط الرستميون نفوذهم عليها . فجعل سلام بن عمرو اللواتي على مدينة سرت ونواحيها ، وسلمة بن قطفان الزواغي على مدينة قابس ومحمد بن إسحاق الحزري على نفزاوة ، ووكيل بن دراج النفوسى على مدينة ققصة أما جارون بن القمري ، ونهدى بن عاصم الزناتي وبيزان اليزمرتنى المزاقي فيرجح أنهم كانوا عمالا للإمام عبد الوهاب على غدامس وزويلة وتوزر (١٠٢) .

وقصارى القول فإن عبد الوهاب استطاع عن طريق المعاهدة التي عقدت بينه وبين ألى العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أن يفرض واقعا جديدا على الأغالبة ، فجعل نخط الحدود في دولته يسير مع خط المناطق التي ينتشر فيها المذهب الإباضي والمعروف أن المذهب الإباضي قد انتشر في مناطق كثيرة من جنوب إفريقيا وأن هذه المناطق من جنوب إفريقيا تذكر جبال الأوارس موطن قبائل هواره ومكناسة ، يقول البكري : « جبل أوارس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هواره ومكناسة وهم إباضية » (١٠٣) .

(١٠١) الشماخي : السمر ، ص ١٦١ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٠٢) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥١٣ .

(١٠٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ١٤٤ .

أما شمال الأوارس حتى جنوب مدينة بغاية فقد كانت فيه منازل مزاةة التي قال عنها الإمام عبد الوهاب « ما قامت هذه الدولة الرسمية إلا بسيف نفوسة وأموال مزاةة » (١٠٤) . وعندما تحدث البكري عن مدينة بغاية قال مؤكداً الوجود الإباضي هناك : « ويسكن فحص هذه المدينة قبائل مزاةة وضريسة وكلهم إباضية » (١٠٥) وعند ابن الصغير المالكي الدليل القاطع على خضوع هذه المناطق للنقوذ الرسمي وامتداد سلطاتهم الإدارية حتى هناك فعندما مات قاضي جبل الأوارس اختار مجلس الشورى لهذا المنصب القاضي محكم الهواري وكان أحد الشخصيات البارزة في جبل الأوارس . يقول ابن الصغير : « وأجمع رأيهم (مجلس الشورى) على محكم الهواري الساكن بجبل أوارس فأثروا إلى أفلق بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتض أحدا منا وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل أوارس » (١٠٦) .

ويتضح من هذه الحقائق التاريخية أن خط الحدود الشرقية للدولة الرسمية يبتدىء شرقاً من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينة طرابلس والساحل فانها يقعان تحت النقوذ الأغلب ، وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيمر على قفصة وجبال الأوارس وتهودة ، وبعدها يرتفع خط الحدود إلى الشمال تاركاً أراضي إمارتي هاز ومتيجة حيث ينتهي في شرق شرشال على ساحل البحر ، أما حد الدولة الرسمية الشمالي فيمتد على ساحل البحر من شرق شرشال إلى غرب وهران متضمناً مدناً ساحلية هامة هي شرشال وتنس ومستغانم ووهران . أما الحدود الغربية للدولة فتبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب مدينة

(١٠٤) أبو زكرياء . السيرة وأخبار الأئمة . مخطوط . ورقة ٣١ . ب

(١٠٥) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب . ص ١٤٤ ، ديور . تاريخ المغرب الكبير ، ص ٣٠ .

(١٠٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين و ثابرت ، ص ٢٣ . ٢٤ ، البرادي : الجواهر المفضة ، مخطوط ، ورقة ٨٩ ، مع اختلاف في بعض الألفاظ

ففيف ، ومدينة بنى وسيف ، ثم ننحدر المنحدر حتى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من نطاق الدولة الرسمية لأنها تخضع لنفوذ الأدارسة ، وفوق ذلك كله تتمتع الدولة الرسمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى في الجنوب إلى ما بعد وارجلان وغدامس وفزان (١٠٧) .

• عودة الإمام إلى تاهرت :

وبعد أن وطد الإمام عبد الوهاب النفوذ الرسمي في إقليم طرابلس وكثير من جهات جنوب إفريقية عزم على العودة إلى تاهرت ، فطلب إليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولى عليهم رجلا وطلبوا أن يكون هذا الرجل السمع بن أبى الخطاب المعافري ، وزير الإمام عبد الوهاب ، ورغم أن السمع كان عزيزا على الإمام ولا يريد أن يفارقه ، فقد نزل الإمام على رغبتهم وترك السمع واليا على إقليم طرابلس بما فيه جبل نفوسة ، ومضى الإمام واحدا إلى تاهرت (١٠٨) .

وظل السمع واليا على حيز طرابلس فأحسن السيرة ، وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامه بحيث لم يكروا عليه شيئا في مدة ولايته كلها لا يخرج عن رأى الإمام ولا يخالف له أمراً (١٠٩) . واستطاع السمع الاحتفاظ بولاء أهالي جبل نفوسة الديني والسياسي للأئمة في تاهرت (١١٠) . فلما حضرت السمع الوفاة اجتمع وجوه أصحابه وقالوا له : « أومنا ومرنا بأمرك يرحمك الله فإننا مطيعوك في حياتك وبعد وفاتك ... فقال

(١٠٧) دبور . تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، والجبلالي . تاريخ الجزائر العام ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، أحمد توفيق المذلي . كتاب الجزائر ، الطبعة العربية في الجزائر ١٣٥٠ هـ ، ص ٢١ ، انظر الخريطة .

(١٠٨) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مطبوع . ورقة ٣٠ ، الشلحي : السير ، ص ١٦١ .

(١٠٩) الباروني : الأهرار الرباعية ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(١١٠) د . إحسان عباس . تاريخ ليبيا ، ص ٦٨ .

السمح أوصيكم بتقوى الله والاتباع لما أمركم به والانتفاء عما رجركم عنه وطاعة إمامكم عبد الوهاب وتأيينه ما دام مستقيما على الحق الذي عليه وجهاد من خالفهم» (١١١).

وبعد وفاة السمع سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمع (١١٢) ويبدو أن خلفا هذا قد دعا لنفسه على أساس أنه من أبناء ألى الخطاب عبد الأعلى بن السمع الماعزى الذى كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرسمية . ويؤيد ذلك أن خلفا لم يكتف بولايته على الجبل فحسب بل إنه ومؤيديه أرسلوا الكتب إلى ألى سفيان محبوب بن الرحيل وهو من أئمة الإباضية المشاورة يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرسمية يدعوى أنهم يعملون عن تاهرت (١١٣).

رفض الإمام عبد الوهاب ولاية خلف على حيز طرابلس وأرسل كتابا لأهل الجبل وبين لهم فساد ولاية خلف ويقول فى كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أمير المؤمنين عبد الوهاب) إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس

« أما بعد فإني آمركم بتقوى الله واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه . وقد بلغنى ما كتبتم به إلى من وفاة السمع واستحلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك .

(١١١) الشماخى . السير ، ص ١٦٥

(١١٢) الباروى - الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٤٩

(١١٣) الدرجينى طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣١ ، الباروى الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٥١

فإن من ولا خلفا من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبا من توليته فقد أصاب فإذا أناكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمل منكم السمع إلى عماله التي ولي عليها إلا خلف بن السمع حتى يأتيه أمرى وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة عليكم تفلحون » (١١٤) .

ورفض خلف بن السمع ومن معه الاستجابة لأوامر الإمام وأعلنوا العصيان عليه ، ورأى الإمام عبد الوهاب أخطار الانقسام تهدد دولته وكان لهذا الإقليم من أقاليم دولته أثره في دعمها ماديا وعسكريا ، لذا سارع الإمام إلى تعيين أيوب بن العباس ، وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكوت والطاعة (١١٥) ، وبعد وفاة أيوب بن عباس تولى أبو عبيدة عبد الحميد الجنائزى أمر جبل نفوسة ، وفي أيامه استفحل شأن خلف وأتباعه ، وأخذ في شن الغارات على الأطراف ، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له في حرب خلف ، ولكن الإمام أشار على أبي عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه بابا للقتال ، فهدأت حركة خلف بن السمع مرة ثانية . وظل أبو عبيدة « قائما بأموره في حيزه مواصلا للإمام بما يجب من المال » (١١٦) .

وهكذا نجح عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم في توطيد الدولة الرسمية وفي الوصول بها إلى أوج اتساعها ، وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان يقول عنها ابن الصغير : « وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفلة ما لم يجتمع لأحد قبله ، ولقد حكى لى وجماعة من الناس أنه

(١١٤) أبو بكره : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٤ ب ، ٢٥ أ . (ورد بنص الرسالة كلمات مثل : ولا ، ورضا ، أبا ، راجع : . وهي هكذا في نص المخطوط ، وقد ذكر البارونى الرسالة مع اختلاف طفيف في اللفظ) ، (البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٥٠)

(١١٥) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣١ . البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٥٢

(١١٦) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٥٧

قد بلغت محته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملاً المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان (١١٧) .

وظل المهتوم سائدا في أنحاء الدولة الرستمية حتى توفي الإمام عبد الوهاب سنة (٢١١ هـ / ٨٢٦ م) بعد أن أمضى في الإمامة أربعين سنة (١١٨) .

(١١٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٧ .

(١١٨) الهروي . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٣ . (يرى ابن عذارى أن إمامة عبد الوهاب استمرت عشرين سنة توفي سنة ١٨٨ هـ لأنه تولى الإمامة سنة ١٦٨ هـ ، ويروي آخرون أنه توفي سنة ٢٠٨ هـ ، محمد بن تلويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت) صحيفة معهد دراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٨ ، د السيد عبد العزيز ساء . العرب الكبير ، ص ٥٥٧ .

(ب) ازدهار الدولة الرستمية في عهد أفلح بن عبد الوهاب
(٢١١ هـ / ٨٢٦ م - ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)

١ - إمامة أفلح بن عبد الوهاب :

تولى أفلح بن عبد الوهاب الإمامة بعد وفاة والده مباشرة ، خوفاً من تجدد الخلاف حول مسألة الإمامة كما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن بن رستم ، وكان أفلح مرشحاً للإمامة كما يقول الباروني : « بأعماله العالية وعلومه ومداركه الواسعة فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة قطعا للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح » (١١٩) .

وكانت أكثر الصفات التي جعلت أفلح مرشحاً للإمامة من الجميع ومن قبل والده عبد الوهاب بصفة خاصة الشجاعة التي تميز بها وأصبحت غالبية عليه ، لذا فقد أوصى عبد الوهاب بأن يكون أفلح ولي عهده في الإمامة وجاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بنى مسالة وكان أفلح مشتركاً معه في هذه المعركة ، وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعته فقال لمن معه : « لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة » (١٢٠) .

والإباضية هنا مثل أهل السنة عندما بشرطون في اختيار الإمام ، العلم في وقت السلم ، والشجاعة في وقت الحرب (١٢١) ، وقد كانت شجاعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب سبباً في إنهاء كثير من مشاكل الدولة الرستمية وحسمها لصالح والده عبد الوهاب ، ومن ذلك على سبيل المثال قتله ليزيد بن قندين زعيم النكار عندما هاجم تاهرت ، وبمقتله لم تقم للنكار قائمة بعد ذلك .

(١١٩) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٦ . (ويذكر أبو ركرياء . أن أفلح كان يُسمى ميمون) ، (أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٢٦) .

(١٢٠) ابن الصمير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٢ .

(١٢١) د . سعد رغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي : ص ٢٢ .

وكان الإمام عبد الوهاب قد حرص على إعداد أفلح ليتحمل مسؤولية الحكم إذا ما اختير من بعده إماما ، وحتى يتمرس أفلح بأساليب الحكم والإدارة ، فقد ترك له عبد الوهاب إدارة شؤون الدولة الرستمية من العاصمة تاهرت في أثناء غيابه في جهات الدولة الشرقية ، وقد استفاد أفلح من هذه الفترة كثيرا ، فمن طريق احتكاكه بالناس وتعامله معهم ، عرفوا قدره ، وخبروا مدى علمه ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هي الفترة الوحيدة التي أدار فيها أفلح شؤون الدولة وإنما أدار شؤون الدولة مرة أخرى قبل وفاة والده عبد الوهاب بهستوات ، لذا فعندما مات والده ، أحس الجميع أنه أنسب الشخصيات لهذا المنصب الخطير في الدولة ، فتمسكوا به إماما لهم (١٢٢) ويحدد ابن الصغير هذه الفترة بأنها كانت في أعقاب آخر أعمال الإمام عبد الوهاب الحربية والتي حارب فيها بنى مسألة وقضى على تمردهم وفي ذلك يقول : « ورشح أفلح للإمارة واتقطع إليه المنقطعون ودارت إليه الخواص والعطا من تحت يديه ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى احترمت عبد الوهاب منيته ، فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلح » (١٢٣) وابن الصغير في هذا النص استخدم كلمة الإمارة مشيرا إلى الفترة التي تولى فيها أمر الدولة الرستمية في أواخر عهد والده ، فلما توفي عبد الوهاب صارت الخلافة من نصيب أفلح .

وجدير بالملاحظة هنا ، أن إمارة أفلح بن عبد الوهاب على هذا النحو تعد خروجاً على مبدأ الانتخاب العام الذي نادى به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج . فقد رفض الخوارج مبدأ التقنين أو الوراثة . وطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أي الانتخاب ، على أن يكون المرشح من أي جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا (١٢٤) .

(١٢٢) دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

(١٢٣) ابن الصغير ، سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٣ .

(١٢٤) د . إبراهيم العلوي ، بلاد الجزائر ، ص ٢٠١ .

ويعتبر خروج الإباضية في الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى نوعاً من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظاً على كيان الدولة من التفتت والانقسام ، من جراء الفتن والقتال التي كانت تتعرض لها من حين لآخر ، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجري على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجري عليها سائر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب وهي احترام مبدأ الوراثة (١٢٥) .

وقد رضى الجميع عن أفلح ، فلما كادت أخبار تولية الإمامة تنتشر حتى جاءتته كتب العمال وصلاحاء المسلمين من جميع الجهات والولايات تعلن مبايعتها له ، ومن هذه الكتب كتاب أبي عبيدة عبد الحميد الجناواني عامله على جبل نفوسة (١٢٦) .

وقد تعرض أفلح في مطلع عهده لاختبارات أراد الشراة (١٢٧) منها أن يعرفوا مدى صلاحية أفلح لمنصب الإمامة ، ومن ذلك أن قاضياً من قضاة أبيه مات في أيامه ، فاجتمع الشراة إليه فسألوه أن يولى منصب القضاء من يستحقه فقال لهم : « اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم ثم أعلموني به أجيزه لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم » (١٢٨) .

فاختاروا لهذا المنصب محكم الموارى الساكن بجبل الأوراس وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك ، فقال أفلح : « ويحكم دعوتكم إلى رجل كما وصفتم في ورعه ودينه ولاكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لدى القدر قدره ولا لدى الشرف

(١٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٢٦) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(١٢٧) (الشراة كما يقول الباروني جماعة تتكون من أربعين رجلاً فما فرق ذلك اشترى آخرتهم بنسبهم بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على إنكار المنكر والأمر بالمعروف بنون مبالاة ولا خوف من الموت ولو أدى ذلك بهم إلى القتال هم دائماً يمتحنون الأئمة والعمال بما يستدلون به على سرائرهم وخفايا مقاصدهم وأعمالهم ويحمدون سيرتهم أو يذمونها) (الباروني . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢١٠) .

(١٢٨) ابن الصمير سيرة الأئمة الرستميين في ناهرت ، ص ٢٢ .

شرفه وإن كان ليس أحدكم يحب أن يظلم ولا يظلم ولاكن تحبون أن يجرى فيكم الحق على وجهها بلا نقص لأغراضكم ولا امتحان لأنفسكم قالوا : فإنا لا نرضى لقضائنا أحدا غيره » (١٢٩) .

وقد أثبتت الأحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الأمور فعندما ذهب وفد الشراة إلى محكم لاختياره باختياره لمنصب القضاء قال لهم : « إن الحق مر أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء إلا كرها وأنتم مرفهون أبناء نعم وغيرى أحب إليكم منى وقد نصحتكم فاقبلوا نصيحتى » (١٣٠) ولكنهم أصروا على اختياره فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء ، ومن القضايا المشهورة التى عرضت على محكم الهوارى وأثبتت صحة رأى أفلح فى محكم الهوارى ، قضية كان فيها خصمان الأول : أبو العباس أخو الإمام أفلح - وكان من المتمسكين باختيار محكم لمنصب القضاء - والثانى صهر الإمام أفلح ، فما كان من محكم إلا أن ساوى بينهما فى مجلس القضاء ، وكان أبو العباس يظن أن محكما سيحابيه ويفضله على خصمه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فخرج أبو العباس غاضبا حتى دخل على أخيه أفلح وقال له : « نزل لى من هذا الهوارى الشر الجافى ما لم ينزل بأحد » (١٣١) . فقال أفلح : « يا أبا العباس قد كنت أعلمتلك بهذا من قبل والصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر ولو فعل غير هذا لكان مدهانا فالتصل ذلك من كلامه بوجوه الإباضية فأعجبهم وأسروا به » (١٣٢) .

وبالف أفلح فى إظهار التواضع ، إذ رأى أن شخصيته كإمام يحط الأنظار من الجميع ، ومن ذلك أن وفدا من نفوسة نزلوا ضيوفا عليه « ولما حضر الطعام وقف على رؤوسهم بالقنديل وهم يأكلون فمد له واحد منهم لقمة مما بين أيديهم

(١٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٢٦ (ولاكن هكنا فى الأصل) .

(١٣٠) ابن الصغر : سيرة الأئمة الرسيد فى تاهرت ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(١٣٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

باتفاق مع رفقائه ولما كانت إحدى يديه رحمه الله مشغولة بالقنديل ولم يكن من الأدب قبوله اللقمة بيد واحدة وضع القنديل فوق ركبته حتى لا يختفى عنهم نوره وتلقى اللقمة بيديه ولم ينكر فشكروه على ذلك » (١٣٣) .

وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع ، وعن هذا الرضا والتقدير تحدث ابن الصغير فقال : « فلما ولي أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأ له من البنين ما لم يكن لغيره من قبله وطار له الصيت ... ولم يكن الشرة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشائه » (١٣٤) .

٢ - سياسة الإمام أفلح الداخلية :

تركه الإمام عبد الوهاب دولة قوية مستقرة الدعائم متينة البنيان وكان أفلح بن عبد الوهاب الذي تولى الأمر بعده يدرك هذه الحقيقة الهامة ويدرك أن مجتمع دولته الذي يغلب عليه النظام القبلي في حاجة إلى سياسة خاصة ولم يكن أفلح بن عبد الوهاب أقل من والده حنكة ودهاء ، فاستطاع بتعاليم أبيه وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الأمور في الدولة (١٣٥) .

ومن الأساليب التي لجأ إلى استخدامها سياسة إضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الرشاية بينها فقد كانت القبائل المنتشرة حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة لما اكتسبته من الأموال بسبب الرخاء الاقتصادي الذي عم الدولة ، واتخذت هذه القبائل العبيد والخيول حتى خاف أن تجتمع هذه القبائل عليه أو تؤثر على مكانته ، لذا عمد إلى استخدام جهاز من الأعوان أشبه ما يكون بجهاز المخابرات ، ووظيفة هؤلاء الأعوان إلقاء الأحقاد والفتن بين القبائل الكبرى

(١٣٣) الباروني ، الأرهاق الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) ابن الصغير ، سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٢ .

(١٣٥) محمد بن تلويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ص ١١٩ .

حول تاهرت (١٣٦) . وقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح في إضعاف مركز هذه القبائل وإبطال ما قد يقوم بينها من تحالف يقول ابن الصغير : « فلما رأى ذلك (أفلح بن عبد الوهاب) أوش ما بين كل قبيلة ومجاورها فأرش بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلق من أن يعين صاحبها عليها » (١٣٧) .

ولم يأل أفلق جهدا في القضاء على ثورة خلف بن السمع تلك الثورة التي كانت تمت في عهد الدولة من أيام والده عبد الوهاب ، وبعد تولى أفلق منصب الإمامة وصلته من أبي عبد الحميد عامله على جبل نفوسة رسالة يطلب فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمع للقضاء على حركته (١٣٨) ، ولكن أفلق لم ير هذا الرأي وأمر أبا عبيدة أن يساهم خلفا ويلاطفه ، ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطد الأمن وتحقق السلم . ولكن خلفا ظن ذلك ضعفا من الإمام وعامله فاتجه بأتباعه إلى ناحية « نمتى » وما يليها شرقا وهناك استطاع تخطف أن يجند جيشا ضخما تقدم به قاصدا ناحية « جازو » فخرج إليه أبو عبيدة والتقى بطليعة من ملاحم جيش خلف كانت قد أغارت على قرية « أدرف » من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عشرة رجال ، ولم يصمد رجال خلف طويلا أمام أبي عبيدة ففروا عائدين إلى خلف الذي انسحب بهم من حيث أتى (١٣٩) .

وفي إطار سياسة الملاطفة التي أمر أفلق أبا عبيدة أن يلتزم بها أرسل أبو عبيدة كتابا إلى خلف يدعو به إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التي هو

(١٣٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٧ .

(١٣٧) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٣٨) الفرجاني : طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ، الباروني : الأهرار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(١٣٩) الفرجاني : طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ، الباروني : الأهرار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

في ذلك يقول أبو عبيدة : « وإذا نزعنا يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزي وما بال الحرب » (١٤٠) .

ورغم هذه المحاولات من جانب أبي عبيدة فإن خلفاً استعد لجولة ثانية مع أبي عبيدة فخرج إليه بعد سنة في أربعين ألف جندي وقامت بقايا النكار من أتباع يزيد بن فندين بمحاولات لصرف أبي عبيدة عن حرب خلف ، ودعوه إلى خلع طاعته لأفطح بن عبد الوهاب ، ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة ، كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبي عبيدة إلى خلع الإمام أفطح والدخول في طاعة خلف بن السمح ، ولم يجد أبو عبيدة بدا من لقاء خلف مرة ثانية رغم قلة عدد قواته ، فاستند أبو عبيدة إلى الجبل والقرب من جادو دارت بينه وبين خلف معركة انتصر فيها أبو عبيدة عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١ هـ وفر خلف من المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كثيرة (١٤١) .

ولم يرتدع خلف بن السمح إلا على يد العباس بن أيوب الذي تولى شؤون جبل نفوسة بعد وفاة أبي عبيدة ودارت بين العباس وخلف معركة قاصلة عند موضع « فاغيس » بالقرب من « تمى » ورغم ما يذكره الشماخي من ضعف شوكة خلف بسبب هذه الحرب ، فإن فرقة الخلفية أتباع خلف بن السمح بن أبي الخطاب المعافري - ظلت حية بين فرق الإباضية الأخرى في إقليم طرابلس وجبل نفوسة (١٤٢) .

ومن المشكلات الداخلية التي واجهت أفطح بن عبد الوهاب في جبل نفوسة ، خروج فرج النفوسى المعروف بنفات بن نصر عن طاعة الإمام أفطح ،

(١٤٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٨

(١٤١) المارون الأزهري الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٨ - ١٧٣ (ويذكر الدرجي أن خلفاً ابن السمح كان في أربعة آلاف وأن أبا عبيدة كان في ستمائة ، وهذه الأعداد هي الأقرب إلى الصحة لأنها تتناسب وطاقة جبل نفوسة ، الدرجي . طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٣)

(١٤٢) الشماخي السير ، ص ١٨٧ ، د سعد علون عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ص ٣٩٣ ، ٣٩٤

وطعنه في الأئمة الرستميين ، وكان نفات هذا من إحدى القرى الغربية القريبة من قنطرة في جبل نفوسة ، وقد وفد إلى تاهرت لتلقي العلم في صحبة صديقه سعد بن أبي يونس الذي كان والده عاملاً في قنطرة من قبل الإمام أفلح بن عبد الوهاب وفي تاهرت ارتادا ممأ مجالس الإمام أفلح وغيرها من المجالس العلمية وأصبحا من الشخصيات المعروفة لدى الإمام وغيره من العلماء . وبعد وفاة والد سعد قرر أفلح - بعد أن شاور أهل الرأي - أن يتولى سعد عمل قنطرة خلفاً لوالده لما لمسه في سعد من الصلابة في الدين وحسن التجربة ، والوقوف عند مناهي الشرع (١٤٣) . فأوغر ذلك صدر نفات على الإمام ، فما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الإمام وأشهر الطعن فيه قاللاً : « إنه (أفلح) أضاع أمور المسلمين ويزيد في الخلقة إذا مشا ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد ويصلى بالأشبور » (١٤٤) .

يضاف إلى ذلك أن ثقاتاً خالف المسلمين كما يقول الباروني في حدة أمور منها :

- ١ - قوله إن الله هو الدهر الدائم .
- ٢ - انكاره الخطية في صلاة الجمعة وادعاؤه أنها بدعة وضلال .
- ٣ - انكاره استعمال الإمام للعمال والسعاة في جباية الحقوق الشرعية ، ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا .
- ٤ - قوله ان ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ لأب .
- ٥ - وقوله ان المضطر بالجوع لا يمضى بيع ماله إذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته .

(١٤٣) الترجمي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٤ ، الباروني . الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١٤٤) الترجمي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٥ .

٦ - وقوله ان الفقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر (١٤٥) .

ولما بلغ الإمام خبر نفات وانتقاده عليه قال ليأت إلينا نفات فيوضح لنا ما أنكره منا فإن كان حقاً قبلناه وإن كان باطلاً (فاية) فلما سمع نفات ذلك وعلم بطلان حجته قال إن كلمة (فاية) من السلطان هي القتل عينه فإلى أين أذهب وبقي على ذلك والإمام لم يأذن فيه بشئ والعمال لم يتجاسروا على معاملته بسوء انتظارا لإذن الإمام فيما يراه من الحكم إلى أن شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقده فكتب عمال الإمام الذين بلغهم خبره إليه ببيان حاله ومسائله التي تخالف فيها (١٤٦) .

والنص السابق يبرز لنا حقيقة هامة تندرج في المبدأ الهام الذي سار عليه أفلح بن عبد الوهاب متأسياً بمن سبقه من الأئمة الرستمين ألا وهو مبدأ احترام حرية الفكر والرأى لسائر الأفراد في الدولة ، وقد رأينا قبل ذلك عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يناقش الواصلية ويفند آراءهم ويفسح المجال للمناقشة معهم على كافة المستويات ، وبنفس الطريقة والأسلوب يدعو أفلح نفاتا لعرض أفكاره أمامه فيما أن يقتنع الإمام ، وإما أن يقنع الإمام نفاتا .

وخوفاً على ما قد تحدثه آراء نفات من بليلة بين العامة فقد بعث أفلح بالرسائل إلى العمال كي يقرؤنها على العامة لتحذيرهم من آراء نفات ، وفي نفس الوقت بعث إلى نفات برسالة أخيرة تشير إلى انتهاء مرحلة اللين معه (١٤٧) . فخاف نفات على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك (١٤٨) . وظل هناك في جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بآراء نفات بن

(١٤٥) الباروني : الأذهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ . (ويقول الدرجيني فيما أنكره نفات ابن نصر) وله مسائل انتحلها لا أصل لها منها زعمه أن الخطبة بدعة ومها قوله أن ابن الأخ الشقيق أولى بالمراث من الأخوة من الأب وأسمهم بمحبوبهم ، الدرجيني . طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٣٥) .

(١٤٦) الباروني : الأذهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٩٩ .

(١٤٧) النظر القسم الخاص بالملاحق وفيه نص الرسالة

(١٤٨) الباروني : الأذهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

نصر وظلوا يحملونها ولذا عرفوا بالنعانية (١٤٩) .

وعن طريق احترام أفلح لبدا حرية الفكر والرأى في دولته استطاع أيضا أن يجذب الواصلية ويستميلهم إلى جانبه ، بعد أن كانوا أعداء لوالده بالأمس ، فأصبح رقيسا للواصلية إلى جانب كونه رأسا للإباضية والصفيرية ونجح بهذا في احتواء هذه الجماعات وفي ذلك يقول البكرى : « وكان ميسون (أفلح بن عبد الوهاب) رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفيرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة » (١٥٠) .

وتدعيما لأركان الدولة ظل الإمام أفلح يكتب الكتب إلى العمال الذين يقومون بموهرهم في نقلها إلى العامة ، وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله ، واتباع آثار السلف الصالح وأن يقوموا لله بالعدل في عياده وبلاده (١٥١) . وكان لهذه الرسائل أثرها في تهدئة الأحوال في الدولة ، حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرسمية .

٣ - مظاهر ازدهار الدولة في عهد أفلح بن عبد الوهاب :

ساد الهدوء في بلاد الرستميين ، ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها ، وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر في حياة الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي شجع في ملكه وأخذ في بناء القصور واتخذ لها أبوابا من الحديد ، وبنى الخفاف وأطعم فيها في أيام الجفاف ، وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق ، (١٥٢) .

أما البلاد فقد حققت بأنواع التجارات التي عادت على الناس بأرباح

(١٤٩) د . السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ، ص ٥٥٨

(١٥٠) البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٢ ، ٦٨ .

(١٥١) البكرى . الأزهار الرباضية ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(١٥٢) ابن الصغور : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرب ، ص ٢٦ .

وعيرة ، أنفقوها في البناء والعمارة ، وتنافس الناس في البناء ، حتى ابتنوا القصور والضياح خارج تاهرت وشقوا لها الأنهر لحمل الماء إليها ، واتخذ أغنياء تاهرت لأنفسهم قصورا غاية في الأبهة والعظمة ، ذكر منها ابن الصغير قصري إبان وحمويه باملاق ، وقصر عبد الواحد الذي كان معروفا باسمه حتى أيام ابن الصغير (١٥٣) .

وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعها ، ودقة النظام بها الأمر الذي دفعه إلى وصف إبان وحمويه فيقول : « ولقد حدثني بعض من أئق به أن إبان وحمويه خرجا يوما إلى قصورهما متنزهين ومعهما جماعة من إخوانهما فذكر بعضهم أنه قال : لما أشرفنا على القصرين سبق بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدومهما قال فتشوق من كان بالقصرين إليهما فوالله ما رأيت شرافة من القصرين إلا وعليها ثوب أحمر وأصفر على الجدار كالبدور » (١٥٤) .

وإلى جانب هذه القصور الضخمة كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حتى « العدو » وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربا من بطش الأغالة ببناء حبيهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم « المدينة العامرة » (١٥٥) .

وكان لعجم الفرس دورهم في إثراء الدولة الرستمية وازدهارها ، عن طريق التجارة التي كانوا يمارسونها وقد رأينا أحدهم ، وقد ابتنى سوقا تجارية عرفت باسمه ، وهي سوق ابن وردة ، وكذلك انتشرت قصور العجم في أنحاء تاهرت (١٥٦) . وصارت مؤسساتهم التجارية تكون جزءا هاما من اقتصاديات الدولة الرستمية .

(١٥٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٦ .

(١٥٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(١٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(١٥٦) المصدر السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، (وعجم الفرس هنا غير عجم البلد وهم من الألفارقة بقايا الفينيقيين واللاتين) .

ولم تكن مظاهر الازدهار هذه قاصرة على تاهرت قائمة فيها وإنما انتقلت إلى سائر جهات الدولة ، فنالت القبائل حظها من الثروة ، وظهرت عليها آثار الرخاء ، يقول ابن الصغير : « وانتشرت القبائل وعمرت العماثر وكثرت الأموال بأيديهم (١٥٧) ، ويقول في موضع آخر : « وأمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواجز والبادى » (١٥٨) .

كما نالت الدولة أيضا حظها من الازدهار الثقافي فأصبحت تاهرت مركزا ثقافيا هاما كغيره من المراكز الثقافية الإسلامية ، فعرف الرستميون الثقافة ونبغوا في مناحيها ، وخصوصا الثقافة الدينية لأن الأئمة الإباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم ومبادئهم بالحجة الدامغة والدليل القوى (١٥٩) . لذا فقد امتلأت مساجد تاهرت بطلاب العلم يتلقونه على أيدي كبار علماء الإباضية في أصول الدين والشرعية والرياضات والطب والكيمياء ، والتنجيم ، وشاركت المرأة الرستمية في هذه النهضة الثقافية ، فكانت أخت الإمام أفلح ممن نبغ في علم الحساب والفلك والتنجيم . بل إن أفلح نفسه كان ممن ضربوا في زحمة كل فن من فنون العلم ، فنبغ في الأوب وقال الشعر وقد أورد الباروني لأفلح قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتا يدعو فيها إلى الإقبال على العلوم الدينية (١٦٠) نذكر منها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحى به ذكرهم طول الزمان وقد
برك أشخاصهم روحا وأبكارا

(١٥٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٦

(١٥٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨

(١٥٩) محمد الطمار تاريخ الأدب الجرازي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص ٣ .

(١٦٠) د . السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ، ص ٥٧٥ ، وانظر الباروني : الأزهار الرياضية ، ص ١٩٠ - ١٩١

حتى وإن مات ذو علم ودو ورع
 إن كان في منهج الأبرار ما مارا
 أو أنها عبرت أشخاصهم ومضوا
 ما مات عيد قضى من ذاك أوطارا
 ودو حياة على جهل ومقصصة
 لا يبالى أخيرا تال أم عارا (١٦١) .

والذى يظهر من هذا العمل الأدبي أن الثقافة المشرقية أصبح لها جذور ثابتة في بلاد المغرب ، وكانت هذه المحاولات من جانب أفلح بن عبد الوهاب في مجال الشعر مقدمة لظهور الأدب المغربي بعد ذلك وكان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو آثاره الخطيرة على جيرانها ، فقد تضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتآلق بحجمهم في سماء المغرب كله ، وأصبحت تاهرت تحتل مكان الصدارة في بلاد المغرب (١٦٢) . وقد أحس الأغالية خطورة هذا الأمر على مركزهم السياسى والاقتصادى فقام أبو العباس محمد بن الأغلب ببناء مدينة قرب تاهرت سماها العباسية سنة ٢٣٩ هـ (١٦٣) ، لتقف في وجه الرستميين وتجذب الأنظار عنهم ، وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت ، لذا لم يدخر أبو العباس محمد بن الأغلب وسعا في ترتيب أسواقها على نسق وترتيب غريب (١٦٤) . وهذا ما يفسر أهمية السبب الاقتصادى الذى أقيمت العباسية من أجله .

(١٦١) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(١٦٢) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٨ .

(١٦٣) ابن الأثير . الكامل ، ج ٦ ، ص ٥١٩ ، (ذكر ابن خلدون أن بناء العباسية كان سنة ٢٢٧ هـ . وإذا كان الأمير محمد بن الأغلب تولى الإمارة سنة ٢٢٧ هـ فمن المستبعد أن يكون بناء المدينة وإحراقها قد تم في عام واحد ، ابن خلدون . المعبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ .
 د . محمود إسماعيل عبد الرزاق . الأغالية سياستهم الخارجية ص ١٢٩)

(١٦٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، د . محمود إسماعيل عبد الرزاق : الأغالية سياستهم الخارجية ، ص ١٣٠

ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب سالم جيرانه الأغلبية - بادئ ذي بدء جريا على ما سار عليه والده عبد الوهاب - إلا أنه رأى أن في إقامة العباسية تهديد لسلامة الدولة الرسمية وأنها (١٦٥). فما كان منه إلا أن سكت حتى أتم أبو العباس محمد بن الأغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أصرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها (١٦٦). ولم يكن في استطاعة محمد بن الأغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم أثر السلامة ولاذ بالصمت (١٦٧).

٤ - وفاة الإمام أفلح :

كان للإمام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما أبو بكر وأبو اليقظان . واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع وقد أبدى رغبته قبيل وفاة والده أفلح في الحج إلى مكة : وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال بني العباس وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من بلاد المغرب يرتاد البلاد ، ويرسل رسله في كل الآفاق إلى من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب (١٦٨) .

قبض العباسيون على أبي اليقظان ومعه رجل من نفوسة كان يخدمه ، وحمل الاثنان معا إلى بغداد حيث أمر الخليفة العباسي الواثق بحبس أبي اليقظان وفي السجن التقى أبو اليقظان بالمتوكل أحيى الخليفة الواثق فأصبح صديقا

(١٦٥) محمد بن تلويت دولة الرستميون أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٩

(١٦٦) في الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥١٩ . ابن خلدون . المعبر ، ط . مؤسسة الأعلمي بيروت ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ . البلاذري هوج البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٧

(١٦٧) د السيد عبد العزيز ساء لغرب الكبير ، ص ٥٦٨

(١٦٨) في الصغير حيرة الأئمة ، سميح ، تعريب ص ٢٧ ، ٢٨

حيما له ، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها في حياة أبي اليقظان بعد ذلك (١٦٩) .

ولما علم أفلح بما حدث لولده أبي اليقظان اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محرونا إلى أن وافته المنية وابنه نجوس ببغداد (١٧٠) ، وكانت وفاته سنة (٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) (١٧١) .

(١٦٩) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨ ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

(١٧٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرشتيين في تاهرت ، ص ٣٠ .

(١٧١) الباروني : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٢١ ، الزركلي : الأعلام ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ، ٢ .
السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٩ ، (لم يذكر مؤرخو الإباضية تاريخاً محدداً لوفاة أفلح بن عبد الوهاب فلاكتفى ابن الصغير بقوله . ١ وكان أفلح قد عمر في إمارته ما لم يحمر أحد ممن كان قبله فأقام خمسين عاماً أميراً . بيتا الدرجيني يقول : ١ وكانت مدة إمامته (أفلح) ستون سنة ١ أما المؤرخون من غير الإباضية من أمثال ابن عساري فيرى هذا المؤرخ أن أفلح توفي سنة ٢٠٥ هـ ، ويبدو أن مؤرخي الإباضية صموا السنوات التي عمل فيها أفلح إلى جانب والده عبد الوهاب بدليل أن ابن الصغير استخدم لفظ « أمير » ولم يستخدمه لفظ « إمام » في التعبير عن مدة حكم أفلح بن عبد الوهاب كلها وبمصد هذا الرأي ما ذكره أبو ركرياء بدقة عن المدة التي قضاها أفلح في الحكم فقال . ١ ثم إن أفلح بن عبد الوهاب رضى الله عنهما مكث في إمامته ستين سنة والياً إماماً حرس السجية رعوها بالرعية ١ (أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ب) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرشتيين في تاهرت ، ص ٢٦ ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ، ٣٧ ، ابن عساري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧) .

الفصل الرابع

خلفاء أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

(١) إمامة أبي بكر بن أفلح

(٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م - ٢٤١ هـ / ٨٥٤ م)

نعمت الدولة الرستمية بالرفاهية التامة في عهد أفلح بن عبد الوهاب إذ أن أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسه ، لذا احتفظت الدولة في عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها . وبوفاة أفلح بن عبد الوهاب سنة (٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) تغيرت الأمور ، إذ تولى الإمامة ابنه أبو بكر الذي لم يكن على المستوى المطلوب للحاكم الذي يسوس دولة لها أهميتها مثل الدولة الرستمية .

وقد اجتمع أهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم ، وعقدوا الإمامة لأبي بكر بن أفلح سنة ٢٤٠ هـ (١) . لأنهم لم يجلبوا غيره في أبناء البيت الرستمي ، فأخوه أبو اليقظان مقبوض عليه في بغداد ويعقوب بن أفلح ما زال صغيرا حدث السن لا يتفع للإمامة (٢) .

(١) الناروي الأزهري الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) د السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٩ .

لم يستطع الإباضية بذلك تطبيق مبدأ الانتخاب العام أو التخلص من مبدأ
الوراثة .

قد رفض الكثيرون من الإباضية ممن يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام إمامة
أبي بكر فقد « كان عبد العزيز بن الأور ينادى بأعلى صوته الله سائلكم معاشر
نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم
فيختارون من هو أنقى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالته » (٣) وواضح
من هنا النص أن هناك قوة سياسية ضخمة وهي قوة نفوسة في تاهرت كانت
تحافظ على بقاء الإمامة في البيت الرسمي رغم معارضة المعارضين ورفض بعض
الناس لمبدأ أبي بكر (٤) .

كان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله
من آباءه ، وكان ممحما جوادا كما يقول ابن الصغير : « يساح أهل المروات
ويشايهم على مرواتهم ويحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين » (٥) . لذا مال
إلى الخمول والكسل والراحة وانصرف إلى حياة اللهو والترف ، تاركا شئون
الدولة لصهره محمد بن عرفة الذي سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح بن
عبد الوهاب وملك كوكو (٦) وكان محمد بن عرفة هذا قد تزوج بأخت
أبي بكر بن أفلح ، وفي نفس الوقت كان لمحمد بن عرفة أخت أو بنت جميلة
تزوجها أبو بكر (٧) ؛ لهذا تضخم نفوذ ابن عرفة وأصبح له سلطان كبير
في الدولة الرسمية وقد سجل ابن الصغير هذا فقال : « فكانت الإمارة بالاسم

(٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٣١

(٤) البزوني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٣١ .

(٦) انظر في ذلك فصل العلاقات الخارجية .

(٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، البزوني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٢٣

لأن بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة (٨) ، وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الإمام على القبائل مما أدى إلى زيادة الخلافات بين هذه القبائل فكانت الحروب بينها تهيح ثم تسكن على حد تعبير ابن الصغير (٩) . بل إن الخلافات تطرقت إلى داخل بعض القبائل الكبرى في الدولة وأدت إلى انقسامها ولاسيما هوارية ، فانها تحاسدت حتى انقسمت . فالحجاز قسم منها يعرف ببني أوس إلى من والاه من القبائل الأخرى والحجاز القسم الآخر ويعرف بترهته كذلك إلى غيرها (١٠) .

عودة أبي اليقظان من المشرق :

وفي تلك الأثناء عاد أبو اليقظان من العراق - بعد أن أطلق سراحه الخليفة المتوكل العباسي - (فوجد (أبو اليقظان) أخاه أبنا بكر أميرا ، والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه . فلم يغير شيئا ، ولم ينكره ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أعياه (١١) . وانصرف أبو بكر إلى ملذاته وشهوته وترك إلى أبي اليقظان تسيير أمور الدولة ، فكان أبو اليقظان يجلس في المسجد إلى الناس والعمال والقضاة وأصحاب الشرطة لإجراء الحقوق إلى الناس عظم قدرهم أو صغر ، فإذا كان آخر النهار ذهب إلى أخيه أبي بكر فإن وجدته جالسا أعلمه بما حدث في يومه من خير وحكم ، فإن لم يجده : « قال لمن علم أنه يصل إلى حرمة اقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادية وأمست هادية وإذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى أقصاها ويحكم الأمر الضروري ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره فإذا حكم جميع ذلك انصرف إلى داره (١٢) .

(٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٣١ .

(٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(١٠) الباروني : الأحرار الرابضة ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(١١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٣٢ (والضروسة : هكذا في الأصل) .

(١٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٣٣ ، ٣٧ .

ومعنا كان أبو اليقظان يحكم تدبير الدولة وشؤونها ، كان نفوذ ابن عرفة في ازدياد وصيته في دوى وأسهمة في ارتفاع ، مما أوغر صدر رؤساء الإباضية عليه ، حتى إذا واتتهم فرصة الاجتماع بأبي بكر قالوا له : « إنك ذاهب ونحن ذاهبون قال وكيف ذلك : قالوا له : ما نحسب أنك تعلم بجيئ ابن عرفة إذا جاء فيمن يجيئ ولا انصرافه إذا انصرف فيمن ينصرف ولا اجتماع الناس عند بابك إذا جاء ولا خلوه إذا انصرف » (١٣) .

تطقت هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح وأراد أن يتأكد بنفسه من صدق ما وصله من أقوالهم . فنظر من طاقة في أعلى قصره إلى الجهة التي يأتي منها محمد بن عرفة ، فإذا هو قادم في موكب من الناس قد بادروا إليه من كل جانب ، فنزل أبو بكر إلى مجلسه وقد هاله ما رآه من أمر محمد بن عرفة ، وتكرر هذا المنظر ثانية حين انصراف محمد بن عرفة فصعد أبو بكر إلى الطاقة نفسها ونظر منها « فإذا بالأمم التي أقبلت قد انصرفت وبقي يابه خاليا فتحقق عنده ما قال القائل » (١٤) .

ويذكر ابن الصغير أن أبا بكر استشار أحد أصحابه في أمر محمد بن عرفة ، فأشار عليه بقتله على أن تتم عملية القتل في سرية تامة ، وتردد أبو بكر فيما أشار به صاحبه ، وكان يقول : « لا أحسب نفسي تطوع في ذلك ولا سيما أخته تحي وأختي تحته حتى شككت في البنت أو الأخت ومتي فعلت ذلك تنصت حالي وكنت كقاطع كفى بكفى » (١٥) . ولكن عواطف أبي بكر بن أفلح ما لبثت أن تبددت وأرسل يدعو محمد بن عرفة إلى نزهة خلوية في حدائق تسمى « جنان الأمير » دون أن يحضر معه أحداً من حاشيته أو عبيده وفي جنان الأمير قضى الاثنان يومهما حتى إذا جاءت صلاة المغرب ووقفنا للصلاة أشار

(١٣) المصدر السابق . ص ٣٣

(١٤) المصدر السابق ، ص ٣٤

(١٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

أبو بكر إلى غلامه فضرب محمد بن عرفة بحربة كانت بيده بين كتفيه فأرداه قتيلا (١٦) .

ويصور ابن الصغير ذلك المشهد الرهيب فيقول : « فلما علم ذلك أبو بكر قال لغلامه زملة بشيابه واحمله على فرسه ففعل الغلام ما أمر به وركب أبو بكر ومشى بين يدي الغلام والغلام خلفه حتى أتى جبلا قد تقسم نصفين له هو أعظيما يعرف ذلك الموضع بالشفة الحمراء فقال له : ألقه في الحوارة فألقاه فيها وأمره أن يغيب فرسه ولا يظهره وأنصرفا حتى دخلا المدينة » (١٧) .

وأحدث تغيب ابن عرفة رجة عظيمة في تاهرت ، فخرج أتباعه وأنصاره يبحثون عنه حتى وجدوا جثته فحملوه إلى النهر الذي قتل عنده « وبعثوا إلى داره وأتوا منها بفرس له وكسوة طاهرة وسيفه فغسلوه في النهر وأنظفوه وطيبوه ثم كسوه ثيابه وقلدوه سيفه وحملوه على فرسه وجعلوا خلفه رجلا يحبس حتى أتوا به مدينة تاهرت فابتدر إليه العامة والخاصة والنساء والعبيان وألحق الناس من الجزع ما لم يلحقهم في قتل قبله وقام مناد ينادى بين يديه ألا إن القاتل المظلوم يأمركم بطلب ثاره ودمه فعجل الناس بجهازه ودفنه ثم جلسوا حلفا حلفا يذكرون أمرهم » (١٨) .

الحرب الأهلية في تاهرت :

كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية عنيفة في تاهرت ، حيث تجمع أنصار محمد بن عرفة بقيادة محمود بن الوليد ، ومعهم جند من القيروان بقيادة خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم (١٩) ، وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا

(١٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٥ ، الدرجيني . طبقات الإياضية ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ، الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٢٨

(١٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسنيين في تاهرت ، ص ٣٥ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٦

(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ : ٣٧ . ويذكر الباروي محمود بن الوليلي عند ابن الصغير ، من محمود بن الوليد عبد ابن الصغير ، الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

في مناسبات كثيرة تمردهم على الأغلبية واستقروا بتاهرت وأسسوا لهم ريفاً كبيراً بها صار كالمدينة العامرة . وطبيعي أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون أنصار محمد بن عرفة في محتهم لأن ابن عرفة عربى وقروى مثلهم وافد من القيروان (٢٠) . وإلى جانب هؤلاء الثائرين وقف عدد من وجوه التجار في تاهرت منهم أبو محمد الصيرفي وابن الواسطى (٢١) . وقد دفع هؤلاء التجار الكثير من أموالهم رغبة منهم في تحطيم الإمامة وإنهائها ، وكانوا يقولون للمطالبين بثار ابن عرفة من العرب والجند : « لو بنيتم حصناً تأمنون فيه ليلكم وتحصنون فيه إن دهمكم شيء من عدوكم وهذه أموالنا في أيديكم فشرعوا في بناء الحصن ولم يكن بين حصنهم وحصن عدوهم إلا قدر رمية رام بسهم » (٢٢) .

هؤلاء هم الثائرون المطالبون بثار محمد بن عرفة أما الإمام أبو بكر بن أفنج فلم يكن معه سوى خاصته من الرستميين وبعض المسيحيين (الأفرقة) ، وقد خاض بهم معاركه الأولى مع العرب والجند أما العجم فقد انتهزوا فرصة اشتغال العرب والجند في مقاتلة الإمام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التي يمتلكها العرب والجند (٢٣) . أما أبو اليقظان بن أفلح فقد أثر عدم الخوض في هذه الحرب هو ونفوسه بل إنه انتقل إلى عدوة نفوسة وأقام بها . وإن كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبي اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم في السر (٢٤) .

تحولت الحرب الأهلية في تاهرت إلى حرب بين العجم وبين العرب ومعهم

(٢٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٠ .

(٢١) ابن الصغر : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ (كان قد وفد على تاهرت عاصمة الرستميين عدد كبير من جند القيروان . وهؤلاء أعلنوا عصيانهم على الأغلبية ، واستقروا في تاهرت وأسسوا لهم ريفاً كبيراً بها ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٠) (العصر الإسلامي) .

(٢٤) ابن الصغر . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٧ .

جند القيروان ، أما أبو بكر بن أفلح فقد تشاعم الناس منه ، فبقى في داره لا يأمر ولا ينهى (٢٥) ، ومما يلاحظ هنا أن العناصر المتصارعة في هذه الحرب الأهلية لم يكن هدفها الأساسي هو الثأر لمحمد بن عرفة بقدر ما كان هدفها تحقيق مصالحها الخاصة وذلك للأسباب الآتية .

أولاً : أن جند القيروان برغم عداوتهم للأغالبة فقد أندس بينهم عدد من جواسيس الأغالبة الذين قاموا في الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس ، بهدف تعريض هذه الدولة والقضاء عليها ، وكان خلف الخادم - مولى الأغلب بن سالم - دور خطير في القيام بمثل هذه الأعمال ، فقد كانت له أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله (٢٦) . كما كان خلف المعرض الأول للعرب والجند لإحراق درب النفوسيين ليقتحمهم في الحرب الأهلية . ولم يفت ابن الصغير أن يذكر هذا العمل من أعمال خلف فأشار إليه بقوله : « وكانت العرب والجند إذا غلبت على المعجم أخرجتها من بعض ديارها في حالها فقال خلف الخادم : وما تصنعون شيئا إذا غلبتم على شيء من ديارهم فاضرموه نارا فلما كان اليوم الثاني وقع الحرب فيه بجوار درب النفوسيين . . . وكان أكثره للمعجم وبعضه لنفوسة وأضممرت الدرب نارا فغضبت نفوسة » (٢٧) .

ثانياً : أن المعجم عندما شرعوا في الحرب مع العرب والجند ، كان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الأولى والأخيرة في تاهرت إذ قاموا بدور المتنقذ للبلاد والسلطان وقد أشار إلى هذا ابن الصغير بقوله : « فلما رأت المعجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا قد أمكننا في العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نهب على طرف المدينة فنقتل مقاتلتهم ونحرب ديارهم ونميل على سائرهم فهلكهم فيصفو لنا البلد والسلطان

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٢٧) بر نصمو سورة الأكمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٧ . ٣٨

وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد (أبو بكر بن أفلح) من الفتق ما لا يرتقى أبدا له ، (٢٨) .

ثالثاً : كانت الضغائن التي بذر بذورها أفلح بن عبد الوهاب بين القبائل قد عملت عملها ، وظهرت سافرة في عهد أبي بكر بن أفلح ، وما لبثت أن طفت إلى السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب لا تفتقر ليلاً ولا نهاراً وحيت بينهم حمية الجاهلية ، وصارت الحرب بينهم على حد قول ابن الصغير : « سمعة ورواء » (٢٩) .

ولما نجح الجند في إحراق دواب النفوسيين دخلت الحرب الأهلية في تاهرت مرحلة جديدة ، فقد وحدث نفوسة صفوفها مع العجم والرسومية بقيادة أبي اليقظان بن أفلح ، لإنقاذ الأمور المتدهورة في تاهرت ، وقد أحرز هذا التحالف انتصارات متتالية على العرب والجند في وقائع كثيرة منها واقعة (قنطرة سليس) ، وواقعة (الرد المعرج) (٣٠) . ولكن موقف أبي اليقظان وحلفائه بدأ في الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة ، حتى إنهم تفرقوا خارج تاهرت فنزلت العجم بموضع يقال له (تنا بغيلت) وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت ، ولحق الرستميون بأبي اليقظان ، واستقروا عند موضع يقال له (اسكنال) وهو على مسيرة يوم بقبلة تاهرت ، أما نفوسة فنزلت بقلعة نفوسة التي يتوها في عدوتهم المشهورة بعدوة نفوسة (٣١) . أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، (رعت هكلما في الأصل) .

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسعيين في تاهرت ، ص ٣٨ ، (سميت الواقعة بهذا الاسم لأن نفوسة في هذه المرحلة ربطت رجلاً بعضهم إلى بعض بالرجال فكلما دارت الحرب إلى ناحية دار معها الهاربون يرجوهم وظلوا هكلما حتى نهاية القتال فسميت واقعة الرد المعرج) .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ويذكر البارون (اسكنال) بدلاً من (اسكنال) التي ذكرها ابن الصغير ، البارون : الأرمهر الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

مع من خرج من تاهرت لا حيا ولا ميتا كما يقول ابن الصغير (٣٢) . ويدل هذا التعبير من ابن الصغير على مدى ما كان فيه أبو بكر من حالة سيئة ، وإحساس بالألم لما جناه على نفسه وعلى الناس .

وقد انتهز محمد بن مسالة الهواري الإباضي فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لهواة اليد العليا في تاهرت ، وكانت لواتة إذ ذاك بالمدينة مع أهل المدينة فتسلطنا عليها هواة-بسلطانهم وأعانتها أهل المدينة فلما رأت لواتة ذلك ظننت عن المدينة وجلت عنها ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة (٣٣) .

وكان لخروج لواتة من تاهرت تغيير في ميزان القوى مرة ثانية في صالح الرستميين ، فقد أرسلت لواتة إلى أبي اليقظان ودعته إلى النزول إلى جوارها بموضع يقال له « تساونت » التي تخرج من عندها عيون هر مينة الذي يجري إلى تاهرت . وهناك تمت مبايعة أبي اليقظان بالإمامة بعد أن اعتزلها أخوه أبو بكر بن أفلح سنة ١٤١ هـ (٣٤) ، فصار الدعوة والإمامة كلها لأبي اليقظان وأتمته الإباضية من كل الأقطار (٣٥) ومن تاهرت نفسها خرج الكثير من يحبون أبا اليقظان ، فأعلنوا إليه وبايعوه بالإمامة (٣٦) .

(٣٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٣٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤٠ ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، الباروني : الأذهار الرضاوية ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ ، جاء عزل أبي بكر بن أفلح سنة ٢٤١ هـ بعد أن أمضى في الإمامة عامين فقد تولى بعد وفاة والده أفلح سنة ٢٤٠ هـ ولما كانت وفاة أخيه أبي اليقظان في سنة ٢٨١ هـ بعد أن حكم أربعين سنة وفق رواية ابن الصغير المقلكي ، لذا فإن عزل أبي بكر بن أفلح يكون سنة ٢٤١ هـ ، انظر ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤٠ ، ٤٩ .

(٣٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤٠ (ويقول الدرجيني ولم يجد الناس محمد محبداً عبا فعلنوا له بيعة والتزموا سمعه طاعة) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤٣٧ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ظل أبو اليقظان يهاجم تاهرت طيلة سبع سنوات متتالية دون جدوى ، فأرسل في طلب العون العسكري من جبل نفوسة فلبت قبائل الجبل نداءه وأرسلت إليه أعدادا وفيرة من الرجال ، تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل في غرب تاهرت « فلما نزل منزله قالت نفوسة لا تقاتل حتى يرسل إلى إخواننا وتنذرهم فإن جاعوا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة وإن أبو من ذلك نزلنا معهم على حكم الله » (٣٧) .

وما أن وصل رسل نفوسة إلى تاهرت حتى وجدوا الناس قد ملوا الحرب فاتفقوا معهم على عقد الصلح مع أبي اليقظان على ألا يأخذ أحدا بما سلف من أعماله ، ثم خرجت طائفة من عسكر أبي اليقظان حتى اجتمعت بطائفة من أهل المدينة فعقدوا ذلك فيما بينهم (٣٨) وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين حيث قالت « إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت قطلب علو في الأرض ولا فساد » (٣٩) .

وقور توقيع الصلح جرت الاستعدادات لدخول تاهرت ، فرحل أبو اليقظان بعساكره حتى وصل إلى الظاهر المشرف على مدينة تاهرت والمعروف بقلعة نفوسة وهناك ضرب الإمام سرادقه الذي قدم به من بغداد . وكان سرادقا عظيما ، وهو أول سرادق يضرب في دولة الرستميين ، إذ كانوا قبل ذلك يضربون المضارب والقباب (٤٠) . وظل أبو اليقظان مقيما في سرادقه حتى بنى له أهل المدينة داره التي كانت قد تهدمت في أثناء الحرب وتحولت إلى مزبلة أو كدبة من الكدا فقام الأهالي « فكسروها في يومهم ذلك فاشتروها

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(٣٨) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤١ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

في أسرع الأيام فلما فرغت نزلها أبو اليقظان ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة » (٤١) .

وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الأهلية التي أوشكت أن تقضي على الدولة الرستمية نهائيا ، وكانت لجهود أبي اليقظان ونفوسه الأثر الكبير في عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية .

(٤١) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة

(ب) إمامة أبي اليقظان بن أفلح
(٢٤١ هـ / ٨٥٥ م - ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م)
شخصية أبي اليقظان :

لم تذكر المصادر شيئا عن المراحل الأولى من حياة أبي اليقظان ، وإنما اكتفى بعضها بالحديث عن ورعه وتقواه وأنه كان حسن الحال عند جميع الناس ، وقد أفاض ابن الصغير في الحديث عن تقواه وخوفه من الله وأن ذلك دفعه إلى طلب الذهاب إلى الحج ، وألح على والده أفلح أن يأذن له في ذلك ، فأذن له رغم الأخطار التي قد يتعرض لها ، وخرج أبو اليقظان مع قافلة حتى إذا ورد مكة قبض عليه رسل بني العباس ، وحملوه من مكة إلى بغداد ، وهناك زجوا به في السجن (٤٢) . وقد نقل ابن الصغير في كتابه حديثا لأبي اليقظان عندما سجن في بغداد قال : « وافق حبسى حبس (المتوكل) أنعى الخليفة (الوائى) كان قد نقم عليه فأنقم قال : فأمر بنا جميعا فحبسنا في موضع واحد » (٤٣) وأجرى الخليفة على أبي اليقظان كل يوم مائة وعشرين درهما ، وكان المتوكل صديقا حبيبا لأبي اليقظان ، فلا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا إلا مع أبي اليقظان ، وظلت الأحوال بهما كذلك حتى حدثت ضجة في السجن من حولهم ، وإذا بالخليفة (الوائى) قد قتل وقدم صاحبى (الخليفة المتوكل) الذى فى الحبس معى مكانه قال : فما شعرنا أن دخلت له الصقالة والأجناد علينا فاختطف من بين أيدينا ولم يسم من حدثنا من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم قال : (أبو اليقظان) فلما استقل الملك بصاحبى وقعدت قواعده أمر بى فأخرجت » (٤٤) .

(٤٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستخيين فى تاهرت ، ص ٢٨ .

(٤٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ (الخليفة هو الوائى وأخوه السجين هو المتوكل ، محمد بن تلويت : دولة الرستخيين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١٢٤)

ويتحدث أبو اليقظان عن اللحظات التي التقى فيها بالخليفة المتوكل بعد أن خرج من السجن يقول : « فلما مثلت بين يديه أمرني بالجلوس فجلست قال : (أبو اليقظان) فذكر ما كنت عليه بما يرى مني اجتهدا في صلاة وغيرها (٤٥) وعرض عليه الخليفة أن يوليه أي بلد من المشرق أو المغرب ، ولكن أبا اليقظان رفض هذا العرض فقد كانت عنده رغبة شديدة في العودة إلى بلاد المغرب ، فوافق الخليفة على رحيله إلى المغرب ، « ثم أمر الوزير بالنظر في أمري وأمر جهازى وأمر لي بسرادق فضرب لي ثم أمر لي بتفقة وكسوة وكتب لي كتابا إلى عماله بالأمصار بالحفظ والرعاية والبر والإكرام » (٤٦) .

وكانت لهذه الفترة التي عاشها أبو اليقظان في بغداد أثرها في تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التي قضاها مع المتوكل في السجن أو تلك التي قضاها في بلاط العباسيين حتى ارتحل عنهم إلى بلاد المغرب ، فقد رأى في هذا البلاط نظاما أعجبه وكثيرا ما وقف منها موقف المستغرب لها ومن ذلك أن الخليفة عندما أمر بإخراجه من السجن خصص له وزيرا يشرف على شئونه حتى يحين موعد لقائه بالخليفة على غرار ما هو معروف الآن بهيئة الشرف التي تصاحب رؤساء الدول وكبار الزوار يقول أبو اليقظان : « فأخرجت وصيرني إلى الوزير فأمره بحفظي وكرامتي والنظر في أمري إلى أن اجتمع معه فكنت معه مبرورا مكرما » (٤٧) .

ومما شاهده أبو اليقظان أيضا في بلاط العباسيين واطلع عليه نظام تعبئة الجيوش عند الحاجة إليها ، فذات يوم عند انصراف أبي اليقظان من قصر الخليفة إلى داره الذي أهد له وجد الوزير واقفا في صحن ذلك الدار على فرسه « فوقف أبي اليقظان يتحدث إليه فبينما هم كذلك إذ أقبل على الوزير عشرة

(٤٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٩

(٤٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠ ، (« والبرم » حكاه في الأصل) .

(٤٧) ابن الصغر - سيرة الأئمة الرستمين في تأريخهم ، ص ٢٨ .

رجال فترلوا عن دوابهم فقال لهم الوزير : أتندرون لماذا أرسلت في طلبكم ؟ قالوا : لا علم لنا بشئ فقال الوزير : « إذا كان الغداة فأحضروني عشرة آلاف فارس فقالوا : نعم أصلح الله الوزير قال : (أبو اليقظان) فعجبت من قوله ومن قولهم وقلت يهزأ بهم أو يهزعون به أو أراد أن يظهر لي شيئا أتحدث به في المغرب لا أصل له » (٤٨) . وقد لاحظ الوزير على أبي اليقظان علامات الاستغراب ، فقال له « مالك يا مغرى أراك تعاطمك ما سمعت فقلت (أبو اليقظان) أصلح الله الوزير كيف لا يتعاطمني والله أصلحك لو كان ما سألتهم دراهم في أكمامكم لما استطاعوا إحضارها إليك بالغداة وكيف عشرة آلاف فارس » (٤٩) . وأراد الوزير أن يزيل دهشة أبي اليقظان فقال له : « يا مغرى ترى هؤلاء العشرة قلت : نعم تحت كل واحد منهم عشرة كم هذا معك قلت : مائة قال : وتحت يد كل من المائة عشرة كم هذا معك قلت ألف قال : وتحت كل واحد من الألف عشرة كم هذا معك قلت عشرة ألف . قال : (الوزير) فإنما تخرج هذه العشرة فيدعو كل واحد منهم من تحت يده فيأمره بإحضار عشرة ثم يخرج كل واحد منهم من المأمورين فيأمر من تحت يده فيجمع ذلك كله في أقل من لحظة عين » (٥٠) .

كانت بلاد المشرق إذن رافدا من الروافد التي صبت في شخصية أبي اليقظان الكثير من المؤثرات التي جعلت لهذه الشخصية الكثير من الإمكانيات التي ساعدتها على إعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التي حدثت في عهد أخيه أبي بكر ، ومكنت أبي اليقظان من القيام بحركة إصلاح واسعة شملت نظم الدولة كلها ، وقد عبر ابن الصعير عن ظهور هذه المؤثرات المشرقية في شخصية أبي اليقظان عندما عاد من المشرق يقول : « فصرف (أبو بكر بن أفلح) النظر عن المدينة وأحوازها إلى أخيه أبي اليقظان

(٤٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٩

(٤٩) نفس المصدر السابق . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٩ .

(٥٠) نفس المصدر السابق . نفس الصفحة

مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية
بنى العباس وسيرهم » (٥١) .

وفضلا عن هذه المؤثرات المشرقية كانت لأبي اليقظان شخصية قوية
استمدت عناصر قوتها من مقوماته الجسمية وسلوكه الشخصي ، فقد كان ربيع
القامة أبيض الرأس واللحية ، زاهدا ورعا ناسكا سكيئا (٥٢) ، « وكان إذا جلس
الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامه ترفع
إليه » (٥٣) . وكان إلى جانب ذلك ورعا متقشفا مما جعله موضع الحب
والتقدير من الجميع حتى إن حب نفوسة الجبل لأبي اليقظان وصل حد الافتتان
بشخصيته وقد كتب ابن الصغير في ذلك يقول : « وكانت نفوسة الجبل مفتونة
بأبي اليقظان حتى إنها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت
النصارى عيسى بن مريم وكان أكثرهم لا يحج إلا باستذاته ، وكانت المرأة
تبعث بابنها أو ابنتها يأخذ لها الإذن منه وكان إذا ضرب سرادقه وافته وفودهم
لا ينامون الليل حول فسطاطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى
إلى الفجر فإذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا » (٥٤) .

ومما يذكره الدرجيني أيضا في هذا الصدد قوله : « فكانت نفوسة
فيما قيل لا يعدلون أيامه وسيرته إلا بإمامة جده عبد الرحمن وسيرته وذلك أنهم
اتخذوا مجلسه حيث في المسجد طائفة يصلون وطائفة يقرعون القرآن وطائفة
يتذاكرون في فنون العلم » (٥٥) .

(٥١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٥٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسخين في تاهرت ، ص ٤٤ ، البرادي : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ،
ورقة ٩٦ .

(٥٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسخين في تاهرت ، ص ٤٤ .

(٥٤) نفس المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

(٥٥) الدرجيني . طبقات الإباضة ، مخطوط ، ورقة ٣٧ .

استقرار الأوضاع الداخلية في عهد أبي اليقظان :

استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل في الإمامة أربعين سنة (٥٦). تمتعت الدولة الرستمية خلالها بكثير من الإصلاحات الداخلية التي ساهمت في دعم مركز الدولة السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فعلى أثر دخول أبي اليقظان إلى تاهرت استصلح الناس قاضيا بعد أن شاورهم في ذلك ، ووقع الاختيار على أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ ثم ولّى على بيت المال رجلا من نفوسة ، وقدم على متبره من ارتضاء هو بنفسه لهذه المهمة . وألقى إلى قوم من نفوسة مهمة مراقبة الأسواق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفاظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها ، وسيادة الأمن في ربوعها كما كانت رعاية المساجد والمصلين بتاهرت من المهام الملقة على عاتق هذه الجماعة (٥٧) .

وواصل أبو اليقظان جهوده في إصلاح ما أفسدته الحرب الأهلية ، حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم في سبيل العمارة والتجارة والبيان واشتغلوا بطلب العلم ... وكاتب الإمام بعد إصلاحه الشئون الداخلية رؤساء سائر أتباع الإمامة في كل الجهات فأنت طائفة خاضعة وقدمت البيعة برضاء فرتب الولاة والعمال والحكام والقضاة وأصحاب الشرطة في الولايات كلها (٥٨) ومن هذه الوفود التي قدمت على أبي اليقظان وفد نفوسة الجبل ، الذين طلبوا من الإمام أن يقدم عليهم عاملا يرتضيه ، فأمرهم دار الضيافة وطلب أن يكتبوا أسماءهم وأن يرفعوها إليه ، وأمر كاتبه أن يكتب السجل ، وعلى هذا السجل كتب

(٥٦) المرجعي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩١ .

(٥٧) ابن الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤١ ، ٤٢ ، البرادى . الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٠ .

(٥٨) العلولى . الأرهاار الرماضية ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

أبو اليقظان بخط يده اسم العامل الذي اختاره ، وهو أفلح بن العباس (٥٩) . ولم تقف جهود أبي اليقظان في مضمار الإصلاح الداخلي عند هذا الحد بل نهض بنفسه بياشر إلقاء الدروس على الطلاب والراغبين في العلم ، وأرسل الرسائل إلى عماله في جميع الجهات ، وفي هذه الرسائل يدعو الناس إلى تقوى الله والمساورة إلى طلب العلم واتباع السلف الصالح ، والبعد عن الأهواء والبدع وما ينشره أعداء الدولة من أباطيل (٦٠) . ونتيجة لهذه الإصلاحات قويت الدولة الرسمية ، واستردت هيبتها في بلاد المغرب وأصبحت قادرة على ردع أية محاولة للتيل من أراضيها أو استقلالها .

غزو العباس بن أحمد بن طولون للرستمين :

تعرضت حدود الدولة الرسمية الشرقية في عهد أبي اليقظان بن أفلح إلى الغزو من ناحية مصر سنة (٢٦٥ هـ / ٧٧٨ م) (٦١) ، وقد قام بهذا الغزو العباس بن طولون الذي خرج من مصر ثائرا على والده ، متجها نحو بلاد المغرب ، مدعيا أن الخليفة المعتمد قد قلده إفريقية وأنه أقره عليها (٦٢) ،

(٥٩) ابن الصمير : سورة الأئمة الرستميين في تامرت ، ص ٤٧ . (ذكر ابن الصغير أن ولد نفوسة حاول أن يعرف اسم العامل الذي اختاره الإمام ثم فسأوا حمود بن بكر ، وعيسى بن فرناس وغيرهم من المقرئين من أبي اليقظان فأذكروا علمهم بشيء حتى إذ سألوا عبد العزيز بن الأور فأجابهم : إن الإمام قد قدم عليهم أفلح بن عباس : فغضب الأور من حمود بن بكر وعيسى بن فرناس ، فلما ذهب الاثنان إلى الإمام أحضر الإمام عبد العزيز بن الأور أقال له . من أعفك أفي قدمت على نفوسة أفلح بن العباس ، فقال عبد العزيز أنت أغفمتني ، فقال أبو اليقظان في اليقظة أم في النوم ، قال عبد العزيز لا ولكن في اليقظة ، قال : وكيف ذلك قال : رأيك إذ يسمى لك رجل من ولد نفوسة انقبض ما بين عينك وإذا سمى لك أفلح ابن العباس اتبسط ما بين عينك فسلمت أنك أباه تريد ، فقال أبو اليقظان خليا عن المجنون فقد كشف سرقا) ، ابن الصغير . سورة الأئمة الرستميين في تامرت ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٦٠) الباروني : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ انظر قسم الملاحق وبه نص رسالة من أبي اليقظان إلى جميع رعيته

(٦١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ ، الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢١ .

(٦٢) ابن خلدون . المعبر ، ط . دار الكتاب القباني ، ج ٤ ، ص ٦٤٥ ، ابن الأثير : الكامل ،

ج ٧ ، ص ٣٢٤

وما أن وصل العباس بن أحمد إلى برقة حتى أرسل إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب يأمره بالدعاء له بإفريقية ويخبره بأنه سائر إليه (٦٣) ، وفي نفس الوقت أرسل إلى إلياس أبي منصور النفوسي عامل الرستميين على نفوسة يتوعده وينذره ويدعوه إلى الطاعة ويقول له : « أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطيت بلدك بخيل ورجل وأبخت رحلك » (٦٤) .

ولم يكتف العباس بن أحمد بن طولون بذلك ، فما أن وصل إلى ليدة في جمادى الأولى سنة ٢٦٦ هـ حتى أمر جنده ، باستباحة المدينة ونهبها يقول الكتندى : « فأمر العباس بنهبها فنهبت على عرة فقتلت رجالهم وقضحت نساؤهم » (٦٥) ، وبالقرب من ليدة انهزمت قوات الأغلبية بقيادة أحمد بن قزحب عاملهم على طرابلس ، وتبعه العباس أحمد بن طولون حتى طرابلس فحاصرها ونصب عليها المجانيق ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوما (٦٦) . قام فيها جنود العباس بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس « فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الأستر فاستغاث أهل طرابلس بأبي منصور صاحب نفوسة فقام محسبا وناصره جيرانه من المسلمين » (٦٧) .

خرج إلياس أبو منصور النفوسي إلى ابن طولون في اثني عشر ألفا ، وتمكن من إلحاق الهزيمة به وإخراجه إلى برقة (٦٨) « وانتهب أهل طرابلس

(٦٣) الكتندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٢ .

(٦٤) البارونى : الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ابن سعيد المغرب في حل المغرب ، ط . كلية الآداب ١٩٥٣ ، ت . د . ركنى محمد حسن وآخرين ، ج ١ ، ص ١٢١ .

(٦٥) الكتندى . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٢ .

(٦٦) ابن عدي : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٦٧) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة

(٦٨) ابن الأثير : الكامل . ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

الكثير من أموال الطولونيين بينما تورع النفوسيون كما دعيهم عن أخذ شيء من هذه الأسباب وفقا لمبادئهم (٦٩) . وكانت هذه فرصة عظيمة لإبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، فأخذ في البحث عن أموال ابن طولون « وأخذها ممن وجدت عنده فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا أن تؤخذ منه » (٧٠) .

وظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبي اليقظان ، حتى إذا جاءت سنة (٢٨١ هـ / ٨٩٤ م) توفي أبو اليقظان (٧١) ، بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة قضى منها في الإمامة أربعين عاما ، وكان كل ما وجد في تركته بعد وفاته من أموال سبعة عشر دينارا (٧٢) وبوفاته اعتبرت للدولة الرسمية عوامل الضعف والتفكك وبدأ نجمها يأفل من سماء المغرب .

(٦٩) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٦٤٦ .

(٧٠) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٧١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٤٩ ، ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، البرادى : الجواهر المشقة ، مخطوط ، ورقة ٩٣ .

(٧٢) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣١ ب ، ابن الصغير : سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٤٤ .

(ج) إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
(٢٨١ هـ / ٨٩٤ م - ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م)

مبايعته بالإمامة :

لم يكن أحد من أبناء أبي اليقظان في تاهرت عند وفاته ، غابته يقظان كان في الحج ، وابنه أبو حاتم كان قد خرج على رأس جيش لحماية بعض القوافل التجارية من اعتداء قبائل زناتة عليها ، وكانت هذه القوافل قادمة من المشرق وفيها أموال كثيرة لا تحصى . ولما كانت المسافة بين تاهرت وبين أبي حاتم بعيدة فهو على مسيرة يومين من المدينة اجتمع العوام والفرسان دون القبائل وأعلنوا مبايعتهم لأبي حاتم ، وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الإمامة له (٧٣) .

وعلى جبل عاد أبو حاتم إلى تاهرت ، واستقبلته جماهير المبايعين عند باب المدينة حتى ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعلوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وأحملوه على الأيدي والأعناق حتى وصلوه إلى داره ثم أرسلوا إلى القبائل قبايعة (٧٤) . ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الإجماع العام الحاشد بدا من مبايعة أبي حاتم ، ووافقوا على البيعة بالإجماع (٧٥) . ولم يرض يعقوب بن أفلح عن مبايعة ابن أخيه أبي حاتم على هذا النحو . لذا آثر أن يرحل

(٧٣) ابن الصغير سورة الأئمة الرستمين في تاهرت ، ص ٥٠ .

(٧٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٧٥) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٥٦٣ ، دهور : تاريخ المغرب الكبير ، ص ٣ ، ص ٦٠٢ ، أبو ربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإياضية ، ص ٤٢ .

عن تاهرت حيث أقام في مدينة رواغة (٧٦) . في الجنوب الغربي لمدينة صيرة
في غرب طرابلس (٧٧) .

تجده الحرب الأهلية :

كان أبو حاتم فني شابا يجمع الفتیان إلى نفسه فبطعم ويكسو وقد منحه
ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون إلى مبايعته
على هذه الصورة التي رأيناها ، لكن ما كادت البيعة تم له حتى انفردت به
عشيرته وأخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه ، واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الإمام عن
جماهير الشعب ، ويحيطونه بأبهة الملك والسلطان . ولكن الشعب رفض
ذلك ، وطالبوا أن يسمح لهم بالاتصال المباشر بالإمام في كل الأوقات
كما كان ذلك متاحا لهم قبل إمامته (٧٨) . ولم يكن احتجاج أبي حاتم
عن العامة بتأثير من أقاربه ومواليه فحسب وإنما شارك في ذلك عدد من شيوخ
تاهرت من غير الإباضية كما يقول ابن الصغير : « منهم رجلا يعرف بأبي
مسعود وكان كوفيا فقيها بمذاهب الكوفيين ومنهم شيخ يعرف بأبي دنون وكان
على مثل صاحبه من الفقه الكوفي ومنهم رجل يعرف بعنوان بن علوان لم يكن
من أهل الفقه ولاكن كانت له رئاسة في البلد ومحبة عند العوام وكان هؤلاء قد
طمعوا أن يبينوا خبر الإباضية » (٧٩) .

كانت هذه العناصر تحجب الإمام عن العامة لتثير عليه الرعية ، بل لقد
وصل بهم الأمر إلى حد التآمر مع اثنين من خاصة أبي حاتم وهما محمد بن

(٧٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٥٣ ، الباروني : الأرماز الرباضية ،
ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٧٧) دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ ، أبو ربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ
الإباضية ، ص ٤٢ .

(٧٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٥١ (« لاكن » مكتفا في الأصل) .

رباح ومحمد بن حماد للتخلص من أبي حاتم ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة ، لأن محمد بن رباح ومحمد بن حماد سبق لهما أن عرضا على أبي حاتم أن يقتلا والده أبا اليقظان عندما كان على خلاف مع أبي حاتم وقالاه : « لا عليك اثبت كما أنت وخل بيننا وبين هذه الخوارج (أبو اليقظان) نحن ندخل إليه فنقتله ويصير الأمر إليك » (٨٠) . ويأمر أبو حاتم إلى الحيلولة دون إتمام هذه المؤامرة فأصدر أوامره بتحديد إقامة محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج تاهرت ، وسمح لهما بالإقامة معا في قصر لمحمد بن رباح يقال له « الثلث » ، ولكنهما لم يهدئا عن تحريك ثورة ضد أبي حاتم « فلم يزالا يرسلان رسولا بعد الرسول إلى من في المدينة من إخوانهما ويقولان : لهم أترضون أن يكون مثلنا ينفى من البلد بلا جناية كانت منا فيجتمع إخوانهم ويقولون والله لقد صدقنا ثم اتفق من بالمدينة من إخوانهم على أن يرسلوا إليهما فيدخلوهما على رضا الراضي وسخط الساخط فما شعر أبو حاتم إلا والتكبر عليهما في المدينة (٨١) .

ويبدو أن عودة محمد بن حماد ومحمد بن رباح إلى تاهرت تمت بطريقة أفرغت أبا حاتم وروعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت سنة (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) هو ومن ينصره من أهلها إلى حصن لواتة ، بعد سنة واحدة من مبايعته بالإمامة (٨٢) . وخرج معه نحو من مائة رجل من وجوه تاهرت ، كما خرجت العجم وففوسة أيضا ولم يبق بتاهرت غير العامة ومشايخ البلد الذين أيقنوا أن أبا حاتم إنما خرج ليستجمع قواه خارج تاهرت وأن عليهم أن يستعملوا للحرب (٨٣) .

(٨٠) نفس المصدر السابق ، ص ٥١

(٨١) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٥١ .

(٨٢) ابن عداري - البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧

(٨٣) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ، ص ٥٢ ، ابن عداري - البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧

نجح أبو حاتم في استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت إليه لواءة كلها كما اجتمعت إليه قبائل الصحراء ، فأعطى الأموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت « من ثلاثة مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواءة والرسمية وما شايها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نموسة » (٨٤) ، واستطاع أبو حاتم أن يضغط بهذه القوات على أهل تاهرت الأمر الذي جعلهم يفكرون في استدعاء يعقوب بن أفلق عم أبي حاتم ليتولى منصب الإمامة في تاهرت . واعتقد أهل تاهرت أنهم بهذا العمل يستطيعون إضعاف معسكر أبي حاتم بجذب كثير من أنصاره إلى يعقوب بن أفلق وما أن دخل يعقوب تاهرت حتى ضعفت شوكة أبي حاتم إذ انضم إلى يعقوب جماعة من لواءة وغيرهم من أصحاب أبي حاتم ورغم هذا فقد استمر حصار أبي حاتم لتاهرت التي أغلق يعقوب أبوابها إلا بابا واحدا صار يحارب منه أبا حاتم ، واستمرت الأحوال على هذه الصورة حتى تدخل أبو يعقوب المزاقي رئيس مزانة بين الطرفين لعقد الهدنة بينهما (٨٥) .

وجرت مراسم الهدنة ، فقدم يعقوب بن أفلق عبد الله اللعطي لينوب عنه في توقيع الهدنة ، وقدم أبو حاتم اثنين هما متكود وابن أبي عياض اللواتيين . وعقدت الهدنة على شرط أن يعزل الاثنان من الإمامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدها من يحبون إماما لهم وتم العقد على هذا الأساس (٨٦) . وقد انتهر أبو حاتم فرصة هذه الشهور الأربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فكان « إذا لقي أحدا من وجوه أهل تاهرت وشبابهم استماله فإن كان على القرب استمال به إلى نفسه وإن كان على البعد زوده وأعطاه فمالت الناس إليه » (٨٧) .

(٨٤) ابن الصخر : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٥٢ ، (« وما شايها » هكذا في الأصل)

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٨٦) نفس المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

استعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه . فخرجت جماعات من أهل تاهرت إلى قصر أبي حاتم الذي يقيم فيه عند نهر مينة ، وكان على رأس هذه الجماعات رجال من وجوه المدينة هما محمد وأحمد المعروفان بابن دبوس يقول ابن الصغير : « فبينما أبو حاتم في منزله وقصره بنهر مينة إذ دخل عليه محمد وأحمد وجماعة الناس فقالوا قم فاركب الساعة فخرج معهما وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله فلم يصبح إلا على باب المدينة وبادر إليه الناس أجمع » (٨٨) . وما كادت هذه الأنباء تصل إلى يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى زواغة مرة ثانية (٨٩) . بعد أن قضى يعقوب في الإمامة أربع سنوات (٩٠)

وبعد عودة أبي حاتم إلى الإمامة مرة ثانية حاول بكل الوسائل أن يستعيد سلطة الإمامة وهيبتها ، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية حتى وصلت إلى الحضيض ، وظهرت كثير من الأمراض الاجتماعية يقول ابن الصغير : « وكان البلد (تاهرت) قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخلوا المسكر أسواقا والغلمان أخذنا » (٩١) . لذا بادر أبو حاتم بإحكام قبضته على الأمور ، فعين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ قاضيا ، وجعل عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال ، وولى أمر الشرطة إلى جماعتين من الناس هم قوم زكار ، وقوم إبراهيم بن مسكين ، واستكمل أبو حاتم بذلك سلطاته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعا في ضبط الأمور في الدولة ، وواجهوا المنحرفين بالضرب والسجن والقيود ، وحطموا الخوارج في كل دار عظم شأنها أو صغر وشرذوا الغلمان وأخذانهم إلى رؤوس الجبال والأودية ، وأمنت الطرق

(٨٨) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٥٦

(٨٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٩٠) ابن خندرقى - البلاد المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧

(٩١) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرستميين ، في تاهرت ، ص ٥٦

بعد أن قضى على اللصوص وقطاع الطرق ، فانتشر الأمن في ربوع البلاد (٩٢) .

وفي عهد أبي حاتم خرج عليه الطيب بن خلف في حيز طرابلس وجبل نفوسة ، فأصدر الإمام أوامره إلى عامله أبي منصور إلياس بالقبض عليه قبل استفحال أمره . فهرب الطيب إلى قبيلة رواغة التي كانت على رأي أبيه خلف ، ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى أبي منصور وكان في بني هراسن من زواغة شيخ كبير أدرك أنه لا طاقة لزواغة بالوقوف في وجه أبي منصور وحره ، فاقترح على زواغة ثلاثة أمور وقال لهم : « يا معشر زواغة اقترح عليكم ثلاثة أمور إن اخترتم منها واحداً أصبح وإلا فمضركم إلى الدل إما أن تتركوا حوزة طرابلس وتدخلوا إلى جزيرة جربة لتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم . وإما أن ترسلوا إلى تهرت رسلاً بكتاب من عندكم تطلبون فيه الإمام أن يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة حتى لا تدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم . وإما أن تسلموا إلى صاحبكم (ابن خلف) لأسلمه لنفوسة بالأمان وأنا أضمن لكم سلامتكم وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق » (٩٣) . ورفضت زواغة الانصياع لنصائح الشيخ ، فلما وصلهم أبو منصور طالبهم بتسليم الطيب فرفضوا فناجزهم الحرب فكان بين الفريقين قتال شديد هزمت على إثره زواغة ولجأت إلى جزيرة جربة ، وهناك اختفى الطيب بن خلف عند رجل من وجوه زواغة في جربة ، فبذل أبو منصور مائة دينار إلى الرواغي ، فدعا الرواغي إلى جربة كي يسلمه الطيب بن خلف ، وما هي إلا أن دهم أبو منصور جربة فدخلها بلا حرب ، وعلى الفور توجه الرواغي إلى ابن خلف وهو في قصره وقال له : « انزل أباها الأمير فقد أرملت كثيراً من نساء رواغة » (٩٤) . ونزل الطيب بن خلف فقبض عليه أبو منصور وقيدته ومضى به إلى الخيل فحبسه ، وكانوا يلقبونه بالطيب ابن

(٩٢) ابن الصعير : سيرة الأئمة الرسميين ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٩٣) الباروني : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٩٤) الباروني : الأرهاار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

الحديث ابن الطيب ، وظل في سجنه حتى أعلن توبته فأفرج عنه (٩٥) .

وإذا كان أبو منصور إلياس النفوسي عامل الرستميين على إقليم طرابلس وجبل نفوسة قد نجح في صد الهجوم الطولوني على شرق الدولة الرستمية في عهد أبي اليقظان ، واحتفظ بهذه الجهات هادئة في عهد أبي حاتم ، فإن أفلح بن العباس الذي خلف أبو منصور على إقليم طرابلس وجبل نفوسة لم تكن له مهارة أبي المنصور في قيادة الحروب وتوجيه الأمور فقد منى بهزيمة فادحة على أيدي الأغالية حين عزم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب على غزو الطولونيين في مصر ، فخرج سنة (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) على رأس جيش يقوده أبو بحر بن آدم (٩٦) . فاعترضت نفوسة الجيش الأغلب بين قابس وطرابلس وكانت في عشرين ألف جندي ، ولكن الأغالية تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم (٩٧) . ويذكر الدرجيني أن القتل من هذه المعركة كانوا اثني عشر ألفاً من الإباضية كان من بينهم أربعمائة من العلماء (٩٨) . ولم يكتف ابن الأغلب بذلك بل زحف إلى قنطرة فقتل منها من قتل وأسر منها ثمانين علماً . ولم تنج نفزاوة هي الأخرى من ضربات ابن الأغلب (٩٩) ، وفي غمرة هذه الأحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكناً فقد كان محاصراً لعمه يعقوب بن أفلح في تاهرت في تلك الأثناء ، وقد دفع ذلك الأغالية إلى معاودة الكرة في الهجوم على نفوسة ، ففي العام التالي سنة (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) سار إبراهيم بن أحمد ابنه أبا العباس إلى نفوسة ، فقتل

(٩٥) نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٣ .

(٩٦) ابن عساري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٩٧) نفس المصدر السابق : نفس الصفحة ، الباروني - الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٩٨) الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط . ورقة ٤٠ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط . ورقة ٣٣ ب ، ٣٤ أ .

(٩٩) الباروني - الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

منهم عدداً كبيراً ، وأسر منهم ثلاثمائة ذبحوا عن آخرهم وأخرجت قلوبهم ، ونظمت في حبال نصبت على باب تونس (١٠٠) .

وأمام هذه الضربات المتلاحقة ، انهارت نفوسه التي كانت تشكل عصب الدولة الرسمية الحساس ودرعها الواقية ، ولم تعد لها تلك القدرة الغنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصادياً وعسكرياً (١٠١) .

ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة بإسقاط هيبة الإمام في تاهرت ، رغم المحاولات التي قام بها للسيطرة على الأمور ولكن الوقت كان قد فات ، فطمع في الإمامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة في التآمر عليه وقتله سنة (٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م) (١٠٢) .

(١٠٠) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٣٠ ر

(١٠١) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٣ أ ، د . محمود إسماعيل : الأغلبية سياستهم الخارجية ، ص ١٣٤ .

(١٠٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧

(د) يقظان بن أبي يقظان

(٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

بعد نجاح المؤامرة على أبي حاتم وقتله ارتقى يقظان بن أبي يقظان إلى الإمامة ، ورغم أن فترة إمامته امتدت إلى ستين إلا أن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب ، أما الانقسام فلأن الأكثرين من شيوخ الإباضية كانوا ساعطين على يقظان (١٠٣) . ومن هؤلاء الساعطين ، شيوخ نفوسة الجبل لأنهم كانوا يعتقدون أن يقظان بن أبي يقظان مشترك في مؤامرة قتل أبي حاتم (١٠٤) . ومن عوامل الانقسام أيضاً تلك المناقشات الحادة التي سادت مجتمعات العلماء وحلقات الإباضية وكان لها أثرها في تفتيت وحدة الفكر في الدولة الرستمية (١٠٥) . أما عوامل الاضطراب فلأن خطر الشيعة ببلاد المغرب بدأ يلوح في الأفق ويقترب من حدود الدولة الرستمية ، فأبى عبد الله الشيعي تمكن من الاستيلاء على الزاب ودخل رقادة سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) بعد أن هرب منها زيادة الله بن الأغلب (١٠٦) .

(١٠٣) د . السيد عبد العزيز ساه : المغرب الكبير ، ص ٥٦٥ ، (العصر الإسلامي) .

(١٠٤) الباروني : الأذهار الرباضية ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(١٠٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

(١٠٦) ابن عتري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ابن الأبار : الحلة السرياء ، ج ١ ، ص ١٩١ (لم تنجح محاولات الشيعة في سائر النواحي من العالم الإسلامي لإقامة دولة إلا حين أرسلوا أبا عبد الله الشيعي داعياً لهم بالمغرب ، وبمجرد اختياره لهذه المهمة قرر أن يذهب إلى موسم الحج ليجمع هناك من يخرج من أهل المغرب يتعرف على منابهم وأخلاقهم فلما وصل تعرف على عشرة رجال من قبيلة كتامة وكان شيخهم على مذهب الإباضية النكارة واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يسيطر على هذه المجموعة بما أوتي من علم وفصاحة واضطجعه معهم إلى المغرب واستقر به الحال في قبيلة كتامة وبترو الوقت كشف أبو عبد الله لشيخ كتامة عن مبعثه في الدعوة لأهل البيت فالتزمت كتامة بطاعته وانضمت إليها في تأييده قتال أخرى كثيرة فأشأ لهم ديواناً وأكرمهم المسكوبة وقال لهم - أنا لا أدعوكم لنفسي وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت الذي صفته كذا وكذا - هو صاحب هذا الأمر وأنا معصوف بين يديه إذا ظهر - يقصد عبدة الله المهدي ولم يكن قد رآه قط وإنما يسمع أخباره من شيوخ الشيعة ، (ابن عتري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٨) .

وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام هذه لم يستطع يقظان بن أبي يقظان أن يفعل شيئاً لمواجهة الخطر الشيعي القادم عليه وفي منتصف رمضان سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٧ م) كان أبو عبد الله الشيعي (داعي الفاطميين في بلاد المغرب) قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التي كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الأوسط ، ذلك أن ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التي أودت بالدولة الرستمية إذ نمت هذه الحركة نحو مضطربا وأصبح لها من القوة العسكرية ما استطاعت به أن تكييل الضربات لدول المغرب وتسقطها الواحدة تلو الأخرى ، وكان من بينها الدولة الرستمية .

ولا يخفى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية فظهرت خطب الإمام على منابر الدولة وهي الخطب التي يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية (١٠٢) . وقد تجلت هذه المؤثرات في اعتناق أحد الإباضية من النكار - وهو شيخ من شيوخ قبيلة كتامة دعوة أبي عبد الله الشيعي وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال يقول ابن عذارى : « فوجد (داعية الشيعة) الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة فدخل عليه من هذه الثلمة ولم يزل يستدرجهم ويخلفهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه » (١٠٨) . ويتحدث ابن عذارى أيضاً عن الاستعدادات الضخمة التي جهزها أبو عبد الله الشيعي لضرب الدولة الرستمية فيقول : « فلما كمل له ما أراد من جيوشه وجهازه وعدده وآلات سفره استخلف على إفريقية أخاه أبا العباس وأبا زاكى تمام بن معارك الأجاني ثم خرج من رقادة يوم الخميس للصف من رمضان في جموع كالدبى المنتشر ومعه وجوه رجاله وأهل دعوته ... فسار أبو عبد الله

(١٠٧) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ (لقت قيام دولة الأدارسة نظر الشيعة إلى بلاد المغرب فأصبحت هذه البلاد ملاذاً لها وأرضاً خصبة للدعوة الشيعية التي أسمرت عن قيام الدولة الفاطمية في نهاية القرن الثالث الهجرى ، د محمد حنسى محمد أحمد الخلافة والدولة في العصر العباسى ص ٥١) .

(١٠٨) ابن عذارى : نيل المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٤

حتى حل بمدينة تهرت فدخلها بالأمان وقتل بها من الرستمية يقظان بن
أبي اليقظان ، وجماعة أهل بيته وبعث يرمسونهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زكي
خليفته برفادة وطونت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة وانتقضت دولة
بنى رستم بتهرت » (١٠٩) .

ويذكر بعض كتاب الإباضية أنه كانت لأبي حاتم يوسف بن محمد ابنة
اسمها (دوسرا) لما قتل والدها توجهت مع أخ لها إلى أبي عبد الله (الداعي)
ودعته إلى الأخد بشار أبيها من قاتليه ووعدته بالزواج منها لقاء ذلك ولكن
(الداعي) لم يجيبها بشئ (١١٠) . فلما استنجد عبيد الله الشيعي (المهدي)
بأبي عبد الله الداعي لتخليصه من سجنه ، وكان المندراويون قد سجنوه
لما تحققوا من شخصيته ، فوضع هو وابنه أبو القاسم في غرفة عند مريم بنت
مندرا (١١١) . فلما توجه أبو عبد الله (الداعي) إلى سجلماسة و مر بالقرب
من تهرت فخرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفورية
والمالكية وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدوه بالإعانة بالمال والرجال
ورغبوه في استيصال هذه العائلة كلها واقتراع الأمر من أيديهم (لأنه) لا رجال
ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام (١١٢) ،
وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم
وجود جيوش رستمية نظامية (١١٣) .

(١٠٩) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(١١٠) أبو ركرياء . السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، الباروني . الأزهار الرياضية ،
ج ٢ ، ص ٢٩٢

(١١١) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٣

(١١٢) أبو ركرياء . السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، الباروني . الأزهار الرياضية ،
ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣

JULIEN, op. cit. p. 39. (١١٣)

أرسل أبو عبد الله الداعي إلى اليقظان يطلب الاجتماع به فخرج إليه اليقظان ومعه بنوه وإخوته وأتباعه ، وعلى بعد أميال من تاهرت ، التقى اليقظان ومن معه بأبي عبد الله الداعي فقال لليقظان متجاهلا : « ما اسمك فقال له اسمي اليقظان فقال الحجابي بل أنت الحيران ما بالكم قتلتم أميركم وسلمتم من أنفسكم ملككم وأطفئتم نور الإسلام ألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ (١١٤) .

ولما سمعت دوسرا ما حدث هربت خوفا من أبي عبد الله الشيعي ، وقد بحث عنها كثيرا فلم يعثر عليها (١١٥) .

ودخل أبو عبد الله (الداعي) تاهرت (٢٩٦ هـ / ٩٠٧ م) فاستباحها ، ونهبها ، وقصد إلى المكتبة المعروفة (بالمعصومة) ليقضي على الفكر الإباضي المكتوب (١١٦) ، فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوى أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد ، أغلبها في الشريعة الإسلامية وفلسفتها وفي شرح المذهب الإباضي والاحتجاج له ، وفي تاريخ الدولة الرستمية (١١٧) ، ويقدر ما كان أبو عبد الله الداعي يريد القضاء على كل مظاهر الفكر الإباضي وإفناؤه بقدر ما كان حريصا على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية التي يقيمها ، فأخذ ما في المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من كتب الفنون ، وأحرق كل ما تبقى من الكتب وخصوصا تلك التي تتعلق بالمذهب الإباضي (١١٨) .

(١١٤) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ (وذكر ابن عذاري الرواية مع اختلاف في اللفظ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧) .

(١١٥) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، الباروني . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(١١٦) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة

(١١٧) ديور . تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٦١٧ .

(١١٨) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ، أبو ربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٤

وقام داعية الشيعة بإسعاد الدولة الرستمية رسميا وذلك بتنصيب أبا حميد دواس بن صولات اللهيضي ، وإبراهيم بن محمد التماي المعروف بالهوارى على تاهرت (١١٩) . أما الرستميون فقد انتشرت قلوبهم في البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال أوواس وإلى جبال بني راشد ، وبعضهم انطلق إلى جبل نفوسة وجربة (١٢٠) . ويذكر الدرجيني أن يعقوب بن الأفلح خرج فارا إلى ورجلان ومعه عدد كبير من العائلات الرستمية ، فلما كان في بعض الطريق نظر نظرة في النجوم وكان ممن درسوا علم الفلك والنجوم فقال لأصحابه : إنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم » (١٢١) . فلما نزل وأصحابه ورجلان رغب أهلها في مبايعة يعقوب بن الأفلح وتولته عليهم ، ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة : « لا يستتر الجمل بالغنم » (١٢٢) ، وبهذه العبارة طوى يعقوب بن الأفلح آخر من بقي من الرستميين آخر صفحة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة .

(١١٩) ابن عطارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٣

(١٢٠) ديور : تاريخ المغرب الكبير - ج ٣ ، ص ٦١٨

(١٢١) الدرجيني طبقات الإباضية ، مطبوع ، ورقة ٤٦

(١٢٢) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة

الفصل الخامس العلاقات الخارجية للرسّمين

كانت الدولة الرسّمية من أسبق الدول المستقلة عن الخلافة العباسية قياماً في بلاد المغرب ، وأصبح لها منذ إعلان قيامها سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ - ٧٧٧ م) شخصيتها كدولة ذات سيادة على مواطنيها وأراضيها ، وأصبح من حقها أن تساهم بدورها في العلاقات الدولية ، تلك العلاقات التي استفاد منها الرسّميون ، مكاسب كثيرة كانت لها آثار بعيدة المدى في دعم أركان دولتهم حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيداً من الاحتكاك سياسياً وعسكرياً وحضارياً ، وقد تنوعت هذه العلاقات قوة وضعفاً ، صداقة وعداء بحسب مواقف الدول من الدولة الرسّمية .

علاقة الرسّمين بالعباسيين :

ارتبطت علاقات الرسّمين الخارجية بالعباسيين بعاملين كانا ذا أثر كبير في طابع العداء الذي اتسمت به تلك العلاقة :

أولهما : أن العباسيين - منذ آلت الخلافة إليهم - يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثاً شرعياً تركه الأمويون لهم ، وعلى هذا نظروا إلى الرسّمين نظرة عداء ، وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما ، فقامت على أسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرسّمين اقتطعوا جزءاً من ممتلكات العباسيين .

ثانيهما : كان بين العباسيين والرسّمين ذلك العداء التقليدي الذي كان بين الخلافة العباسية السنية ، وبين الإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج .

وقد وضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولاية

العباسيين بإفريقية لعبد الرحمن بن رستم . ورغم أن أهداف عبد الرحمن بن رستم في تأسيس دولة منفصلة تماما عن الخلافة العباسية لم تكن واضحة للعباسيين ، فقد قاوم العباسيون شخصية عبد الرحمن بن رستم منذ اللحظات الأولى التي ظهر فيها على مسرح الأحداث في بلاد المغرب ، لأنه كان في نظرهم خليفة لأبي الخطاب عدوهم اللدود ، لذا حرص محمد بن الأشعث - الوالي العباسي - في القيروان سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتله لأبي الخطاب ، ولكن ابن الأشعث فشل في محاولته وانسحب إلى إفريقية تاركا عبد الرحمن بن رستم في مأمنه في جبل سوفجج (١) .

ولما لم ينجح العباسيون في القضاء على عبد الرحمن بن رستم ورأوا أن خطر هذه الشخصية بات قريبا من ممتلكاتهم في إفريقية ، أمر أبو جعفر المنصور عمر بن حفص عامله على إفريقية أن يحصن قاعدة طينة (٢) . وفي مواجهة هذه الخطوة من العباسيين حرص عبد الرحمن بن رستم على تكوين تحالف إياضي صغرى يضم سائر القوى المعارضة للخلافة العباسية ولكن عمر بن حفص - الذي تولى أمر المغرب سنة (١٥١ هـ / ٧٦٨ م) - نجح في تمزيق هذا التحالف ، وانفرد بعبد الرحمن بن رستم وقواته وألحق به هزيمة فادحة عند تهودة (٣) . ولكنه لم يتمكن من القضاء عليه ، لذا اقتنعت الخلافة العباسية بأنه من الأسلم لها أن تحتفظ بنفوذها في إفريقية ، وأن تترك المغرب الأوسط لأن محاولة استرجاعه محفوفة بكثير من الأخطار . ولعل ذلك يفسر مسلك الوالي العباسي روح بن حاتم الذي تولى أمر إفريقية سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ - ٧٨٨ م) (٤) إذ حرص على تحسين العلاقات بينه

(١) الشماخي : السير ، ص ١٣٣ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٣

(٢) التومري . نهاية الأرب ، خطوط ، ج ٢٣ ، القسم الأول ، ورقة ٢٠ ، ٢١ .

(٣) ابن عذارى . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٨٤ .

كممثل للعباسيين وبين الرستميين فمد يده إلى عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين في تاهرت طالبا موادعته ، فوادعه عبد الرحمن وكان ذلك في نفس السنة التي تولى فيها عبد الرحمن بن رستم (١٧١ هـ / ٧٨٧ - ٧٨٨ م) (٥)

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم أرسل روح بن حاتم إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي انتخب إماما بعد وفاة والده ، وطلب روح استمرار الموادعة فوافق عبد الوهاب على استمرارها (٦) . وتعتبر هذه الموادعة اعترافا رسميا من العباسيين وممثلهم في بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الأوسط .

وقد تحدثت كتب الإياضية عن شيء من العلاقات التي تمت بطريقة سرية في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بين تاهرت وبغداد ، فقد بعث عبد الوهاب إلى ابن حبيب بأثني عشر ألف درهم أو دينار « فاشترى بها الربيع جهازا من البصرة وأرسل به أخاه إلى تيهرت . فلما وردھا جمع عبد الوهاب تجار تيهرت ، فاشتروا منه جهازه واشتروا له (أخو الربيع بن حبيب) حواججه في ثمانية أمان فانصرف راجعا إلى المشرق » (٧) .

على أن المقوء الذي ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين في عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفته عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، عاد وتحرك ثانية نحو التوتر ، فعندما أخفق قرع النفوسى - المعروف بنفات بن نصر - في حركته ضد الإمام أفلح بن عبد الوهاب لم يجد مخرجا سوى الهروب إلى المشرق قاصدا بغداد ، وهناك رحب الخليفة العباسى المأمون

(٥) ابن خلدون : المعبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(٦) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب النبلى ، ج ٤ ، ص ٤١٤ ، القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ، ت . المحيى الكمى ، ص ١٧٣ .

(٧) الشماخى : السير ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

بمقدمه (٨) . وفي هذا الحادث ما يشير إلى احتواء الخلافة العباسية للخارجيين على الرستمين .

وما لبثت العلاقات الرستمىة العباسية أن بلغت قمة العداوة ، وكان ذلك عندما قبض العباسيون - في عهد الواثق العباسى - على محمد بن الأفلح الملقب بأبى اليقظان ، الذى كان يقوم بأداء مناسك الحج فى مكة . ونقل أبو اليقظان إلى بغداد حيث سجن هناك (٩) .

ولكن هذه العلاقات ما لبثت أن وجدت شيئا من التحسن بسبب العلاقة القوية التى تمت بين أبى اليقظان بن أفلح ، والمتوكل العباسى الذى كان مسجوناً مع أبى اليقظان ، فما أن اعتلى المتوكل دست الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق حتى أفرج عن صديقه أبى اليقظان ، وأكرمه وسمح له بالعودة إلى بلاده (١٠) .

وبينا كانت العلاقات بين الرستميين والعباسيين تضى فى طريق العداوة تارة والتحس تارة ، كانت العلاقات الثقافية قائمة بينهما وظهرت معالم هذه العلاقات الثقافية فى الصلة القوية بين الرستميين وإباضية المشرق الذين كانوا من الناحية الشكلية من رعايا الدولة العباسية . وكثيراً ما جرت تفاصيل هذه العلاقات الثقافية بين تاهرت والبصرة القريبة من بغداد فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أرسل ألف دينار إلى المشرق إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتباً . فلما وصلهم هذا المبلغ اشتروا به رقاً فنسخوا له فيها وقر أربعين جملاً كتباً فلما بلغته تشمر وجد لقراءتها (١١) .

(٨) البارونى : الأزهار الرباضية ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، أبو ربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٨ .

(٩) ابن الصغير - سيرة الأئمة الرستميين و تاهرت ، ص ٢٨

(١٠) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة ، [توفى الواثق فى دى الحجة سنة ٢٣٢ هـ]

(١١) البارونى : الأزهار الرباضية ، ج ٢ ، ص ١٦٤

وكثيراً ما لجأ الأئمة من الرستميين وغيرهم من علماء دولتهم إلى علماء الإباضية في البصرة وفي مكة يستشيرونهم فيما قد يظهر لهم من مشكلات سياسية وعلمية ، وكانت رسائل علماء الإباضية المشاركة تساهم في حل كثير من المشاكل التي تعرض لها الرستميون (١٢) .

ومن معالم العلاقات الثقافية أيضاً أن نفات بن نصر الثائر على الإمام أفلح بن عبد الوهاب عندما فر إلى بغداد أمضى وقته هناك في استنساخ ديوان جابر بن زيد - عالم الإباضية المشهور - وكان ذلك الديوان موجوداً في خزانة الخليفة العباسي في بغداد ، وللصلة القوية بين نفات والخليفة طلب أن يسمح له بنسخ الديوان ، فلما سمح له استطاع أن ينسخ هذا الديوان في يوم وليلة بمساعدة عدد من الوراقين في بغداد ، وقد حمل نفات بن نصر هذا الديوان معه عندما عاد إلى المغرب ثانية (١٣) .

ومن العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى البصرة في العراق بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي وهو من شعراء الطبقة الأولى في عصره ، كان فقيهاً عالماً بالحديث ورجاله . قال عنه البكري : كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث (١٤) . ولد بكر بن حماد بتاهرت ورحل عنها إلى البصرة سنة (٢١٧ هـ / ٨٣٢ م) وهناك تهل من روافد العلم ، فأخذ عن مسدد الأسدي البصري شيخ الأئمة المصنفين الأثبات ، كما التقى هناك بكبار الأدباء وعظماء الشعراء ، كالشاعر دعلج الخزاعي ، واللغوي الراوية العباس ابن الفرغ الرياشي ، والشاعر الأديب علي بن الجهم بن بدر وكذلك سهل بن محمد السحستاني أحد كبار علماء اللغة والشعر . كما التقى بالشاعر حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام) واستطاع بكر بن حماد أن يثبت وجوده في بلاط

(١٢) الدرجي : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٥ ، ٣٦ .

(١٣) عادل بويبيض : معجم أعلام الجزائر ، منشورات المكتب التجاري بيروت ، ط أول ١٩٧١ ، ص ٥٤ .

(١٤) البكري - المغرب و ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

العباسيين فاقصص بالخليفة المعتصم بالله العباسي ومدحه (١٥) . وقد ذكر الباروني بعض الأبيات التي كتبها إلى المعتصم يحرضه فيها على دجيل الخزاعي (١٦) ولكنه عاد إلى القمروان ومنها إلى تاهرت حاملاً معه هذه المؤثرات الثقافية المشرقية .

علاقة الرستميين بمصر :

سلوت العلاقات بين الرستميين ومصر في طريق ودي إذ كانت مصر تمثل الجار الشرقي للدولة الرستمية والمنفذ الوحيد لهم إلى شرق العالم الإسلامي ، ومن ثم حرص الرستميون على أن تكون هذه العلاقات علاقات حسن جوار ، إلا أنه يلاحظ أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة على حين نشطت العلاقات الأخرى ، التجارية والثقافية ومرجع ذلك أن مصر كانت ولاية عباسية خاضعة للعباسيين وتسم على نفس النهج الذي تسم عليه بغداد .

وترجع العلاقات الثقافية القوية بين مصر والرستميين إلى أن عدداً كبيراً من المصريين كانوا على المذهب الإباضي ، بل لقد كان من بين هؤلاء الإباضية المصريين علماء لهم وزنهم في رأي الرستميين فكانوا مرجعاً لهم في شؤونهم ، وفناوهم ، ومن بين هؤلاء الإباضية المصريين العلماء شعيب المصري (١٧) ، الذي قدم إلى تاهرت أيام الفتنة التي حدثت بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبين يزيد بن فندس ، وقد كان شعيب هذا يطمع

(١٥) حنبل بنونيه : معجم أعلام الجزائر ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، الرزكل الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(١٦) يقول بكر بن حاد محرراً للخليفة المعتصم على دجيل الخزاعي :

ليجرو أمير المؤمنين ورهطه ويحش على الأرض العريضة دجيل
لما والذى أوسى ليلاً مكانه لقد كادت الدنيا لذلك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله يسم فبعوا أو يقول ليفعل

(البلدوني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٧١) .

(١٧) البلدوني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

في الحصول على منصب الإمامة ، ولكنه لم ينجح في مساعيه فعاد إلى مصر بعد أن تمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على فتنة يزيد بن قندين (١٨) .

أما العلاقات التجارية فقد كانت مصر المعاصرة للدولة الرستمية تلعب دور الوسيط في التجارة بين الشرق والغرب وأصبحت تمثل مخزناً مختلف البضائع الشرقية والغربية (١٩) . وقد حثت طبيعة الامتداد الجغرافي لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذاً للقوافل الرستمية المتجهة إلى المشرق الإسلامي وخاصة القوافل التي تحمل الحجيج والرحالة والعلماء والتجار . وقد سارت هذه القوافل في الطريق التجارية التي امتدت بين مصر والواحات الغربية وبلاد المغرب (٢٠) .

وقد تولت هوانرة في شرق طرابلس وكذلك نفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى هذه المهمة فكانت « تجوب صحراء سرت ذاهية آية بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها الحرارة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية » (٢١) . وبما لا شك فيه أن هؤلاء التجار والرحالة والعلماء من الرستميين قد نقلوا كثيراً من الأفكار الرستمية إلى مصر ، كما تأثروا كثيراً بما وجدوه في مصر من مظاهر الحضارة فنقلوها إلى بلادهم .

وقد شهدت العلاقات بين مصر والرستميين شيئاً من التوتر في عهد الطولونيين سنة (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م) ، ولكن الذي يفهم من أحداث هذا التوتر الذي سبق عرضه قبل ذلك ، أن أهدافه لم تكن بسبب سياسة عدائية رسمها الطولونيون تجاه الرستميين . وإنما تمت كل دوافع هذا التوتر في ظروف شخصية بحتة ، تنصل بفتنة العباس بن أحمد بن طولون وبما يؤيد

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ١١٢

(١٩) د . سيد إسماعيل الكاشف ، أحمد بن طولون ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٨ ، ص ٢٤

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢١) دور تاريخ المغرب الكبير ، ٢ - ٣ ، ص ٢٥١

وجهة النظر هذه أن أحمد بن طولون لم يكن في مصر حين خروج حملة ابنه العباس نحو بلاد المغرب (٢٢) . ومن ناحية ثانية أفاض المؤرخون في الحديث عن بواعث هذه الحملة . يقول ابن الأثير : « عصى العباس بن أحمد بن طولون ، على أبيه وبسبب ذلك أن أباه كان قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس ، كما ذكرنا ، فلما أبعد (أحمد بن طولون) عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانشراح إلى برقة ففعل ذلك وأتى برقة في ربيع الأول » (٢٣) . ويرى البعض أن الحكومة المركزية في العراق كان لها يد في تدبير رفقاء السوء الذين التفوا حول العباس بن أحمد بن طولون ودفعوه إلى القيام بهذا العمل ، وقد عمد الموفق إلى هذه الطريقة لخلق حالة من الاضطرابات والشغب في حكومة أحمد بن طولون (٢٤) .

وعندما علم أحمد بن طولون بهذه التطورات الخطيرة التي حدثت في مصر عاد سريعا إلى القسطنطينية حرصا منه على وضع حد لهذا التوتر الذي أحدثه ابنه العباس بين الدولة الطولونية وجيرانها (٢٥) . وأرسل ابن طولون إلى العباس وفداً على رأسه أبو بكرة بكار بن قتيبة . وفشل هذا الوفد في إعادة العباس إلى مصر (٢٦) . ولكن الهزائم التي تلاحقت على العباس من الرستميين والأعاليه أضعفت شوكته ، فلم يقو على الصمود أمام الجيش الذي أرسله أحمد بن طولون لإعادة العباس ، حيث تمكن هذا الجيش من هزيمة العباس

(٢٢) ابن الأثير . الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ ، الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٠ .

(٢٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة

(٢٤) د . سيدة إسماعيل الكاشف . أحمد بن طولون ، ص ٩٤ ، ٩٥

(٢٥) ابن سعيد . المغرب في حل المغرب ، ت . ركني محمد حسن وآخرين ، ج ١ ، ص ١١٨ ، الكندي . كتاب الولاة والقضاة ، ص ٢٢٠

(٢٦) ابن سعيد . المغرب في حل المغرب ، ت . ركني محمد حسن وآخرين ، ص ١١٩ ، الكندي . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٠

هزيمة منكرة وقبض عليه وأعيد إلى مصر في شوال سنة ٢٦٨ هـ (٢٧) .

وقد أشار المؤرخ ابن سعيد إلى الحالة النفسية السيئة التي كان يشعر بها أحمد بن طولون نتيجة لتردى العلاقات بينه وبين الرستميين من جهة وبينه وبين الأغالبة من جهة أخرى يقول : « وكان الناس يرون غمه (أحمد بن طولون) بما جنى عليه العباس وأنه لم يكتف بما حمله من مصر حتى أوقع أثراً غليظاً بينه وبين إبراهيم بن الأغلب والياس بن منصور النفوسى (عامل الرستميين على جبل نفوسة) وأنه إن حاول الانتصار متهما أجحف نفسه ، وإن أمسك عنهما نقص موقعه ، وبدت عورة من عوراته » (٢٨) .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ (ويجهل ابن سعيد القبض عليه سنة ٢٦٧ هـ ، ابن سعيد : المغرب في حلل المغرب ، ت . زكى محمد حسن وآخرين ، ص ١٢٢) .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .

علاقة الرستميين بالأغالبة

(١٨٤ هـ / ٨٠٠ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى مع دولة الأغالبة وهى الجار الأقوى على حدودهم الشرقية : وقد دفع هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن علاقة الرستميين بالأغالبة لم تتخذ طابعاً عدائياً (٢٩) .

وفى الحقيقة أن انتهاج الرستميين للتعايش السلمى مع الأغالبة لا يرجع إلى ما اشتهر به الرستميون « من التقوى والمسألة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم وانصرافهم إلى شئونهم الداخلية (٣٠) » وإنما يرجع فى حقيقة الأمر إلى طبيعة الحدود المشتركة بين الدولتين ، إذ تطوق حدود الدولة الرستمية - الممتدة من تاهرت غرباً إلى طرابلس شرقاً - دولة الأغالبة من الشرق والغرب والجنوب ولم تكن هذه الحدود واضحة المعالم (٣١) . فقد كانت دولة الرستميين « مملكة بدوية صحراوية تبسط سلطانها على قبائل البادية

(٢٩) د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٢١ . (أحسنت الخلافة العباسية أن قيام الدولة الرستمية أصبح بشكل خطراً كبيراً على وجودها فى بلاد المغرب . إذ أصبحت هذه الدولة تمثل خطراً كبيراً فى سبيل إرسال أى جيش خلاف لإعادة المغرب الأقصى أو بلاد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية حيث قامت فى هاتين المنطقتين البيهقيين ، دولة الأمويين ودولة الأدارسة لهذا رأيت الخلافة ضرورة دعم قودها فى إفريقيا . وفى تلك الأثناء لمعت فى الأفق السياسى لإفريقية شخصية إبراهيم بن الأغلب الذى أسدى خدمات جليلة للخلافة تمثلت فى فضائه على ثورة الجند ، ومساهمته الفعالة فى الكيد للأدارسة وتدمير مؤامرات الاغتيال ضدهم . وإزاء هذه الخدمات قدم إبراهيم بن الأغلب إلى الرشيد عرضاً مغرباً يتضمن تنازل إبراهيم بن الأغلب فى حالة توليه إمارة إفريقية عن الإعانة المالية السنوية التى ترد إلى إفريقية من مصر وغنوها مائة ألف دينار . ويصعد هو بتقديم أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة على أن تكون إمارة إفريقية له ولأولاده من بعده ، موافق هارون الرشيد على هذا وسارع بتسليم زمام الأمور إلى إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وأعلن قيام دولة الأغالبة ، انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ابن خلدون : المعبر ، ط ١ . حار الكتاب اللباني ، ج ٤ ، ص ٤١٩ .

(٣٠) د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٢٢ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

أو الصحراء . فمع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز في القرى الجبلية أو الواحات الصحراوية إلا أنها ظلت في حالة ميوعة لا يستقر لها قرار ، فكانت تنتقل من مكان إلى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية (٣٢) .

وقد عقد أول اتفاق لتقرير مبدأ التعايش السلمي بين الرستميين والأغالبة سنة (١٩٧ هـ / ٨١٣ م) (٣٣) حين اضطر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى الاصطدام مع الأغالبة دفاعاً عن مواطني دولته من قبيلة هوازة (٣٤) . وجاءت نصوص هذا الاتفاق مراعية لمصالح الطرفين حيث أكد الأغالبة احترامهم للامتداد الجغرافي للدولة الرستمية ، ونطاقها الرعوى الداخلي في منطقة طرابلس ، وبالتالي احترام الرستميين حاجة الأغالبة إلى الشريط الساحلي لطرابلس لاتخاذهم البحر المتوسط ميداناً للجهاد ضد الروم ونشر رايات الإسلام على جزر غرب البحر المتوسط (٣٥) .

ولكن سياسة التعايش السلمي هذه التي اتبعتها الدولة الرستمية ، أملت عليها في كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها ضد الأغالبة وأطماعهم . فرأى الرستميون أن قيام محمد بن الأغلب سنة (٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م) ببناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت ، فيه مساس بمبدأ التعايش السلمي ويتعارض تماماً مع المصالح الحيوية للرستميين ، إذ استهدف الأغالبة بيناتها القضاء على المركز التجاري الهام الذي احتلته تاهرت (٣٦) ، كما شعر الرستميون أنها

(٣٢) د . سعد زعلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العرفي ، ص ٣٩٥ .

(٣٣) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ٢٠٨ .

(٣٤) ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ .

(٣٥) د . إبراهيم العلوي : بلاد الجزائر ، ص ٢١١ .

(٣٦) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٦ د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥٦٨ ، العصر الإسلامي)

بنيت لتكون قاعدة للهجوم على عاصمتهم تاهرت (٣٧) . لهذا قام أفلح بن عبد الوهاب بإحراقها وحرقتها (٣٨) .

حقاً أن الأغالبة كان لهم مسلكهم في معاداة أعداء الخلافة العباسية ، ولكنهم بالنسبة للرستميين لم يستطيعوا الإفصاح عن هذا العداء سافراً ، لذا عملوا إلى تشجيع القلاقل والخلافات التي كانت تظهر بين الحين والحين في مجتمع الدولة الرستمية ، وقد ساعدتهم على ذلك وجود جالية كبيرة من المتمردين على الأغالبة ، أعطى الرستميون أفرادها ما يشبه حق اللجوء السياسي عندهم ، فكانت تاهرت زاخرة بعدد كبير من هؤلاء القيروانيين الذين عاشوا في المجتمع الرستمي ، وهم يتمتعون بكامل الحقوق التي تمنح لمواطني الدولة الرستمية بل إن بعضهم صاهر أئمة الدولة وأصبح له من النفوذ ما لم يصل إليه غيره كمحمد بن عرفة .

وقد اندس بين هؤلاء اللاجئين السياسيين عدد من سخرهم حكام الأغالبة لإثارة الشغب كلما واتتهم الفرصة لذلك (٣٩) . وقد قام نخلف الخادم - مولى الأغلب بن سالم - في عهد أبي بكر بن أفلح بإثارة الفتنة والشقاق بين سكان تاهرت متخذاً من مقتل محمد بن عرفة ذريعة إلى ذلك ، وقد بدل في سبيل ذلك أموالاً كثيرة (٤٠) . وقد تمكن أبو اليقظان خليفة أبي بكر بن أفلح من القضاء على هذه الفتنة بعد أعوام سبعة من إقامته (٤١) .

وفي إطار مبدأ التعايش السلمي نهض كل من الرستميين والأغالبة

(٣٧) د . محمود إسماعيل عبد الرزاق . الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٣٠ .

(٣٨) ابن الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٣٩) ابن الأثير . الكامل ، ج ٦ ، ص ٥١٩ ، ابن خلدون : المعبر ، ط ١ دار الكتاب اللبناني ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٤٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣٧ .

(٤١) البلوغي . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

للوقوف في وجه العباس بن أحمد بن طولون عندما هدد الحدود الرسمية الأغلبية سنة (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م) (٤٢) . ولم يكن اشتراكهما معاً في مواجهة أطماع العباس نتيجة تحالف أو تعاون مشترك تم بينهما بل حدث نتيجة لما أحاط بالجانبين من خطر في وقت واحد (٤٣) ، ولأن هزيمة أى واحد منهما أمام العباس قد تعرض الآخر لهزيمة مماثلة تغير من طبيعة الوضع السياسى لمنطقة طرابلس . والثابت أن كلا من الرستميين والأغلبية قد نال قسطاً من تهديدات العباس بن أحمد بن طولون واعتداءاته .

وإذا كان الرستميون قد ألزموا الأغلبية بمبدأ التعايش السلمى بالقوة تارة وبالأشتراك معهم في الدفاع عن حدود الدولتين - عندما خرج العباس بن أحمد ابن طولون للاستيلاء على إفريقية - تارة أخرى فإن الأغلبية عندما استشعروا ضعف الرستميين استهانوا بمبدأ التعايش السلمى معهم واعتلوا عليهم بغية القضاء عليهم .

وقد واتهم الفرصة في إمامة آى حاتم يوسف بن محمد (٤٤) ففى سنة (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) (٤٥) اصطدم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بقبيلة نفوسة - التى كانت من رعايا الدولة الرستمية - عند موضع (قصر مانو) بين قابس وإطرابلس (٤٦) . وكانت نفوسة قد خرجت إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب في عشرين ألف مقاتل ، واندلعت الحرب بينها وبين إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ودارت الدائرة على نفوسة وقتل منها عدد ضخم جداً من الرجال والعلماء (٤٧) .

-
- (٤٢) ابن الأثير . الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢١ .
 (٤٣) د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغلبية سياستهم الخارجية ، ص ١٣٢ .
 (٤٤) ابن الصير : سيرة الأئمة الرستميين في ناهرت ، ص ٤٩ .
 (٤٥) ابن عسار : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
 (٤٦) البارونى الأزهاري الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .
 (٤٧) الدرجى : طبقات الإباضية ، مخطوط . ورقة ٤٠ ، البارونى . الأزهاري الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨١ . بن خلدون العبر ط دار الكتاب العربى . ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

وبعد هذه المعركة انهارت نفوسة التي كانت تشكل عصب الدولة
الرستمية ودرعها الواقية وسرت في الجبل حالة من الفوضى لأن أهل الرأي
في الجبل اجتمعوا وقرروا عزل أفلح بن العباس (عامل الرستميين على
الجبل) ، وقد دفعت حالة الفوضى هذه الأغلبية إلى إرسال جيش آخر سنة
(٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) (٤٨) . هجم على نفوسة واستباحها وعاد مثقلاً بالأسرى
منهم . وهناك من يرى : « أنه لولا ما جرى في هذه الأثناء من عزل إبراهيم بن
أحمد وتوجهه إلى صقلية ، لوجه ضربته التالية نحو تاهرت قلب المملكة
الرستمية » (٤٩) .

ورغم أن الأغلبية حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجارياً
وثقافياً (٥٠) ، إلا أن هناك ما يشير إلى وجود شيء قليل من هذه العلاقات التي
كانت تتم بصورة غير رسمية وعلى المستوى الشعبي فالعلاقات التجارية اليومية
كانت تسير بصورة طبيعية بين الجهات الداخلية لطرابلس التابعة للنفوذ الرستمى
وبين طرابلس نفسها الخاضعة للأغلبية . وإلى هذه العلاقات أشار ابن سعيد
بقوله : « ومنه (جبل نفوسة) تكثر طرابلس بأنواع الخيرات » (٥١) .

كما كانت هناك علاقات ثقافية قائمة بين تاهرت والقيروان تمثلت
في العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى القيروان بغية تحصيل العلم على
يد من فيها من العلماء ، ومن هؤلاء العلماء والأدباء بكر بن حماد بن سهل
ابن أبي إسماعيل الزناتى التاهرتى ، الذى وصل إلى البصرة فى العراق سنة
(٢١٧ هـ / ٨٣٢ م) (٥٢) ، وظل جازلاً في تحصيل العلم حتى عاد إلى

(٤٨) ابن عشارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٤٩) د . محمود إسماعيل عبد الرزاق : الأغلبية سياستهم الخارجية ، ص ١٣٥ .

(٥٠) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٥١) ابن سعيد . كتاب الجغرافيا ، ت إسماعيل العزى ، ص ١٤٥ .

(٥٢) البكرى . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، الترغى الأعلام . ج ٢
ص ٣٧ ، غنل بوبويص . معجم أعلام الجزائر . ص ٥٤ ، ٥٥ .

القيروان سنة (٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م) فأخذ فيها عن عون بن يوسف الخزازي
وسحنون بن سعد - حتى إذا كانت سنة (٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م) تصدر لإملاء
الأدب والعلم بجامعة الكبير فارتحل إليه كثير من أهل إفريقية والأندلس للأخذ
عنه ، وكان منهم محدث الأندلس في عصره قاسم بن أصبغ بن محمد البيالي
القرطبي ، وقد عاد بكر بن حماد إلى تاهرت سنة (٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م) ،
حيث توفي سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) بعد سنة من عودته في قلعة ابن حمة
شمال تاهرت (٥٣) ، وله شعر ذكره أكثر المؤرخين في الحديث عن تاهرت
ووصفها (٥٤) .

(٥٣) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحات .

(٥٤) (وما قاله بكر بن حماد في وصف تاهرت ما ذكره البكري :

وأحرق الشمس بتاهرت	ما أحسن البرد وريحانه
كأنها تنشر من تحت	تهدد من الغيم إذا ما بدت
تجوى بنا الريح على السمات	فحين في بحر بلا لجة
كلوحة الدمى بالسبت	نفرح بالشمس إذا ما بدت

(البكري : المغرب لذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧) .

علاقة الرستميين بالأدارسة

(١٧٢ هـ / ٧٨٩ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) :

تمثل دولة الأدارسة الجار الغربي لدولة الرستميين ، وهذه الدولة تضم إقليم المغرب الأقصى بأكمله ، هذا الإقليم يحده من الشرق وادي ملوية وجبال تازة وهما يمثلان خط الحدود مع الدولة الرستمية ، أما حدها من جهة الغرب فالبحر المحيط ، ومن الشمال بحر الروم ، ومن الجنوب جبال درن (٥٥) . ومؤسس هذه الدولة هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٥٦) .

ودولة الأدارسة دولة علوية من النوع المعتدل الذي تقترب آراؤه مع آراء أهل السنة (٥٧) ، ولذا أطلق عليها ابن عذاري اسم الدولة الهاشمية (٥٨) وقربها من أهل السنة جعلها من ناحية أخرى قرية في ميولها السياسية من الرستميين

(٥٥) د - حسن علي حسن ، دولة الأدارسة بالمغرب ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٦٧ ، ص ٤ .

(٥٦) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١٠ (والمعروف أن إدريس هذا قد اشترك في الثورة التي قادها عبد العباس بن الحسن بن علي بن الحسن بن الحسن في السيطر ، واهتبت هذه الثورة بالإيقاع بالقرار في سوسة فبع ، وتقل عددهم سنة ١٦٩ هـ ، ولكن عددا من هؤلاء الثوار تمكن من الفرار وكان من بينهم إدريس بن عبد الله ، الذي خرج متخفياً مع مولاه واتجه الاثنان إلى مصر ضمن قافلة للحجاج وعن طريق عطل الريد في مصر وأصبح مولى صالح المنصور انتقلا إلى إفريقية ومنها إلى المغرب الأقصى ، وهناك نزلا على رعيمة قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي وبعد إقامة في أوربة دامت ستة أشهر أفضى إدريس بسره إلى إسحاق بن محمد ، وحدثه عن أحقيته في الإمامة ، فجمع إسحاق عشيرته فهاجعت إدريس ثم أعقب ذلك مبايعة سائر قبائل المغرب الأقصى لإدريس ، وكان إعلان قيام الدولة الإدريسية في رمضان سنة (١٧٢ هـ / ٧٨٩ م) ، انظر الناصري : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، الفيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٢١٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١٠ ، لسان الحسن بن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من أعمال الأعلام د . أحمد مختار الميادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، القرار البيضاء ١٩٦٤ ، ص ١٩٠ - ١٩٤)

(٥٧) د . سعد رطلون عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٠٨ .

(٥٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٨٢ .

أصحاب المذهب الإباضي المتأخمين لهم في المغرب الأوسط ، والذي يمثل مذهبهم الإباضي آنح تطورات الفكر الخارجي في تلك الفترة إذ أصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة ومن ثم لم تكن هناك خلافات مذهبية حادة بين الدولتين الجارتين لذا وضع الرستميون سياستهم مع الأدارسة على أساس حسن الجوار المتبادل بينهما .

ومما دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين « أنه كان يجمع بينهما موقف موحد إزاء الخلافة العباسية وهو العداء المشترك نحوها حيث استقلت كليهما بمجزء من الدولة العباسية ، وأصبح لكل منهما شخصيتها الخاصة وكيانها المستقل بعيداً عن سلطة الخلافة العباسية وولاتها » (٥٩) .

كما كان الأدارسة يشعرون أن دولة الرستميين بالمغرب الأوسط تمثل الحارس الأمين لحدودهم الشرقية (٦٠) ، فهي بمثابة حاجز يفصل بين دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وبين الولاة العباسيين أعدائهم في المغرب الأدنى ، فأى جيش يرسله العباسيون أو ولايتهم في إفريقيا لايد وأن يخترق أراضي الدولة الرستمية ، وهذا ما لا تسمح به الدولة الرستمية ، لأنهم كانوا يتمتعون بالسيادة التامة على أراضي دولتهم ، ومن ناحية ثانية لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والعباسيين أو ولايتهم بإفريقية (٦١) . وقد كان لموقع دولة الرستميين على هذا النحو أثره في الأساليب التي اتبعتها الخلافة العباسية لمقاومة الأدارسة والقضاء عليهم . حيث لجأت الدولة العباسية إلى أسلوب الاغتيال لمؤسس هذه الدولة لأنها رأت أن فكرة ارسال جيش للقضاء على هذه الدولة تعد ضرباً من

(٥٩) د . حسن على حسن . دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٤٥ .

(٦٠) GAUTIER, op. cit. p 325

(٦١) د . حسن على حسن . دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٤٥ .

المستحيل (٦٢) . وحققت الخلافة أملها في التخلص من إدريس فأغتالته سنة (١٧٧ هـ / ٧٩٣ م) (٦٣) .

وقد أقسحت الدولة الرستمية صيرها لكثير من العلويين الفارين من العباسيين ، وقد عاش هؤلاء في المدن المنتشرة حول تلمسان وبعضهم أثر البقاء في بقاع الدولة الرستمية ، فعاشوا في بعض مدنها في شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء ، وسوق إبراهيم ومدينة ثمطلاس . وقد كان أكثر هؤلاء العلويين من أبناء محمد بن سليمان العلوي وسليمان هذا أخو إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية ، وقد استقل هؤلاء العلويون بهذه المدن بعد انقراض الدولة الرستمية وذلك في القرن الرابع الهجري (٦٤) .

ظلت العلاقات الرستمية الإدريسية تسير في جهتها في إطار علاقة حسن الجوار التي رسمها الرستميون ، إلا أن شيئا من القطيعة أصاب هذه العلاقات في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم . وكان ذلك نتيجة لموقف مغرورة وبني يفرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوذ الأدارسة (٦٥) .

(٦٢) ابن عسوى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٨٣ ، ابن الأثير : الحلة السواء ، ج ١ ، ص ٨٣ (غير عن هذا الرشيد حين استدعى وزيره يحيى بن خالد البرمكي وقال له : " وقد عرمت على أن أبعث له إدريس بن عبد الله جيشاً عظيماً لقتاله ، ثم إنى فكرت في بعد البلاد . وطول المسافة ، وتنازل المغرب عن المشرق ، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك وقد هالتني أمره فأشر على يرأيك فيه . فأشار يحيى بن خالد باتباع أسلوب الاغتيال وقام بهذه المهمة رجل يدعى الشماخ النجاشي - مولى الهادي - وقد نجح هذا الرجل في مهمته ففسد السم إلى إدريس فقتله ، وبقيت الأسلوب تمكن إبراهيم بن الأغلب من تدبير قتل راشد مول إدريس ففسد إلى : أصحباب راشد وبذل لهم الأموال إلى أن اغتالوه وبعثوا برأسه إليه . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٤٧١ ، ابن الأثير : الحلة السواء ، ج ١ ، ص ١٠٠) .

(٦٣) د . محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ، مكتبة بهجة مصر ، ١٩٥٩ ، ص ٥١

(٦٤) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ابن خلدون : المعبر ، ط دار الكتاب اللبناني ، ج ٤ ، ص ٣٤ ، ٣٥

(٦٥) د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٤٦

فقد سعى هؤلاء في تأليب واصلية المغرب الأوسط وهم رعايا الدولة الرستمية وحرضوهم على القيام بثورة ضد الإمام عبد الوهاب بهدف الاستقلال بالأماكن التي يعيشون فيها من أراضي الدولة الرستمية والعمل على ضسها للأدارة ، واستعانوا في ذلك بواصلية المغرب الأقصى وزعيمهم إسحاق بن محمد الأوروي ، وقد تمت مكاتبات بينه وبين واصلية المغرب الأوسط في هذا الشأن (٦٦) . ويبدو أن الذي دفع مغرواة وبني يفرن إلى ذلك أن يفرن هالها مقتل يزيد بن فندين - زعيم النكار في دولة الرستميين - والمعروف أن يزيد بن فندين من بني يفرن وهو فرع من زناتة التي ينتمي إليها معظم واصلية المغرب الأوسط (٦٧) . ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وتمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على ثورة الواصلية بعد حوار فكري دار بين مفكري الإباضية ، وعلماء الواصلية تلتها معركة عسكرية انتهت بهزيمة الواصلية وقمع لورتهم (٦٨) .

(٦٦) الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٣ ، ص ١١٧

(٦٧) الدرجيس : طبعات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ ، ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٤٨٤

(٦٨) الباروي : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

علاقة الرستميين بدولة سجلماسة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) :

قامت إلى الجنوب الغربى لحدود الدولة الرستمية دولة بنى ملرار فى سجلماسة ، تلك الدولة التى ترتبط مع الرستميين بأوثق الروابط ، وقد قامت دولة سجلماسة سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م)^(٦٩) ، على أساس المذهب الصفرى . وعلى هذا فأصحابها ينتمون إلى المذهب الخارجى مثلهم فى ذلك مثل الرستميين . ولذلك التفت أهداف الدولتين معاً وتوطدت بينهما أواصر المودة والصداقة^(٧٠) ، وسعت كل من الدولتين إلى كسب احترام الأخرى لها ، إذ نظر الرستميون إلى سجلماسة على أنها منفذ هام لهم إلى بلاد السودان تنقل من خلالها تجارة الرستميين وقوافلهم التجارية ، ومن ثم هبى شريان الحياة بالنسبة لبنى رستم ، كما كان بنو ملرار يشعرون بأهمية الرستميين لهم إذ أن توثيق الصلات بهم وتمسيق الروابط معهم يعطى المنرايين الأمان الذى يشعرون بالحاجة إليه كدولة صغيرة ، خاصة وأن لها جاراً قوياً وهم الأدارسة يحاربون أصحاب النحل المتطرفة من أمثال الخوارج فقد قام الأدارسة بالقضاء على الخوارج داخل دولتهم فى المغرب الأقصى^(٧١) . لذا حرص المنرايون

(٦٩) ابن خلدون : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، (كان أبو القاسم سفيون بن واصل الكفاسى صاحب عشية كثيرة يتجمع بها موضع سجلماسة ويتردد ، فاجتمع قوم من الصفرية على أبي القاسم وسكنوا معه هناك فى عجمات ، وفى سنة ١٤٠ هـ قدموا عليهم عيسى بن الأسود وشرعوا فى بناء سجلماسة ، ولكن هؤلاء الصفرية ما لبثوا أن نقموا على عيسى بن يزيد أشياء فأغلقوه وشنوا واثقه إلى شجرة فى رأس جبل ، وتركوه حتى مات ، وولوا أمرهم إلى القاسم سفيون بن واصل الذى ظهر أمر دولة سجلماسة فى أولاده من بعده) ، ابن عفرى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط (القسم الثالث من أعمال الأعلام) ، ت . د . مختار أحمد مختار الميادى وعبد إبراهيم الكنانى ، ص ١٤٠ ، ١٣٨ .

(٧٠) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٥٧٢ .

(٧١) ابن خلدون : العمر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، ج ٤ ، ص ١٤ ، د . حسن على حسن دولة الأطلسة بالمغرب ، ص ٢٥١

على إقامة ما يشبه الحلف الثنائي بينهم وبين الرستميين ، ومما دعم هذا الحلف وقوى من شأنه تقارب زعماء كل من الدولتين والثقائهما في الأهداف (٧٢) .

وظهرت نتائج هذا التقارب عندما تزوج مدرار بن المنتصر بن اليسع الذى تولى حكم دولة سجلماسة سنة (٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) (٧٣) ، من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم أول أئمة الدولة الرستمية ، ويمثل هذا الزواج قمة التقارب في العلاقات بين الدولتين وقد تحدث البارون عن الأهداف الحقيقية لهذا الزواج فقال : « وعلى عهده (اليسع بن القاسم الذى تولى الحكم سنة ١٧٤ هـ) استفحل أمرهم واشتد ملكهم وكان يرى في نفسه العظمة لكثرة الجنود والأتباع وله ابن يعرف بمدرار فلم ير له كفواً للمصاهرة غير الإمام عبد الرحمن . وكانت له ابنة تعرف بأروى فخطبها اليسع وبعد أن أظهر الإمام العزة والامتناع مع إلحاح الخطيب أجابه إلى طلبه وزوجها من مدرار ابنه ولم يصغ للمعترضين والمكبرين عليه مؤملاً أن يأتى يوم ما على أولادها إن قدر الله بحملها وهم على المذهب فيضمهم هو أو خلفه إليه أو تتوثق علائق الود بين المملكتين فلا يعطرقه منهم طارق سوء ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له قلقاً أو خللاً في داخلته إذ كان تحت حكمه من الصفرية ما يعد بعشرات الألوف من المقاتلين الموصوفين بالشجاعة والبسالة كما أن بسجلماسة من الإباضية أمثال ذلك من الفرسان الأشداء » (٧٤) . والذى يفهم من هذا النص أن اليسع سعى إلى هذا الزواج رغبة في كسب حليف قوى يحميه ، وأن عبد الرحمن بن رستم سعى إلى هذا الزواج رغبة في كسب تأييد هذا العدد الضخم من الصفرية من مواطني دولته وقد أنجبت أروى لمدرار ولداً أسماه ميمونا ، وهو الذى لعب دوراً هاماً في حياة دولة بنى مدرار في

(٧٢) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

(٧٣) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٥٠ ، البارون . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، رامبارو . معجم الأسساب ، ج ١ ، ص ١٠٢

(٧٤) البارون . الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٤

كانت العلاقات السياسية إذن قوية متينة بين الدولتين الرستمية والمدراوية بسجلماسة ، وقد فتح ذلك باب العلاقات الثقافية والتجارية على مصراعيه ، فبدأ المذهب الإباضي يغزو أراضي دولة سجلماسة ، حتى إنه بدأت تظهر كثير من مؤثرات هذا المذهب بين مواطني دولة سجلماسة . وفي هذا الصدد أشار بعض المؤرخين إلى أن المذهب الإباضي غزا فكر أئمة دولة سجلماسة وعلمائها (٧٦) . ومما وثق هذه العلاقات ودعمها أن كثيرا من رعايا الدولة الرستمية كانت تنشئ دولة سجلماسة وتعيش فيها كما قام بذلك كثير من أهل سجلماسة فأقاموا في أنحاء الدولة الرستمية (٧٧) .

أما العلاقات التجارية فكانت نشيطة إلى درجة كبيرة بين الدولتين ، لأن طريق التجارة الرستمية إلى بلاد غانا (٧٨) والسنغال (٧٩) يمر بسجلماسة

(٧٥) ابن الخطيب - تاريخ المغرب العرفي في العصر الوسيط ، ت . د . أحمد مختار العبادي وعميد إبراهيم الكفافي ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٥٠ ، (ظل مدرار جولى حكم سجلماسة حتى احتلف الأمر بين ولديه ميمون بن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم وابنه الآخر ميمون بن تقي ، وظل النزاع بين ولديه ثلاثة أعوام ، ومال مدرار مع ميمون بن أروى ، وأخرج ميمون بن تقي من سجلماسة وولى ابن الرستمية ولكن أهل سجلماسة رفضوا ذلك المسلك وأرادوا تقديم ميمون بن تقي فرفض الأمر على أبيه ، فأعادوا مدرارا إلى الحكم ولكن أهل سجلماسة ما لبثوا أن أحسوا أن مدرارا يسمي في استدعاء ابن الرستمية فيمس أطاعه من أهل درعه ليؤليه أمر سجلماسة فحاصروا مدرارا وعلوه وقلعوه وقدموا ابنه ابن تقي وظل عليهم حتى مات سنة ٢٦٣ هـ ، نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات) .

(٧٦) الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٧٧) ديور . تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

(٧٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٤٩ ، وتحدث ابن سعيد عن الطريق ما بين سجلماسة وغانا فقال : « أول ما يلقاك من هذا الجزء صحراء سيرا التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانا وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووجه الحر . . . وليس في هذا الجزء مدنية مذكورة غير أودعست » بن سعيد كتاب الجراميا ، ص ١١٣ .

(٧٩) أبرشية لوريس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٨

يقول البكري : « ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانا وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة » (٨٠) . وكانت القوافل التجارية الرسمية تغدو ذاهبة آية تعبر سجلماسة أو تستقر فيها ، تحمل من سجلماسة أنواع التجارات والمنتجات إلى الدولة الرسمية ، ومن هذه المنتجات الزراعية التي في سجلماسة مثل الكمون والكروياء والحناء (٨١) كما تنقل هذه القوافل الأزر المصنوعة في سجلماسة والتي تفوق في جودتها القصب التي تصنع في مصر (٨٢) ، ويحمل أيضا من سجلماسة ثمار شجر النابكوت الذي يستخدم في ديبج الجلد الغدامسي في غدامس (٨٣) . على أن أهم السلع التي كانت تسعى إليها هذه القوافل هي الذهب الذي كانت تحمله من غانة وتجنّي من ورائه ثراء كبيرا ، كان له أثره في ازدهار دولة الرستميين .

وقد أشار محمد علي دبور إلى هذه العلاقات القوية بين الرستميين وبينى ملرار بسجلماسة فقال : « وكانت المعاملات التجارية ، والعلاقات الثقافية ، والصلات السياسية على أتمها وأحسنها بين الدولتين دولة بنى واسول في سجلماسة ، والدولة الرسمية في تيهرت » (٨٤) .

(٨٠) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ١٤٩ .

(٨١) الباروني : الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٨٢) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٨٣) البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، ص ١٥٢ .

(٨٤) دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

علاقة الرستميين بالسودان .

كانت العلاقات الرستمية ببلاد السودان في مجملتها علاقات تجارية (٨٥) . حيث كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان ، وقد امتلك الرستميون عددا من القواعد الصحراوية التي تقع على طرق التجارة مع بلاد السودان ، وأول هذه القواعد الصحراوية في الدولة الرستمية كانت ورجلان التي ترتبط ببلاد السودان ارتباطا وثيقا والسفر منها إلى هذه البلاد كان كثيرا يقول عنها ابن سعيد « والسفر منها (وارجلان) في الصحراء إلى بلاد السودان كثير » (٨٦) .

لما القاعدة الثانية فهي غدامس حيث يهبط منها إلى الجنوب طريق التجارة إلى بلاد الكانم من أرض السودان ، وعنها تحدث ابن سعيد قائلا: « وهي (غدامس) حصون على الجادة التي تمر ببلاد كانم » (٨٧) .

وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان ، الأكسية القطنية والكثانية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وأصناف من الزجاج كخزرج الزجاج الأزرق والأصناف والأحجار وأنواع الأغاوية والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنوبر ، كما تحمل هذه القوافل النحاس الأحمر والملون ومنتجاته من الأساور والخواتم والحلق وأيضاً آلات الحديد المصنوع والفخار

(٨٥) « وهي بلاد السودان » بلاد كثيرة ، وأرض واسعة ، ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري ، وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى البحر المحيط ، وهذه البلاد تنبج جغرافياً بحر المغرب لصعوبة اتصالها بأية منطقة أخرى مجاورة ، وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد الجغرافيين القدامى فيما نقله الذكور صلاح الدين المنجد ، قال : « وليس لها « بلاد السودان » اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب ، لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم » . د . صلاح الدين المنجد : مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، دار الكتب الجديدة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢١ .

(٨٦) ابن سعيد . كتاب الجغرافيا ، ت . إسماعيل العري ، ص ١٢٦ .

(٨٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، د . صلاح الدين المنجد : مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، ص ١٥ ، ١٦ ، ٢٥ .

والخزف ذى البريق المعدنى والملح (٨٨). ويعتبر الملح أهم هذه السلع إذ يتعامل به أهل السودان كقطع العملة . يقول ابن بطوطة : « وبالملاح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به » (٨٩) .

وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام والعاج وريش النعام ، وجلود الحيوانات وقد تخصص أهل ورجلان فى قيادة هذه القوافل التجارية ، فكان منهم الأدلاء ذوى الخبرة بالطرق الصحراوية فى بلاد السودان (٩٠) .

وأشهر ممالك السودان التى كانت لها علاقة وثيقة بالدولة الرستمية مملكة كوكو (٩١) . التى تقع فى شرق نيل غانا الذى ينبع من بحيرة كورى (تشاد) كما يقول ابن سينا (٩٢) . وقد ظهرت معالم هذه العلاقات فى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى أرسل سفارة إلى ملك كوكو الذى كانت

(٨٨) البارونى : الأهرار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٥ . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٣ .

(٨٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤ م ، ص ٦٧٤ ، (وكانت الصناعات التجارية تم بطريقة غريبة فى هذه البلاد ، فإذا جاء التجار المغاربة فإن أحداً من تجار السودان لا يظهر لهم وإنما يصح المغاربة ما معهم من الملح وغيره ، ويختصون عن الأنظار فأتى التجار من السودانيين ليضعون ثم هذه الأشياء قطعاً من الذهب ويختصون ، فيظهر المغاربة وينظرون فى كميات الذهب هذه فإن كانت كافية أخذوا الذهب وتركوا الملح وغيره وغادروا بقوافلهم فإذا لم يعجبهم الفس تركوا الذهب والملح وعادوا الاختفاء ويظل الأمر هكذا حتى يدفع التجار السودانيون الثمن المناسب . د . صلاح الدين المنجد . مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ، ص ٤٦٩) .

(٩٠) ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٣ .

(٩١) البارونى : الأهرار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ، (ومملكة كوكو إحدى الممالك الخمسة التى تكونت بها مملكة مالى والسعوف أن مملكة مالى تتكون على الترتيب من الشرق بلاد تكورور ، ثم كوكو فمالى فهو صوب غناتة ، وكل مملكة من هذه الممالك الخمسة مستقل بذاته عن الأخرى) ، (د . صلاح الدين المنجد : مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ، ص ١٠٣ - ١١٠)

(٩٢) ابن سينا : كتاب الجغرافيا ، ت . إسماعيل العربى ، ص ٩٣

ملكته تبعد عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر سيرا تقريبا (٩٣) . وقام بهذه السفارة محمد بن عرفة . وقد أعجب ملك كوكو بعظمة هذا السفير الرستمي الذي جاءه يحمل هدايا أفلح بن عبد الوهاب . يقول ابن الصغير : « فعجب ملك السودان ما أراه من هيئته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل فهز يديه (محمد بن عرفة) وقال له (ملك السودان) كلمة بالسودانية ليست تعبر بالعربية لأن لا مخرج للإمساك إنما هو فيما بين القاف والكاف والجيم إلا أن معناها أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأفعال » (٩٤) .

وقد ظهرت آثار الاتصال بين التجار الرستمين وأهالي هذه البلاد واضحة في سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم و«تجارهم» (أهل كوكو) يلبسون القنطور (الجلب) والأكسية وعلى رؤوسهم الكوازي وحلهم الذهب وخاصتهم يلبسون الأزرق وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويضعونهم بالبضائع على جهة المقايضة (٩٥) . وكما حمل التجار الرستميون هذه الألوان الحضارية حلوا معهم الإسلام إلى هذه الجهات ، وكثيرا ما كان يرافق القوافل التجارية عدد من فقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركوا فيهم آثارا بعيدة المدى وبطبيعة الحال كان الأثر الذي تركه التجار المسلمون في نفوس الأهالي أكثر بكثير من الذهب الذي كانوا يحصلون عليه . وتعتبر جهود هؤلاء الفقهاء الأسس التي قامت عليها دولة مالي الإسلامية التي كان غالبية سكانها مسلمين لهم مساجدهم وفقهاؤهم (٩٦) .

وقد ظهرت في هذه المناطق بعض المؤثرات الإباضية التي تركها تجار

(٩٣) الباروني : الأرهاط الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميون ، تاهرت ، ص ٣١ .

(٩٥) الباروني : الأرهاط الرياضية ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٩٦) د . صلاح الدين المنجد . مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، ص ٤٣ - ٤٥ ، ديور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

الإباضية تمثلت في بعض من شاهدهم ابن بطوطة من الإباضية الخوارج في بلاد السودان في رحلته المشهورة (٩٧) .

وصاحب انتشار الإسلام انتشار اللغة العربية فكان الكثيرون ممن يجيدون الحديث باللغة العربية إلى جانب لغاتهم الخاصة (٩٨)

(٩٧) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٨ .

(٩٨) د . صلاح الدين المنجد : مملكة مالي عند الجفرايين المسلمين ، ص ٦٢ .

علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م هي ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) :

قامت العلاقات بين الرستميين والدولة الأموية في الأندلس على أساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة (٩٩) وقد بدأت العلاقات بين الأمويين بمثلة في شخص عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) مؤسس الدولة الأموية بالأندلس وبين الرستميين في مرحلة مبكرة ، فحين وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية فأرأى من العباسيين لجأ إلى المغرب الأوسط حيث أقام بين بني رستم الذين حافظوا عليه وأجاروه من الأخطار التي تعرض لها يقول المقرئ : « وآل أمره في سفره (عبد الرحمن بن معاوية) إلى أن استجار بيني رستم ملوك تهرت من المغرب الأوسط » (١٠٠)

كان من الطبيعي إذن أن يتم التآلف بين أمراء بني أمية في قرطبة وبين الأئمة الرستميين في تاهرت ، وتقوم العلاقات بين الدولتين على أساس من

(٩٩) أسس هذه الدولة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وقد عُرف و بالداخل و لدعوله الأندلس ، وكان قد فر من بطش العباسيين الذين لم يدخروا وسعاً في تتبع أبناء البيت الأموي وقتل أفرادهم والتكثير بهم بعد سقوط دولتهم واستيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة منهم . هرب عبد الرحمن بن معاوية إلى مصر ومعه اثنتان من مواله وهما بدر وسالم ، ومن مصر انتقل الثلاثة إلى إفريقية ، ومن هناك تقلب في قبائل البربر حتى استقر على ساحل البحر ومن هناك أخذ في دراسة الأحوال في بلاد الأندلس وأنسب الأماكن لنزوله فيها ، وكانت من في الأندلس من موالى بني أمية ، فاستجابوا إلى دعوته ، فعبر إليهم في ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ، واستجاب كثير من الناس إلى دعوته ، وانضم إليهم الكثيرون من بني أمية الذين انقلبوا عليه من المشرق . ولما اكتملت له الجهود تحرك بها نحو قرطبة ، وهزم يوسف الفهري الذي انتهى أمره بهزيمته وقبلة في غرناطة ، واستطاع عبد الرحمن الداخل بعد ذلك أن يؤمن دولته ويضع أركانها فظلت قوية مرهوبة الجانب من سائر جهاتها) . (لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، ت : ألفي بروفنسال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، رباط الفتح ١٩٣٤ م ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ٨ ، ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٣٥ ، أحمد بن المقرئ التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، دار الكتاب العربي بيروت ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج ٤ ، ص ٢٨)

(١٠٠) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، د . عمود مكي الخوارج في الأندلس ، تطوان - مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية . العدد الأول ١٩٥٦ ، ص ١٧١

الصداقة والتحالف والمودة ، إذ كان الأمويون في الأندلس محط عداء العباسيين ومكائدهم ، كما كان العباسيون أيضا أعداء للإباضية في تاهرت . ومما دفع أمراء بنى أمية أيضا إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منقذ في بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط ، لأن المغرب الأدنى قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين ، والمغرب الأقصى فيه دولة الأدارسة الشيعية التي كانت علاقاتهم بالدولة الأموية في الأندلس تتسم بالعداء والحذر والترصص (١٠١) - فقيام هاتين الدولتين أوصدت جميع المنافذ والسبل في وجه الإمارة الأموية الفتية ، وأصبحت الدولة الرستمية هي الشريان الوحيد الذي يستطيع أن يغذى تلك الإمارة بالحياة ويتعاون معها سياسيا واقتصاديا وحضاريا (١٠٢) .

وفي إطار التعاون السياسي بين الدولتين ارتبطت كل منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، وكان زعماء كل من الدولتين يتابع نشاط الآخر بإعجاب بالغ ، واستقبل الرستميون كبار رجال الأندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها ، وأصبح منهم من عاون الأئمة في شئون الإدارة والحكم وقد اشتهر من بينهم الثمان هما عمران بن مروان الأندلسي ، ومحمود الأندلسي اللذان كانا ضمن الجماعة التي رشحها عبد الرحمن بن رستم لاختيار واحد منها لتولي الحكم في الدولة الرستمية بعد وفاته (١٠٣) .

وظلت الدولتان تسمى كل منهما إلى كسب صداقة الأخرى ، ففي سنة (٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أبناءه الثلاثة في سفارة رسمية إلى قرطبة عاصمة الإمارة الأموية وقد كان يوم

(١٠١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٩ د . حسن علي حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٦٢ .

(١٠٢) د . إبراهيم العدوي : بلاد الجزائر ، ص ٢٢٠

(١٠٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٠ ، د . إبراهيم العدوي : بلاد الجزائر ، ص ٢٢١

وصول هذه السفارة الرسمية إلى قرطبة يوما عظيما مشهودا (١٠٤) ، حيث استقبلهم عبد الرحمن الثاني استقبالا ملكيا رائعا أنفق عليه مليوناً من الدينارين ، حتى أصبح حديث الناس ومصدر إعجابهم (١٠٥) .

وفي عهد أفلح بن عبد الوهاب تمت العلاقات الرسمية الأندلسية ثموا مضطربا وكانت كلتا الدولتين تبليغ الأخرى بأخبار انتصاراتها أولا بأول وتبادل الهدايا فيما بينها بهذه المناسبات . فحين ابنتى الأغالية مدينة العباسية سنة (٢٢٧ هـ / ٨٤١ م) قرب تاهرت لتهند عاصمة الرستميين وتؤثر على مركزها الاقتصادي والسياسي ، قام أفلح بن عبد الوهاب بهدمها وإحراقها ، وبادر بإخبار حليفه عبد الرحمن الأوسط بما فعل فأرسل إليه عبد الرحمن الثاني (الأوسط) هدية كبيرة قدرها المؤرخون بمائة ألف دينار (١٠٦) . وأصبح تبليغ أنباء الانتصارات بين الدولتين تقليدا سياسيا متبادلا بينهما ، فحينما انتصر عبد الرحمن (الأوسط) على الجوس (النورمانديين) في سنة (٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) بادر بإبلاغ ذلك النصر إلى حليفه الرستمى أفلح بن عبد الوهاب (١٠٧) .

وقد استعانت الدولة الأموية في الأندلس بعدد من خيرة القادة الرستميين في أعماقهم الحربية فاستعان الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بالقائد الرستمى محمد بن رسم في القضاء على الثورة التي قام بها هاشم الضراب

(١٠٤) د . محمود مكى : الخوارج في الأندلس ، تطوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الأول ١٩٥٦ ، ص ١٧٢ ، محمد بن تايوب . دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٦ .

(١٠٥) د . إبراهيم العدوى - بلاد الجزائر ، ص ٢٢٢

(١٠٦) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، البلاوى : تنويع البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٧

(١٠٧) د . محمود مكى : الخوارج في الأندلس ، تطوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الأول ١٩٥٦ ، ص ١٧٢ (الجوس أو النورمانديون وهم شعب تحرك من شمال أوروبا ومن الدانمرك) ، د . علي محمد حمودة : تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ، ص ١٥٧ .

بطليلة سنة (٢١٤ هـ / ٨٢٩ م) (١٠٨) ، كما استعان الأمير عبد الرحمن
بمحمد بن رستم أيضاً في صد الغارات التي دأب الجوس (النورمانديون)
على شنها على شواطئ الأندلس ، وتمكن هذا القائد الرستمي من القضاء
على هذا الخطر الجوسي الذي كان يتهدد المسلمين في بلاد الأندلس (١٠٩) .

كما شهد بلاط الأمويين في الأندلس عددا من رجالات السياسة
من الرستميين الذين احتلوا منصب الوزارة والحجابه في دولتهم . فكان منهم
الوزراء والحجابه الذين أثبتوا كفاءة لا مثيل لها . يقول ابن القوطية : « وكان
له (عبد الرحمن بن الحكم) (٢٠٦ هـ / ٨٢٣ م) وزراء لم يكن للخلفاء
قبله ولا بعده مثلهم ، بعد عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب المتقدم
ذكره ، فمنهم عيسى بن شهيد ، ويوسف بن بخت ، وعبد الله بن أمية بن زيد ،
وعبد الرحمن بن رستم » (١١٠) وقد تولى عبد الرحمن بن رستم هذا أيضاً
منصب الحجابه في عهد عبد الرحمن بن الحكم بعد وفاة عبد الرحمن بن غانم
الحاجب ، وفي ذلك يقول ابن القوطية أيضاً : « ثم مات عبد الرحمن بن غانم
فصارت الحجابه بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم » (١١١) .

ويوجد عند ابن الأبار نص يثبت أن عبد الرحمن بن رستم الوزير
والحاجب في عهد عبد الرحمن بن الحكم (الثاني) هو ابن القائد الرستمي
محمد بن رستم وأنه هو ووالده قد دخلا الأندلس أيام كان عبد الرحمن بن
الحكم أميرا من قبل والده الحكم على شلونه يقول ابن الأبار : « محمد بن

(١٠٨) ابن عسار ، البيان المغرب ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، ابن خلدون : المعبر ، ط . دار الكتاب اللبناني ،
ج ٤ ، ص ٢٨٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

(١٠٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ت . عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين بيروت
١٩٥٧ ، ص ٨٣ .

(١١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٨٣ .

(١١١) محمد بن تايوت : دولة الرستميين أصحاب تاهرب ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية
في مدريد ، ص ١٢٦ .

سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رسم ، - دخل أبوه إلى الأندلس - وكان محمد هذا يباحية الجزيرة ، وأصطنعه عبد الرحمن بن الحكم في إمارته على شقوة من قبل أبيه الحكم ، فكان مأنس به في بعض الأحيان . ثم أفضت إليه الخلافة فاستقدمه وصرفه إلى الحجابة والوزارة ، وهو أحد القواد الذين كان فتح الجوس على أيديهم باشيلية إلى فتوحات تعلم له وكان أدنيا حكيما ، (١١٢) .

وإذا كانت الدولة الرسمية قد منحت بعض مواطني الدول التي تختلف معها سياسيا ومذهبيا حق اللجوء السياسي ، وأعطتهم كل ألوان الحماية فإنها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدولة الأموية ولم تسمح لهم بالقيام بأي نشاط سياسي ضد حلفائهم الأمويين في الأندلس ، وفي نفس الوقت منحت الدولة الرسمية حق الاستيطان والإقامة لكل أندلسي وفد إليها للتجارة أو العمل دون الإضرار بالعلاقات الطيبة المتوطنة بين الدولتين . ويروى ابن القوطية قصة طريفة تبين لنا مدى حرص الرسميين على توثيق هذه العلاقات وهذه القصة تروى أن عمر بن حفصون الذي قام بثورة ضد أمير قرطبة فر إلى تاهرت واختفى بها استعداداً للعمل ضد الأمويين ، واشتغل مساعداً لأحد الخياطين الذين وفدوا على تاهرت من مدينة « رية » بالأندلس ضمن الوافدين من أهل الأندلس رغبة في متابعة نشاطهم الاقتصادي وازدياد الثراء وبينما عمر بن حفصون يجلس عند الخياط جاء شيخ ومعه ثوب ، « فقام إليه الخياط ووضع له كرميا فقعده عليه فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا ، فقال غلام من جيراني برية أتى ليخيط عندي ، فالتفت الشيخ إليه فقال له : متى عهدك برية ؟ قال له : أربعين يوما ، قال : تعرف جبل بيشتر ؟

(١١٢) ابن الأثير : الحلة السوداء ، ت . د . حسين مؤنس ، ص ٣٧٢ ، محمد بن تلويت : دولة الرسميين أصحاب تاهرت : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ص ١١٦ (يذكر محمد بن تلويت نقلاً عن ليفي بروغس أن عبد الرحمن بن رسم (الويرير والحاجب في عهد عبد الرحمن بن الحكم الثالث) هو الأب البكر لمحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رسم ، نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة)

فقال له : أنا ساكن عند أصله ، قال له الشيخ : فيه حركة . قال : لا . قال : قد أذهله ذلك ثم قال : هل تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون ، فذكر من قوله وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون قد أقض الثنية فقال له : يا منحوس تخارب الفقر بالإبرة ، ارجع إلى بلدك ، فأنت صاحب بى أمية وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكا عظيما . فقام من فوره ، وذلك خوفا أن ينبش الأمر وأن يتقبض عليه بنو ألى اليعقوبان (٢٤١ هـ / ٨٥٠ م) . وكانوا مالكي تهرت وولأؤهم لبنى أمية ، فأخذ حبرتين من الخباز ، وألقاهما في كفه وخرج فألى الأندلس (١١٣) .

ولم تكن العلاقات السياسية هى كل ما يربط الرستميين بالإمارة الأموية فى بلاد الأندلس بل قامت العلاقات الاقتصادية التجارية على نحو فريد بين الدولتين ، وتتمثل هذه العلاقات التجارية فى تلك التسهيلات التى منحها الرستميون للتجار الأندلسيين ، فقد فتحت أمام هؤلاء التجار الطريق إلى سائر بلدان العالم الإسلامى ، وأتقلد بهم بذلك من الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليهم الأغلبة والأدارة ، وقد قويت هذه العلاقات التجارية فى ظل حاجة الأمويين فى الأندلس إلى الأسواق الخارجية لتصريف منتجاتهم التى زادت بسبب التقدم الذى أحرزه الأمويون فى الأندلس فى ميادين الزراعة والصناعة ، كما أنهم كانوا فى حاجة إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلاد الإسلامية ، وقد يسر لهم الرستميون جميع السبل ، ففتحوا لهم موانئهم فى تنس ومستغانم ووهران لاستقبال البضائع الأندلسية ولاسيما المصنوعات الحريرية ، وقام الرستميون بدور الوسيط فى نقل هذه المنتجات وتصريفها فى

(١١٣) ابن القنوطية : تاريخ احتاج الأندلس ، ت . عبد الله أنيس الطباع ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، د . إبراهيم العدوى . بلاد الجزائر ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٠ ، ٥٧١ (والمعروف أن عمر بن حفصون لما قُتل فى مساعيه ضد الأمويين فى الدولة الرستمية لجأ إلى الأعالة فكتب ابن الأعلب وأخبره أنه يعمل بى العباس ضد الأمويين بالأندلس ، ولكن إبراهيم ابن الأعلب عطف إلى أطماعه فلاطمه بالهناديا دون أن يساعده ، أما ضد الأدارة فقد وجد المرعبي والتأييد ، ابن خلدون العير ، ط . دار الكتاب اللباني ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . ص ٥٦٩

بلاد السودان ومصر والمشرق العربى ، حتى أصبحت قوة الاقتصاد الرسمى سندا للإمارة الأموية فى عمليات التصدير والاستيراد وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من المصادر العالمية ، وترددت أصدااء هذا الازدهار الاقتصادى بين الدولتين فى نشاط الأساطيل التجارية الأندلسية وازدهار المدن والموانئ الرسمية الأموية وبخاصة قاهرت وقرطبة (١١٤) .

وصاحب هذه العلاقات السياسية الاقتصادية علاقات ثقافية حضارية ضخمة بين الرستميين والأمويين فى الأندلس ، إذ أصبحت الدولة الرسمية الجسر الذى ضمن استمرار التدفق الحضارى من المشرق إلى بلاد الأندلس لهذا حرص الأمراء الأمويون على استغلال هذا الجسر رغبة منهم فى ربط إمارتهم البعيدة بتيار الحضارة الإسلامية فى المشرق ، وعن طريق الرستميين لنجح أمراء بنى أمية فى الأندلس فى الحصول على ما يحتاجون إليه من كنوز المشرق العربى ومؤلفاته وخطوطاته وكذلك علمائه وكانت لدى الرستميين مكتبهم الضخمة التى عرفت بالمعصومة والتى حوت عددا ضخما من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون بالإضافة إلى جهود علماء الدولة المحليين (١١٥) .

وبذا يكون الرستميون قد قاموا بدور الوسيط الثقافى كما قاموا من قبل بدور الوسيط التجارى ، فأخذوا من المشرق وأعطوا الأندلس فكانت بلادهم ماء الحياة الذى جدد انطلاق الإسلام إلى غرب أوروبا عن طريق الأندلس (١١٦) .

ونتيجة لهذا الدور الثقافى الذى اضطلع به الرستميون ظهرت مؤثرات إيجابية فى بلاد الأندلس إذ أنه من الطبع أن تترك هذه العلاقات القوية آثارها

(١١٤) د . إبراهيم العلوى : بلاد الجزائر ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، أرشيبالدويس . القوى البحرية والبيطرية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، ص ٣٦٠ .

(١١٥) د . إبراهيم العلوى : بلاد الجزائر ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(١١٦) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

في الشعب الأندلسي ، وإن لم يكن لها من القوة ما يظهرها بشكل واضح نتيجة لسيطرة العقيدة السنية المطلقة على الأندلسيين ، وقد ظهرت هذه المؤثرات في مناطق الاحتكاك التجاري بين الرستميين والأمويين في قرية بلفين في منطقة المرية (التي كان أهلها على مذهب الخوارج لا يسترون) (١١٧) وكان أحد المعلمين بقرطبة وهو جابر بن غيث اللبلي يعلم أبناء الوزير هشام بن عبد العزيز . وكان هذا المعلم كثير التشدد حتى إنه كان في صرامته يقارب الإباضية (١١٨) .

وإلى الأندلس رحل كثير من علماء الدولة الرستمية يسمعون على علمائها ويروون عنهم . ومن هؤلاء قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي (١١٩) ، وبكر بن حماد التاهرتي ، وأحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي الذي حظى بمكانة عظيمة عند مندر بن سعيد القاضي فسمع منه تواليفه كلها كما سمع من أبي وكيم ، وقاسم بن أصبغ ، ووهب بن مسرة ، ومحمد بن معاوية القرشي وأبي بكر الدينوري (١٢٠) .

(١١٧) د . محمود مكي : الخوارج في الأندلس ، تطوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ، ص ١٧٥

(١١٨) من المرجع السابق ، ص ١٧٣

(١١٩) الحميدى : جدوة المقتبس في ذكر ولاد الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٢

(١٢٠) من المصدر السابق ، ص ١١٤

الفصل السادس

حضارة الرستميين في بلاد المغرب

تقف الدولة الرستمية في طليعة الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية في بلاد المغرب^(١). وكان قيامها في بلاد المغرب الأوسط سنة (١٦٠ هـ / ٧٨٦ م)، نديراً يتغير موازين القوى في المنطقة^(٢). حيث أن قيامها أجبر الرشيد العباسي على اعطاء أسرة الأغالبة الحق في إقامة دولة تحمل اسمهم، يتوارثها أبناء هذه الأسرة خالفاً عن سالف^(٣). كما أصبح المغرب الأقصى بعد قيام دولة الرستميين في المغرب الأوسط، منطقة منفصلة بعيدة عن بطش العباسيين وسطوتهم، فأقام فيه الأدارسة الهاشميون دولتهم سنة (١٧٢ هـ / ٧٨٩ م)^(٤). وفوق هذا كله أصبحت بلاد الأندلس أكثر أماناً وعزلة عن العباسيين، مهياةً لأن يقيم فيها عبد الرحمن الداخل الفولة الأموية الثانية.

وإذا كانت هذه هي النتائج الحاسمة لقيام دولة الرستميين، فإن تعدد هذه القوى الجديدة في بلاد المغرب، واختلاف اتجاهاتها ومشاربها الفكرية والسياسية، تحد خلق نوعاً من التوازن والاستقرار السياسي والحضاري فلم تحاول أي من هذه القوى إقلاق القوى الأخرى، وإنما كان وجودها طليعة للتنافس في جميع مجالات الانتاج الثقافي، وفي كل أسباب الحضارة ومظاهرها. ولندع القوى الأخرى جانباً، لتتحدث عن أهم مظاهر الحضارة في دولة الرستميين بالمغرب

نظام الحكم والإدارة :

اتسم نظام الحكم في مطلع الدولة الرستمية بالبساطة الشديدة ، فاتخذ حاكم الدولة لنفسه لقب « إمام » (٥) . وبمقتضى ذلك أصبح رئيس الدولة مصدرا لجميع السلطات دينية كانت أم سياسية ، ويظهر ذلك من خلال حوار البيعة ، الذى دار بين رؤساء الإباضية وشيوخهم ، وبين عبد الرحمن بن رستم حيث قالوا له : « ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا لإمام نلجأ إليه في أمورنا ، وبحكم عنده فيما يتوب من أسبابنا فقال لهم : إن أعطيتون عهد الله وميثاقه ، لتستطيوا إلى ، ولتطعموني فيما وافق الحق وطابقه ، قبلت ذلك منكم ، فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك » (٦) .

ويبدو أن اختيار الإباضية لقب « الإمام » - للدلالة على رئيس الدولة - كان نابعا من تأثيرهم بنظرية الشيعة عن الإمامة الظاهرة والإمامة المستترة (٧) . وربما كان سلوك الإباضية هذا المسلك ، يوحى من تأثيرهم بالتنظيمات السرية للدعوة للمذهب الشيعى في المشرق ، حيث اتخذ أئمة المذهب الإباضى بعض الترتيبات ، التى يفهم منها سريان هذا التأثير في المذهب الإباضى في المشرق ، فالمعروف أن إمام الإباضية الأكبر أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، كان يلقت مبادئ المذهب الإباضى لتلاميذه في سرية كاملة بعيدا عن رقابة الأمويين في البصرة ، وهذا يعنى تقنين الاستتار في مرحلة الدعوة للمذهب ، إلى حين ظهور أمر الدعوة . فقد كان أبو عبيدة يلقت تلاميذه المغاربة - حملة العلم ومنهم عبد الرحمن بن رستم - العلم في « سرب على فمه سلسلة ، فإذا أقبل أحد حركت فيسكتون ، وإذا انصرف حركت فيأخفون في القراءة » (٨) . ويفهم من آخر حوار دار بين حملة العلم وأبى عبيدة ، أن أبا عبيدة أجاز لهم الاستتار في مرحلة الدعوة في بلاد المغرب حتى يقوى شأنهم ، فإذا أنسوا من أنفسهم قوة ظهوروا ، إذ لم تعد هناك حاجة إلى الاستتار (٩) .

وقد ظهرت هذه المؤثرات واضحة في الفكر الإباضى في بلاد المغرب ، قبيل قيام الدولة الرستمية بفترة قصيرة جدا ، حيث كان أبو حاتم الإباضى ،

كما تروى المصادر الإباضية، يتولى الإمامة الظاهرة في شرق المغرب الأوسط، وأطلق عليه الإباضية اسم (إمام الدفاع) (١٠). وكان أبو حاتم - كما يروى الشماخي - « يرسل ما راد على ما يحتاج إليه مما جمع من الزكاة، لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور » (١١). وهذا يعني أن عبد الرحمن بن رستم كان يمثل الإمامة المستترة في نظر الإباضية، الذين احتفظوا له باعتباره رئيساً لدولتهم الجديدة - بعد إعلان قيامها - بلقب الإمام الذي اجتمعت في يده كل عناصر السلطة.

وقد راعى رؤساء الإباضية وشيوخهم - عندما اختاروا عبد الرحمن بن رستم إماماً للدولة كل القواعد التي قننت في المذهب الإباضي حول اختيار رئيس الدولة، وطبقوا شروط البيعة تطبيقاً يكاد يكون حرفياً. فيروى الشماخي أن رؤساء الإباضية اتفق رأيهم على « عبد الرحمن لفصله، وكونه من حملة العلم، ولكونه عامل أئى الخطاب على إفريقية وما والاها، ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل » (١٢) ويبدو أن فقهاء الإباضية أرادوا أن يضعوا شروطاً مثالية لاختيار إمام دولتهم. فالفضل الذي تحدث عنه الإباضية في هذا النص، يوازى العدالة، التي تعنى الكمال الأخلاقى بسلامة الاعتقاد والجوارح، والنزاهة في التصرفات الشخصية (١٣) وأما كونه من حملة العلم، فالعلم شرط أساسى يجب توافره في الشخص المرشح للإمامة، وأيضاً في طبقة أهل الاختيار، أصحاب الحق في انتخاب الإمام أو الخليفة في البيعة الخاصة (١٤). أما الشرط الثالث، وهو « كونه عامل أئى الخطاب على إفريقية » فهو شرط يمثل فكرة التعيين أو الوصية، التي تحولت إلى مبدأ الوراثة بعد ذلك في تسلسل منصب الإمامة في أبناء عبد الرحمن بن رستم إلى نهاية الدولة (١٥). أما المبدأ الرابع، وهو « أنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل »، فهو شرط سياسى، يهدف إلى حماية الجماعة الإباضية من الاستبداد، كما يطمح إلى تحقيق الإمامة المثالية، التي يكون العدل عصيتها (١٦). وقد ذكر شيوخ المذهب الإباضى ذلك صراحة حين قالوا: « فإن على (عبد الرحمن بن رستم) فذلك الذى أردتم، وإن سار فيكم بغير العدل عزوه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه » (١٧).

وتعنى هذه القواعد السابقة تطوراً واضحاً في بناء الفكر السياسي للخوارج في بلاد المغرب ، فقد تطرق إلى مبدأ الانتخاب العام - الذي اشتهرت به جماعات الخوارج - بعض المؤثرات ، كتسلسل فكرة التعمين أو الوصية - التي ازدهرت في المشرق الإسلامي لدى الشيعة - إلى نظام الحكم في الدولة الرستمية ، فبدأت هذه المؤثرات بسيطة في ذهن الإباضية ، متمثلة في أن عبد الرحمن بن رستم كان عاملاً لأبي الخطاب على القيروان في إفريقية ، وتطورت هذه الفكرة إلى أن أصبحت في الدولة الرستمية فكرة توريث مطلق . وهذا ما يلفت النظر ، إذ أن الإمامة انحصرت إلى نهاية الدولة الرستمية ، في خلف عبد الرحمن بن رستم ، وذلك بالطبع يؤكد تغلب فكرة التوريث والتعمين على مبدأ الانتخاب العام ، ويعنى هذا من ناحية أخرى التغلب على الطابع الديني في نظم الحكم الرستمية ، وتحول الإمامة الرستمية إلى سلطة مركزية أشبه ما تكون بالملكية المطلقة (١٨) .

فعبد الرحمن بن رستم حين أحسن بدنو أجله ، اقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب ، فاختار سبعة من كبار رجال دولته من أهل التقوى والورع والصلاح ، وكان من بينهم ولده عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وأوصى هؤلاء السبعة بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم (١٩) . والذي يهمنا أن نوضحه هنا ، أن وجود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بين الرجال السبعة المرشحين للإمامة ، لم يكن لترجيح اختيار أحد هؤلاء الرجال للإمامة ، كما كان دور عبد الله بن عمر بن الخطاب في الجماعة التي اختارها عمر بن الخطاب لهذا الغرض (٢٠) . وإنما كان وضع عبد الوهاب مختلفاً جداً ، فهو أحد السبعة المرشحين للإمامة من جانب والده . فإذا أضفنا إلى هذا بعض الملابس التاريخية ، التي كانت في نهاية عهد عبد الرحمن بن رستم ، وبعد وفاته مباشرة ، فهمنا أن الأمر كان أشبه ما يكون بالوصية من عبد الرحمن لولده عبد الوهاب ، وإن أخذ في مظهره مراعاة تقاليد المذهب الإباضى من الناحية الشكلية في البيعة الخاصة ، التي تكون بين الرجال السبعة . فالبيت الرستمى كانت تدعمه النعرات القبلية ، وجماعات المعجم من الفرس ، والجنود (٢١) ، حيث وقفت القبائل الإباضية الكبرى في المغرب الأوسط والأدنى ومعها هذه الجماعات ، تدعم هذا النظام الجديد إلى أبعد الحدود ،

ومن هذه القبائل الإباضية بو يفر - وهم فرع قوى من قبيلة رنانة البترية - الذين أفضى تعصبهم إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم لأن أمه كانت منهم - إلى تنصيبه إماما للدولة (٢٢). كما كانت هناك قبائل نفوسة التي استأثرت بكثير من المناصب العامة في الدولة ، فكان منها كثير من رجال الإدارة والجند ، وقد أمدت هذه القبائل بالذات ، الخزانة الرستمية ، بمبالغ كبيرة كانت تدفعها كصرايب للدولة (٢٣). وكانت هزيمة قبائل نفوسة ، في موقعة قصر مانو أمام الأغالبة سنة (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) ، سببا في ضعفهم وعلم قيامهم بدورهم في حماية النظام الرستمي ، مما أدى إلى انهياره وسقوطه (٢٤). وأعتقد أن هذا العامل القليل يمكن أن يكون أساسا مقبولا لتفسير هذا التطور الذي ظهر في الفكر السياسي الإباضي الخارجي في بلاد المغرب. إذ حرصت هذه القبائل البربرية الإباضية وجماعات الفرس ، والجند على ألا تفقد مكانتها في الدولة .

وكان الاحتفاظ بأبناء البيت الرستمي على رأس هذه الدولة ، سبيلا إلى احتفاظهم بمكانتهم ، والملاحظ أنه في عصر الأئمة الرستميين الأقوياء ، حرص هؤلاء الأئمة على التعيين أو الوصية لأبنائهم ، فعبد الرحمن بن رسم عين ولده عبد الوهاب ، ضمن السبعة المرشحين للإمامة ، وعبد الوهاب أوصى صراحة بالإمامة لابنه أفلح ، حيث يذكر ابن الصغير ، أن عبد الوهاب في أثناء حربه مع بني مسالة - الخارجين عليه - لما رأى شجاعة ولده أفلح في القتال ، قال لمن معه : « لقد استحق أفلح الإمامة ، فكان أول يوم عقدت له الإمامة » (٢٥). أما في عهد الأئمة الضعاف - خلفاء أفلح بن عبد الوهاب - فلم يعد الأمر في حاجة إلى الوصية ، أو التعيين ، لأن الأمر كان بيد القبائل ، وجماعات العجم من الفرس وكذلك جماعات الجند المساندة للبيت الرستمي . وقد وقف أحد زعماء الإباضية ، وهو عبد العزيز بن الأوز ، معترضا على هذا التطور الذي ساد الدولة الرستمية ، وكان يصرخ في الناس بأعلى صوته موجهها كلامه إلى رجال نفوسة قائلا : « الله سائلكم معاشر نفوسة ، إذا مات واحد ، جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين ، وتردوه إليهم فيختارون من هو أبقى وأرصى . فلا ينتفون لكلامه » (٢٦).

وغلب على عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم - ثانی أئمة بنی رستم - طابع الانفراد بالسلطة دون تدخل من جانب شيوخ المذهب الإباضی . ويعزى ذلك لنجاح عبد الوهاب في مقاومة حركة النكار ، الذين وصعوا شرطا لصحة ونفاذ إمامة عبد الوهاب ، وهو أن يكون هناك مجلس يعود إليه الإمام في كل أمر من أمور الدولة ، ولا تصبح قرارات الإمام نافذة المفعول إلا بعد موافقة هذا المجلس عليها (٢٧) . وقد استصدر عبد الوهاب فتوى من أئمة المذهب الإباضی في المشرق بصحة إمامته ، وبعلان الشرط الذي علق عليه « النكار » صحة إمامته (٢٨) .

وإذا كان عبد الوهاب قد رفض نهائيا فكرة إقامة مجلس للشورى لمراقبة تصرفاته ، وحارب « النكار » أصحاب هذه الفكرة الذين أنكروا إمامته - وانفرد هو بالسلطة الكاملة ، دون تدخل من جانب شيوخ الإباضية ، فإن ولده أفلح بن عبد الوهاب - الذي جاء بعده - لم يتمكن من الانفرد بالسلطة المطلقة في إدارة الدولة . حيث اضطره شيوخ المذهب الإباضی إلى قبول جماعة الشراة التي قامت بعمل مجلس الشورى (٢٩) . وهم كما يصفهم الباروني - صاحب الأزهار الرياضية : « جماعة متركب من أربعين رجلا فما فوق ذلك ، اشتروا آخرتهم بدينياهم ، بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا ، وعاهدوا الله على إنكار المنكر والأمر بالمعروف ، بدون مبالاة ولا خوف من الموت ، ولو أدى بهم ذلك إلى القتال ، فهم دائما يمتحنون الأئمة والعمال ، بما يستدلون به على سرائرهم ، وخفايا مقاصدهم وأعمالهم ، ويحمدون سيرتهم أو يذمونها ... ولذلك تجعل الأئمة والحكام مرآشدهم نصب أعينهم ، لعلم الجميع بإخلاصهم العمل لله في إصلاح وإقامة الدين » (٣٠) .

وأغلب الظن أن تكوين الدولة الرسمية سائر سنة التطور ، غالفتة الأولى من حياتها حظيت بعدد من الأئمة الأقوياء ، تمتعت الدولة في عهدهم بالاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وكان الأئمة فيها شديدي الالتزام بحياة الزهد والتقشف وعدم الميل إلى مظاهر الأبهة والعظمة ، ولم تكن وظائف

الدولة فيها حكرا على عصبية بعضها ، تستأثر بها دون العناصر الأخرى ، حيث لم يسمح الأئمة الأقوياء بشئ من ذلك (٣١) . وبضعف الأئمة تفشى نفوذ العصبية القبلية ، والطوائف المذهبية ، حيث ازداد أثر هذه الطوائف وخاصة في أواخر عصر بني رستم ، الأمر الذي دعا الإمام أبو اليقظان محمد ه إلى الانتقاص من سلطات بعض القبائل ، التي كانت تستأثر بالمناصب العامة ، وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الإباضية ، كما اتخذ مجلسا للمشورة يضم إلى جانب شيوخ القبائل وأعلام المذهب الإباضى كثيرين من الكوفيين والمالكية والواصلية (٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد عجز الرستميون عن التوفيق بين مطالب الحكم ، ومطالب المذهب الإباضى ، ودارت الصراعات بين محاور مختلفة ، تمثل مصالح القبائل البدوية الطامعة فى السلطة ، ورغبات الفرس ، وتطلعات الجند والعرب (٣٣) . ويفسر بل ، وجوليان عجز الرستميين عن اتخاذ خطوات عملية لانقاذ نظامهم السياسى ، بأن الرستميين لم يكن لديهم جيش ثابت منظم يواجه هذه الأطماع (٣٤) ، الأمر الذى دعاهم إلى اللجوء إلى الأساليب الملتوية ، كالتهجس ، وتقديم الرشاوى ، والخداع فضلا عن الاختيال السياسى ، مما يدل على اختفاء أى أثر - تقريبا - لفكر الإباضية المثلث فى الميدان السياسى لنظم الحكم الرستمى بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم (٣٥) . فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، حين أعيتة الحيلة فى قمع ثورة خلف بن السمع ، بث العيون والجواسيس للوقفة بين خلف وأتباعه وأرسل إلى أتباع خلف سرا يمنهم بالأموال والضياح (٣٦) . ولجأ أفلح بن عبد الوهاب ، إلى سياسة الدس بين القبائل ، يقول ابن الصغير : « فلما رأى ذلك (أفلح) أرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها ، فأرشى بين لواتة وزناتة ، وما بين لواتة ومطماطة ، وما بين الجند والعجم ، حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب ، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفا من أن يعين صاحبها عليها » (٣٧) . واغتال أبو بكر بن أفلح صهره محمد بن عرفة الذى كان وريره ومساعدته الأمين فى إدارة شئون الدولة ، فأثار سخط الفقهاء وتبرمهم (٣٨) . وأخيرا لقي أبو حاتم يوسف بن محمد مصرعه على يد بعض المتآمرين من أبناء البيت الرستمى ، وذلك طمعا فى الوصول إلى الحكم (٣٩)

وأخذت الدولة الرستمية منذ قيامها بالأساليب المعروفة لإدارة الدول ، وإن غلب على هذه الأساليب طابع البساطة ، الذي يتناسب وأوضاع القبائل التي حكمت الدولة ، والتي غلب على معظمها الطابع البدوي . فقد وضع عبد الرحمن بن رستم نظاما بسيطا للقضاء ، والشرطة ، وحماية الأموال ، والصدقات ، وكان الناتج من أموال الجباية والصدقات ، يوزع بصفة خاصة على الفقراء والمساكين ، وقد يقوم الإمام بشراء الأكسية والجلباب الصوفية ، والفراء والزيت لهؤلاء الفقراء . أما رواتب الإمام ورجال الإدارة في الدولة والعمال ، فكانت تدفع من مال الجزية وخراج الأرض كما يقول ابن الصغير (٤١) .

وقد قسم الرستميون دولتهم إلى عمالات ، حصر الباروني بعضها وخاصة ما كان منها في شرق الدولة في المغرب الأدنى ، وذكر أهم الولاة والعمال الذين تولوا هذه العمالات . ومن هذه العمالات قفصة ، وسرت ، ونقراوة ، وقنطرة ، وجبل نفوسة ، وقابس ، وجبل دمر (٤٢) . وكان الأئمة الرستميون يتابعون العمال والرعية ، عن طريق رسائل يكتبونها يشرحون فيها مبادئ المجتمع الإباضي ، وكلها تركز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الأئمة (٤٣) .

وأُسند الأئمة الرستميون إلى عمال الأقاليم أعمال الجباية ، وتحصيل مطالب بيت المال ، ولدينا رواية تؤكد أن أفلح بن عبد الوهاب ، ألزم عماله بضرورة مراعاة فقه المذهب الإباضي في نظام الجباية (٤٤) . يتضح ذلك من خلال رسالة أرسلها أفلح بن عبد الوهاب ، للبشير محمد بن سلام ، أحد عماله يعطيه فيها مزيدا من السلطات داخل عمالته ، ويلزمه فيها بحدود الشرع ، فيما يختص بالخراج والجبايات ، يقول : « وأما ما ذكرت من أن أجعل لك سيلا وأطلق يدك ، وأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب . فلعمري إنه لكذلك ، لكن ليس في هذا (يقصد الخراج) ، إنما هي أسهم جعلها الله ، وأوقفها ، وهي وسخ أموال الناس ، وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ، ولا أمر ولا نهى ، إلا على قدر الاجتهاد ، فاتق الله ، واجتهد جهديك في توفير الحقوق ، وتوجيهها إلينا » (٤٥) .

وسار الرستميون على سس المشاركة في كافة النظم الإدارية الأخرى ، التي تكفل ضبط الأمور في دولتهم ، فأنشأوا جهازا للشرطة يقوم بأعمال الحراسة والمحافظة على الأمن (٤٥) . وأسس الإمام أبو اليقظان فرقة كاملة ، للقيام بأعمال الحسبة (٤٦) . وكان أفراد هذه الفرقة من قبيلة نفوسة الإباضية ، وحدد البرادى وظائفهم التي قاموا بها « بأنهم كانوا يمشون في الأسواق ، يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فإن رأوا قصابا نفخ في شاة عاقبوه ، وإن رأوا حمالا حمل على دابة فوق طاقتها أنزلوا حملها ، وأمرؤا صاحبها بالتخفيف عليها ، وإذا رأوا قلرا في الطريق أمرؤا من حوله بكنسه » (٤٧) .

وأقام الرستميون نظاما تمتع القضاة في ظلّه بالنزاهة التامة ، وحفظوا بالاحترام الكامل من قبل الأئمة ، حيث لم يسمح هؤلاء القضاة لأحد بأن يتدخل في شئونهم (٤٨) . وكان القاضي يرى أن الأئمة وأبناءهم فوق كل الشبهات ، وينبغي أن يكون الجميع قدوة طيبة للرعية . لذا نجد القاضي محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ يستقيل من منصب القضاء ، لأن أبناء الإمام أبي اليقظان ، استغلوا كونهم أبناء الإمام ، وارتكبوا بعض الأخطاء فأصبح هذا القاضي بالغداة ، كما يقول البرادى : « إلى أبي اليقظان فرمى إليه بخاتمه وقمطره ، وقال له : ول على قضائك من تريد فقال له : ما بك وما عراك ؟ فقال : ما تقمت عليك شيئا ، ولكن تقمت على بئيك . قال : تركتهم عالة على الناس . فلما انصرف قال لمن حوله (أبو اليقظان) : اذهبوا إليه ، واسألوه عن بنى فمن ضمير منه مكروه رجرا ، وذهبوا إليه وسألوه فقال : دعوني من موالاته ، ما قوليت له قضاء أبدا » (٤٩) .

وفصلا عن ذلك ، اتخذ الرستميون الوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، والحراس ، ونظام السجلات والخاتم ، وكلها نظم ورسوم تأثرت إلى حد كبير بالتقاليد الفارسية في الإدارة والحكم (٥٠) . ومن أشهر الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة ، السمع بن أبي الخطاب (٥١) . ومحمد بن عرفة (٥٢) .

الحياة الاقتصادية

شهدت بلاد المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من المغرب الأدنى في عهد

الدولة الرستمية ، ازدهارا تجاريا كبيرا ونموا عظيما في حركة الاقتصاد ، حيث ساعد استقرار هذه المناطق تحت حكم الرستميين على ازدهارها ، بعد أن عانت زمنا طويلا من عدم الاستقرار الاقتصادى بسبب الاضطرابات التى سادت بلاد المغرب في عصر الولاة ، تلك الاضطرابات التى دمرت عناصر الاقتصاد المغربى في هذه الفترة ، وما تمخض عن الثورات التى قامت خلالها من تخريب للمزارع ، وإحراق للأشجار ، علاوة على ما أزهق فيها من الأرواح ، وما تمحدثه حالة الحرب من عديد مباشر لطرق التجارة ، مما كان له أثره السيئ في تفاقم أحوال البلاد الاقتصادية (٥٣) .

وباستقرار الأوضاع السياسية بقيام الدولة الرستمية ، سادت عناصر الحياة الاقتصادية الزراعة والصناعة والتجارة ، في طريقها نحو التحسن والازدهار . فكان الرستميون يمتلكون مجالات ضخمة من الأراضي الزراعية وفرتها الوديان ومجارى المياه الكثيرة التى تحيط بعاصمتهم تاهرت ، فالمعروف أن تاهرت تقع بين نهري عظيمين نهر مينة ، ونهر آخر يجرى إليها من عيون تتجمع تسمى تاتش (٥٤) . وهذان النهران يصبان في وادى ينبع من عين بجبل سوفجج ، ويتجه هذا الوادى نحو الشرق فيلتقى بوادى الفرعة ، وبوادى آخر يسمى وادى الوحش ، ومن ذلك كله يتألف واد يمر بجنوب مدينة شلالة . ويلتقى بوادى سوفجج من الشمال ، واد آخر يسمى قسنى (٥٥) . ويضاف إلى هذه الوديان - وغيرة المياه - كميات ضخمة من الأمطار الغزيرة (٥٦) . كان لها أثر كبير في تكوين السهول الخصبة في المغرب الأوسط ، وهى السهول المعروفة باسم سهول السرسو في جنوب تاهرت ، بالإضافة إلى سهول وادى شلف العنية ، وكذلك سهول الساحل (٥٨) . وقد اعتنى الرستميون كثيرا بكميات المياه الوفيرة المتدفقة إلى عاصمتهم فشقوا القنوات التى توصلها إلى بساتينهم ومزارعهم ومنازلهم (٥٩) . وكانت أهم المزروعات التى جادت في المنطقة ، القصبير ، والكتان والسمسم ، والحبوب (٦٠) . عدا بساتين الفاكهة التى كان السفرجل من أحسن أنواعها الذى يقال إنه يتفوق على سفرجل سائر الآفاق (٦١) . حتى لقد اشتهرت تاهرت بهذا الاقليم الزراعى الخصيب الذى يحيط بها فأطلق عليها عراق المغرب (٦٢)

أما السهول الساحلية للمغرب الأوسط فكانت كما يذكر ابن حوقل « متصلة الرساتيق والمزارع والضياح والمياه » (٦٣) . كما كانت المناطق الأخرى التابعة للدولة الرستمية في المغرب الأدنى حافلة بالمناطق الخصبة التي تروىها مياه العيون والآبار ، فكان أهالي جبل نفوسة يزرعون الزيتون والكروم والنخيل والشعير والخضر والفاكهة ، ويشتغلون بالصناعات الزراعية كمعصر الزيتون ، وصناعة الزبيب والتمر (٦٤) . ونشطت الزراعة أيضا في الواحات والمدن الصحراوية فاشتهرت واحة ورجلان بقباط النخيل الواسعة ، وبسكرة وبلاد الجريد بالنخيل والزيتون والفواكه (٦٥) .

وعدا هذه المجالات الزراعية ، انتشرت النطاقات الرعوية الواسعة ، التي دعمت اقتصاد الدولة بثروة حيوانية وفيرة ملأت أسواقها ، حتى أن ابن حوقل تحدث عن الوفرة الانتاجية التي تتعلق بهذه المراعى فقال ان تاهرت كانت : « أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبقال والبراذين والقراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الفلات » (٦٦) .

وازدهرت الصناعة هي الأخرى في المجتمع الرستمي ، لتلبى حاجات أفرادها ، وكان لتوفر المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات أثره في وفرتها ، فاشتهرت تاهرت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها الصوفية والكتانية والخيرية ، لتوفر حامات الصوف والكتان من المراعى والمزارع (٦٧) . واشتهرت مدينة قابس بصناعة دبغ الجلود بالقرظ ، وصدرته إلى أكثر بلاد المغرب (٦٨) .

كما تعددت المتاجم التي أمدت الصناع بمحاجاتهم ولوازم صناعتهم ، ففي جبل ارزوا توفر معدن الحديد والزئبق ، وخشب العطور (٦٩) . كما توفر معدن الحديد أيضا بالقرب من وهران (٧٠) . ويعكس ازدهار العمران في تاهرت العاصمة في عصر بني رستم مدى استخدام هذه المعادن في حركة البناء والتعمير . وعرف الرستميون صناعة الطواحين ، وأقاموها على الأنهار التي تشق عاصمتهم تاهرت مستفيدين من قوة تدفق المياه لإدارتها وتحريكها (٧١) . وجلبوا حجارة هذه الطواحين من مجانة بإفريقية (٧٢) . كما تقدمت صناعة الأواني الفخارية والحزف ، وخاصة ما كان يستعمل من هذه الأواني لغرس الأزهار ، ومواقد

الجمر ، التي كانت تستخدم للتدفئة ، ومن القرى التي اشتهرت بهذه الصناعة في العصر الرستمي ، قرية (ويغو) (٧٣) . وتدل قطع الأواني والخزف التي عثر عليها مارسيه ودسوس - لامار G. Marcais et Dessus Lamare - في حمريات تاهرت - على أن المدينة كان بها بعض من مصانع الأواني الفخارية والخزف ، وكانت هذه المصانع تمتد القصور والمنشآت الرستمية ، بما تحتاجه من قطع الخزف والأواني (٧٤) .

وقام الرستميون بنور بارز متفوق في مجال التجارة ، حيث لم تعق الخلافات السياسية والمذهبية بين الرستميين وجيرانهم حركة التجارة ، وبما أعطى الرستميين دفعة قوية في هذا المجال ، وقوع عاصمتهم تاهرت على طريقين من أشهر الطرق التجارية في ذلك الوقت طريق الشرق والغرب ، وطريق الجنوب والشمال (٧٥) . إذ هباً لها ذلك أن تكون مركزاً للتبادل التجاري بين بلاد السودان ، والمغرب والشرق ، وسواحل البحر المتوسط (٧٦) فبروى ابن الصغير أنه في عهد الرستميين « استعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة » (٧٧) . علاوة على ذلك كانت تاهرت مركزاً تجارياً داخلياً ، تلقي فيه القبائل البدوية لتبيع ماشيتها ، وتشتري ما تحتاجه من أسواق تاهرت من الحبوب والقمور والبضائع المستوردة من المشرق والأندلس وبلاد السودان (٧٨) .

وكانت أبرز العلاقات التجارية في عهد الرستميين قائمة بينهم وبين الأمويين في الأندلس ، وبينهم وبين بلاد السودان حيث قام الرستميون بنور الوسيط التجاري بين الطرفين ، وكانت أهم البضائع التي يصدرها الرستميون إلى الأندلس الحبوب ، ولاسيما الحنطة ، وماشية اللحوم ، والعبيد ، وبروى ليفي بروفنسال أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثاني حرص كثيراً على صداقة الرستميين لضمان إمدادات الحبوب والسلع الرستمية لرعاياه (٧٩) . وقد منح الرستميون التجار الأندلسيين كثيراً من التسهيلات في أثناء رحلاتهم ، وهبوا لهم سبل الإقامة ، والعمل في أسواق تاهرت ، وحوادثها ، حتى أن بعض هؤلاء التجار فضل الإقامة في تاهرت ، بينما كان البعض الآخر يعمل في نقل المتاجر بين البلدين (٨٠) .

وكانت أشهر السلع التي نقلها الرستميون من بلاد السودان الذهب والعيد والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات ، وذلك في مقابل ما يبيعونه هناك من المنسوجات الصوفية ، والكتانية والخيرية ، والقوارير الزجاجية ، والأواني الخزفية البراقة والملونة ، والأصواف والتحف المعدنية والأفاويه والعطور (٨١) . ومع هذه السلع نشر الرستميون الإسلام واللغة العربية في هذه الأصقاع ، وتلقى عنهم أهالي هذه البلاد كثيرا من الأنماط الحضارية الإسلامية ، وقد تحدث ابن بطوطة عن هذه المؤثرات الإباضية التي شاهدها هناك في رحلته المشهورة (٨٢) .

وقد حقق الرستميون أرباحا طائلة من الاشتغال بالتجارة ، ولدينا بعض الروايات عن عدد من الأثرياء في العصر الرستمي ، من بينهم الإمام عبد الوهاب نفسه ، الذي عمل بالتجارة قبل توليه الإمامة ، واتسعت تجارته مع بلاد السودان والحجاز واليمن والبصرة وغيرها من مدن الشرق حتى أنه قال يوما عن نفسه : « لو لم أكن أنا وابن جرنى وابن زلفين لأغنيا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية (الزكاة) . فهو ذو ذهب وفضة ، وابن جرنى فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر والشعير ، وقيل إن أنذر رزعة يرى مسافة أيام كالجبال ، وابن زلفين ذو ابل وغنم له من ذلك ما يعد بمئات الألوف (٨٣) . ونسمع أيضا عن ابن وردة الفارسي ، الذي ابتنى وحده سوقا خاصا به (٨٤) .

وقد جعلت هذه الحركة التجارية النشطة من تاهرت عاصمة فذة متألفة بين حواضر المغرب الكبرى في ذلك الوقت . حتى أصبحت تسمى بالعراق الصغير تشبها لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل (٨٥) . وابن الصغير عبر عن هذا بقوله : « فقل أحد أن ينزل بها (تاهرت) من الغرباء ، إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ومربعتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين » (٨٦) .

وتذكر بعض المراجع أنه كانت للرستميين سكتهم التي يتعاملون بها ، وأنهم قاموا بسك هذه العملة ، وإن كانت هذه العملة لم يعثر على نماذج منها حتى الآن (٨٧) . فيروى أن أفلح بن عبد الوهاب ، ضرب دنانير ودرهم للتعامل بها (٨٨) . والمقدسي يتحدث عن التعامل بهذه الدنانير والدرهم في بلاد المغرب ، فيذكر أنها انتشرت حتى دمشق ، وأنها كانت مطبوعة الكتابة ، وأن الدرهم « رال له نصف يسمونه القيراط ، وربع وثمان ، ونصف ثمن يسمونه الحرنوبة » (٨٩) .

وغير العملة استخدم الرستميون أنواعا من المكاييل والموازين ، تحدث البكري عنها ، فقال : « ومدهم الذي يكتبون به خمسة أقدرة ونصف ، قرطبية ، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فإنه قنطار عدل ، ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال » (٩٠) . ويعكس هذا النص أمرين : أولهما : أن المد المستخدم عند الرستميين هو المد الأندلسي القرطبي ، وثانيهما : حالة الرخاء التي يباع فيها قنطاران إلا ثلث من الزيت على أتهما قنطار واحد ، وخمسة أرطال من اللحم على أنها رطل واحد ، عدا السلع المستوردة كاللؤلؤ وغيره فإن القنطار منها يعدل قنطارا واحدا فقط .

ومن المكاييل التي استخدمت أيضا ، قفيز القيروان ، وهو اثنان وثلاثون ثمنا ، والتمن ستة أمداد بمد النبي ﷺ (٩١) .

الحياة الفكرية :

ارتبطت الحياة الفكرية في عصر بني رستم ارتباطا كبيرا بالمشهد الإباضي ، وإذا كان داعية الإباضية الأول سلعة بن سعيد قد تمكن من اختيار أربعة من معتقّي أفكاره الإباضية ، وأطلق عليهم اسم حملة العلم ، وأوفد هذه الجماعة إلى البصرة لتلقى العلم على يد داعية الإباضية الأكبر أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (٩٢) . فإن هذه الجماعات حين عادت إلى بلاد المغرب بدأت في نشر ثقافة المذهب الإباضي ، وذلك في حلقاتهم التي انتشرت في جهات المغرب الأدنى وإفريقية ، وفي تلك الحلقات لقن حملة العلم أتباعهم

علم الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء للفرق وعلوم اللغة والفلك والرياضيات (٩٣) . وكانت هذه الحلقات بمثابة المدارس التي تلقن طلبتها العلوم العقلية والعقلية في وقت واحد ، كما كانت مركزا لتعريب البربر ، وقحضيرهم (٩٤) .

ومنذ ذلك الوقت طغت شعور الدعوة الإباضية على الحياة الفكرية ، في بلاد المغرب الأوسط وخلقت مجالا عظيما للتنافس بين أتباع المذهب الإباضي وبين الفرق والمذاهب الأخرى - كالسنة المالكية والمعتزلة والشيعة - التي كانت قنجد هي الأخرى مجالا لنشر أفكارها (٩٥) . وقد أفسح الرستميون المجال لهذه الفرق والمذاهب ، فعقدت المناظرات ، وجلسات الجدل الطويلة ، التي كان علماء الإباضية دائما طرفا فيها ، ونذكر من هذه المناظرات ما كان بين علماء الإباضية ، والمعتزلة ، تلك المناظرة التي امتدت فترة طويلة ، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم طرفا في إحدى مساجلاتها (٩٦) ، ويروي البرادى أن هذه المناظرات كانت تعقد في خارج تاهرت على نهر مينة (٩٧) . ومن أشهر علماء الإباضية الذين ناظروا المعتزلة ، وتقوقوا عليهم ، مهدي النفوسى (٩٨) . وعمود بن بكر . يروي البرادى أنه كان مدارهم الذى يذب عن بيضتهم ويدافع عن مذهبهم ويرد على الفرق في مقالاتهم ، ويؤلف الكتب في الرد على مخالفيهم ، وكان عبد الله بن الدمطى مثله في الرد والتأليف والذب عن المذهب والدفاع ، وهو الذى يناظر المعتزلة والواصلية وسائر الفرق بالمغرب ، (٩٩) .

وقد أدى نشاط الحركة الفكرية على هذا النحو ، إلى أن يتجه الرستميون إلى توثيق علاقاتهم الثقافية بمختلف البيئات العلمية والاحتكاك بمراكز الثقافة سواء في المغرب والأندلس - في القيروان وفاس وقرطبة - أو في المشرق - في بغداد والبصرة ومصر - وكان الأئمة الرستميون في طليعة الباحثين عن هذه العلاقات ، فتروى بعض المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وأرسل ألف دينار إلى المشرق إلى إخوانه بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب فلما وصلهم الألف اشتروا بها رقفا فنسخوا له فيها وقر أربعين جملا

كتبها ، فلما بلغت تشمر وجد لقراءتها « (١٠٠) . وقد قال عبد الوهاب نفسه عن هذه الكتب انه قرأها فوجد ما فيها محفوظا في ذهنه عدا مسألتي لو سئل فيها لأجاب عنهما قياسا لما في هذه الكتب (١٠١) .

كما حرص بنو رستم على تأسيس مكتبة ضخمة ، أطلق عليها اسم (المعصومة) ، حوت ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب ، وقد قام الشيعة بحرقها ، لتدمير كل أثر للمفكر الإباضي المعادي لهم ، وذلك حين استيلائهم على تاهرت ، ولم يتركوا من هذه الكتب إلا ما تعلق منها بالرياضيات والفلك والهندسة والطب (١٠٢) . كما وجدت مكتبة أخرى في جبل نفوسة ، اشتهرت (بخزانة نفوسة) وكانت هي الأخرى تحوى آلافا من مجلدات العلوم (١٠٣) .

كما كرس الأئمة الرستميون حياتهم لنشر العلم في المجتمع الإباضي ، وحرصوا على القيام بذلك بأنفسهم ، لأهم كانوا في طليعة العلماء ، حيث كان العلم شرطا أساسيا لتولى الإمامة فكان بعضهم يقوم بالتدريس في جامع تاهرت ، ومسجد جبل نفوسة (١٠٤) . ولم يقف الأمر بهم عند حد التعليم وإنما اشتركوا أيضا في حركة التأليف ، فروى أن عبد الرحمن بن رستم كان له ديوان خطب نفيس ذكر الوريثين أنه رآه ، وله رسائل متعددة ، وجوابات كثيرة في فنون العلم بعضها موجود وبعضها مفقود (١٠٥) . وصنف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كتابا سماه مسائل نفوسة (١٠٦) . وله فتاوى مشهورة في كتب الفقه الإباضي (١٠٧) . وكان أفلع بن عبد الوهاب عالما بالحساب والفلك والتنجيم ، كما كان أدبيا شاعرا ، ذكر الباروني أن له عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم (١٠٨) .

كما نبغ في العصر الرستمي عدد كبير من العلماء ، كان شيوخ المذهب منهم بصفة خاصة يمثلون فئة اجتماعية ذات شأن كبير في تاهرت (١٠٩) . وكان بينهم علماء سنيون مالكيون كإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي المالكي ، وقاسم بن عبد الرحمن ، وزكريا بن بكر ، وابن الصغير المالكي (١١٠) . بل لقد سمح الرستميون للعلماء من غير المسلمين ، بمزاولة العلم والتبحر فيه ،

حتى نبع من بينهم اليهودى يهوذا بن قريش ، الذى ألف كتابا فى فقه اللغة المقارن ، بين اللغة العربية والعبرية ، والبربرية ، وحاول يهوذا فى هذا الكتاب أن يثبت أن اللغات الثلاث أصلها واحد (١١١) . ومن العلماء من ألف كتباً باللغة البربرية كابن سهل الفارسي (١١٢) .

وشاركت المرأة الرسمية فى الحركة الفكرية ، فكانت أخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب عالمة بالحساب والفلك والتنجيم (١١٣) . كما كانت العلة مارن إحدى العالمات بدقائق المذهب الإباضى فى جبل نفوسة (١١٤) .

ومن المراكز العلمية الهامة فى الدولة الرسمية غير تاهرت ، مدينة شروس ، بجبل نفوسة ، ومدينة جادو ، وقرية اجناون ، وجزيرة جربه ، وورجلان ، ومن أشهر العلماء الذين اشتهروا بجبل نفوسة الشيخ مهدي النفوسى ، ومحمد بن يانس ، وأبو الحسن الابدلاوى ، وعمروس بن ضح ، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناونى ، ومحمد الجناونى وغيرهم (١١٥) . وقد أتاح تعايش العلماء على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم فى تاهرت عاصمة الرستميين الفرصة لتكوين مدرسة لها معالمها الخاصة وسماتها الواضحة المتميزة فى تاريخ الفكر الإسلامى فى بلاد المغرب .

الحواشي

- ١ - هذه الدراسة عن حضارة الرستميين نشرت بمجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة بالعدد الثاني مايو ١٩٨١ .
- ٢ - اشتملت المقالة الرستمية على المغرب الأوسط - بلاد الجزائر الحالية - والأجزاء الجنوبية من إفريقيا - المعروفة الآن بتونس - المتصلة بإقليم جبل نفوسة وطرابلس في غرب المغرب الأدنى وهما في ليبيا الآن .
- ٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ط . دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥ ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ابن خلدون : المعبر ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٤١٩ .
- ٤ - ابن عذاري : البيان المغرب ، تحقيق ج . س . كولان ، أ . ليفي بروفنسال ، ط . بيروت ، ج ١ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
- ٥ - ابن الصعير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، تحقيق موتلنسكي ، ط . باريس ١٩٠٧ ، ص ٩ .
- ٦ - المصدر السابق ، ص ٩ ، ١٠ .
- ٧ - د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي ، دار العودة بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ١٩٤ .
- ٨ - الشماحي : كتاب السير ، ط . حيدر الجزائر ، ص ١٢٤ .
- ٩ - الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩ ، أبو زكرياء : السيرة وأنصار الأئمة ، مخطوط رقم ٦ أ ، قال حملة العلم لأبي عبيدة : (يا شيخنا أرايت لو كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا في أنفسنا طاقة فنولي علينا رجلاً منا فقال لهم أبو عبيدة : توجهوا إلى بلادكم ، فإن يكن من أهل دعوتكم من العدد والعدد ، ما تحب معه التولية عليكم ، فولوا على أنفسكم رجلاً منكم ، فإن أباهم فاقبلوه ، وأشار إلى أبي الخطاب) ، نفس المصدرين المتأخرين ، ونفس الورقات

- ١٠ - البرادى . الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٨٨ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة رقم ١٦ ، أبو ركرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١١ ب
- ١١ - الشماخى . السير ، ص ١٣٨
- ١٢ - المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
- ١٣ - د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ٣٨٤ .
- ١٤ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- ١٥ - المرجع السابق ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
- ١٦ - المرجع السابق ، ص ٣٨٥
- ١٧ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٩ .
- ١٨ - د . محمود إسماعيل : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، ط ١٩٧٦ ، ص ١٩٨ .
- ١٩ - الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ، وهؤلاء السبعة هم ، عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ومسعود الأندلسى ، وأبو قلادة يزيد ابن فندىح اليفرقى ، وعمران بن مروان الأندلسى وأبو الموفق سمحوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتانى ، ومصعب بن سمدان .
- ٢٠ - د . إبراهيم العلوى . التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية ، ط . ١٩٧٦ ، ص ١٧٤ ، والمعروف أن عمر بن الخطاب جعل ابنه عبد الله مشيراً بالرأى دون أن يرشحه للخلافة .
- ٢١ - الشماخى : السير ، ص ١٤٥ ، محمد بن تلويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٣ ، (ورقة الجند هذه تتألف غالباً من الخراجين على الأغلبة فى إفريقية ، وهي فئة كانت تأتمر بأوامر الأئمة الذين سمحوا لهم بالاقامة فى القصة (القلعة) المعصومة فى وسط تاهرت ، د . الحبيب الجنتحاني : المغرب الإسلامى ، ط . تونس ١٩٧٨ ، ص ١٢٥)

- ٢٢ - المصدر السابق ، نفس الصفحة ، د . محمود إسماعيل : الحوارج في المغرب الاسلامي ، ص ١٩٨ .
- ٢٣ - المرجع السابق ، ونفس الصفحة .
- Julien, Hist. de l'Afrique du nord (de la conquête arabe à 1930) p. 34.
- ٢٤ - ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، القسم الثاني ، مطبعة الأزهار البارونية ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .
- ٢٥ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٢ .
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ٣١ .
- ٢٧ - الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ ، الشماخي : السير ، (تمثل حركة النكار برعامة يزيد بن فندي - وهو أحد السبعة الذين رشحهم عبد الرحمن ابن رستم للإمامة - أول وجه للمعارضة للطريقة التي انتقلت بها السلطة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وقد أدى إحساس يزيد بن فندي وجماعته من النكار بقوة العامل القلي وتأثيره على تقلد منصب الإمامة ، إلى القول بضرورة ألا يغرد بالسلطة ، وأن يكون إلى جانبه مجلس من شيوخ المذهب ، للنظر في صحة قرارات الإمام) .
- ٢٨ - الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .
- ٢٩ - المصدر السابق ، ص ٢١٠ ، (وقد سمي الحوارج بالمشرك أنفسهم الشراة لأنهم كما يقول ابن منظور : « أرادوا أنهم باعوا أنفسهم لله » ، وقيل سموا بذلك لقولهم : « إنا شربنا أنفسنا في طاعة الله » ، أي بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة . وهذا المعنى للشراة في المشرق يتطابق مع معنى الشراة في المغرب الأوسط) . ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٩ ، ط . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ص ١٥٨ .
- ٣٠ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- ٣١ - د . محمود إسماعيل : الحوارج في المغرب الاسلامي ، ص ١٩٦ .
- ٣٢ - المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

- ٣٣ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- ٣٤ - الفرديل : العرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط . ١٩٦٩ ، ص ١٥٠ .
- Julien, op. cit., p. 39.
- ٣٥ - د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٢ .
- ٣٦ - المرجع السابق ، نفس الصفحة ، الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .
- ٣٧ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ، ص ٢٧ .
- ٣٨ - المصدر السابق ، ص ٣٤ ، د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٢ .
- ٣٩ - المرجع السابق ، نفس الصفحة ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٧ .
- ٤٠ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ، ص ١٥ ، ١٦ .
- ٤١ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .
- ٤٢ - المصدر السابق ، ص ٢١٣ - ٢١٧ .
- ٤٣ - المصدر السابق ، ١٨٨ .
- ٤٤ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .
- ٤٥ - البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٠ ، أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ط . ١٣٥٠ هـ ، ص ٢١ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ١ ، ط ٢ ، ٢٢١ .
- ٤٦ - المصدر السابق ، ورقة ٩٠ ، أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ص ٢١ .
- ٤٧ - المصدر السابق ، ورقة ٩٠ .
- ٤٨ - المصدر السابق ، ورقة ٩٠ ، ٩١ .
- ٤٩ - البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٠ ، ٩١ .

- ٥٠ - المصدر السابق ، ورقة ٩١ ، ابن الصغير . سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٤١ ، د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٠ .
- ٥١ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .
- ٥٢ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٣١ .
- ٥٣ - البلاذري : فتوح البلدان ، ت : د . صلاح الدين المنجد ، القسم الأول ، ص ٢٧٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٧٢ - ٧٥ ، د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٣ .
- ٥٤ - البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ط . مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٦٦ .
- - د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٣ .
- ٥٦ - د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ط . ١٩٦٦ ، ص ٥٧٦ .
- ٥٧ - ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٨ .
- ٥٨ - المرجع السابق ، نفس الصفحة ، دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ط . ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .
- ٥٩ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٠ .
- ٦٠ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٧ .
- ٦١ - البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .
- ٦٢ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦ .
- ٦٣ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ط . بيروت ، ٨٢ .
- ٦٤ - ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ط . أولى ، ١٩٧٠ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
- ٦٥ - مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ت : د . سعد زغلول عبد الحميد ، ط . ١٩٥٨ ، ص ١٥٠ ، ١٧٣ ، دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

- ٦٦ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٨٦ .
- ٦٧ - د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي ، ص ٢٠٦ .
- ٦٨ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٢ .
- ٦٩ - البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٧٠ .
- ٧٠ - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ت : محمد سعيد المريان ، ومحمد العربي العلمي ، ط . أولى ١٩٤٩ ، ص ٣٥٧ .
- ٧١ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ، ص ٩٠ .
- ٧٢ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٨٤ .
- ٧٣ - البلروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .
- ٧٤ - د . الحبيب الجحاني : المغرب الاسلامي ، ط . ١٩٧٨ ، ص ١٣٥ .
- ٧٥ - المرجع السابق ، ص ١٣٠ .
- ٧٦ - المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
- ٧٧ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ، ص ١٣ ، وبلد السودان هي النص هي السودان الغربي وكانت في ذلك الوقت تشتمل على الأقاليم الخمسة التي كوت مملكة مالي الكبرى وهي من الشرق بلاد تكرور ، ثم كوكو ، فمالي ، فصوصو ، فغانة ، وكل مملكة من هذه الممالك كانت مستقلة بذاتها عن الأخرى ، (د . صلاح الدين المسجد مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ١٠٣ - ١١٠) .
- ٧٨ - د . الحبيب الجحاني . المغرب الإسلامي ، ص ١٣٤ .
- ٧٩ - المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ،
- Levi-provencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris 1967, Vol. III, p. 271- 272. Conde, History of the dominions of the arabes in Spain, London, Vol. p. 291.
- ٨٠ - د . محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الاسلامي ، ص ٢٠٩ .

- ٨١ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، د . السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير ، ص ٥٧٧ ، أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ
الإباضية ، ط . ثالثة ، مكتبة الاستقامة ، تونس ، ص ٤٣ .
- ٨٢ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ط . ١٩٦٤ ، ص ٦٨ .
- ٨٣ - الباروني : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، (آلاف حمل من البر ، هكذا
في الأصل) .
- ٨٤ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ٢٧ ، د . السيد عبد العزيز
سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ .
- ٨٥ - د . أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط .
أولى ١٩٦٨ ، ص ٤٧ .
- ٨٦ - ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ، ص ١٢ ، ١٣ .
- ٨٧ - الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، د . السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير ، ص ٥٧٩ ، د . محمود إسماعيل : الحوارج في المغرب الاسلامي ،
ص ٢١٢ ، أرشيبالدلوس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،
ترجمة : أحمد محمد عيسى ، ط . مكتبة النهضة المصرية ، ٢٨ .
- ٨٨ - أبو الربيع : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٢ .
- ٨٩ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بيروت ، ص ٢٤٠ .
- ٩٠ - البكري : المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، ص ٦٩ .
- ٩١ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٢٤٠ .
- ٩٢ - المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .
- ٩٣ - البرادي : الجواهر المنتقاء ، مخطوط ، ورقة ١٠٦ ، د . محمود إسماعيل :
الحوارج في المغرب ، ص ٢١٩
Masqueray, E : Chronique h'Abouzakaria Alger, 1878, p. lxi.
- ٩٤ - المرجع السابق ، ص ٢١٩ .
- ٩٥ - د . محمود إسماعيل : الحوارج في المغرب الاسلامي ، ص ٢١٩ .

- ٩٦ - الشماخي : السير ، ص ١٥٥ .
- ٩٧ - الرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٢ .
- ٩٨ - البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١١٩ .
- ٩٩ - الرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٢ .
- ١٠٠ - الشماخي : السير ، ص ١٦٢ .
- ١٠١ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- ١٠٢ - البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، و د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٦ ، دبور : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
- ١٠٣ - المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .
- ١٠٤ - الشماخي : السير ، ص ١٥٩ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٤ .
- ١٠٥ - البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٩٨ .
- ١٠٦ - د . أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ط . أولى ١٩٦٨ ، ص ٤٧ .
- ١٠٧ - المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
- ١٠٨ - المصدر السابق ، ص ١٨٧ ، الشماخي : السير ، ص ١٩٢ ، الزركلى : الأعلام ، ط . ثانية ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .
- ١٠٩ - د . الحبيب الجندبى : المغرب الاسلامى ، ص ١٣٧ .
- ١١٠ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- ١١١ - أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ٧٩ ، ٨٠ .
- ١١٢ - البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٦٨ .
- ١١٣ - المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
- ١١٤ - على يحيى معمر - الإباضية و مركب التاريخ ، ط . ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨٩ - ٩٢ .
- ١١٥ - د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٥ .

ملحق رقم (١)

رسالة الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى الثائر نفات بن نصر

من أفلح بن عبد الوهاب ، إلى نفات بن نصر ، أما بعد ...

فالحمد لله المنعم علينا والمحسن إلينا الذي بنعمته تم الصالحات ولا يهتدى مهتدي إلا بعونه وتوفيقه فله المنة علينا ولا منة لنا عليه ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين وأثمتنا المهتدين الذين في اتباعهم نرجو الهدى وفي مخالفتهم نخشى الهلكة ، ولن يهتدى من خالف العدل ولن ينجو من ابتدع غير الحق لأن تلك البدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار .

وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه وأدعك إلى رشدك وفي كل ذلك لا يفتنى من عمالنا فيك إلا ما أكره ولا أرضاه لدين ولا دنيا حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل ما خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم وسار بغير سيرتهم وبتفيه وهجره وإقصائه ، فكتبت إلى كتابا كأنك تسخط ذلك ، أترى ألى أوازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كتبت بالهدى يفعل تلك ولا أوازر من يسعى في خلافنا ما كتبا على الهدى .

ثم قلت أنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ما كتبنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتابهم فهو محقوق بالبراءة من جماعة المسلمين فإن تكن أنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك وأحللت بنفسك ما لا بد لنا أن نفعله بك بغيرك وإن لم تكن كذلك فإظهار الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها .

وأما قولك (تبت مما كتبت به) فهو منك عبث إذ لم أشاهدك ولم
أشاهد موافقتك حتى يجب لك على أصل ولاية ، ولم يكن لك عندي تقدم
في الموافقة وإنما رفع إلينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا فأمرنا عمالنا أن يسيروا
في كل من ابتدع بسيرة المسلمين وكذبنا إليهم بذلك ، فجعلت تكتب إلينا
فيما ليس به كتاب . فعلام تتجاهل في الأمور ، فإن كانت غايتك إنما هي
أن نكتب إليك ونجيب وتكتب إلينا ونجيب فهذه غاية قصيرة والسكوت عنك
أهنأ وأولى بنا ونحن بمأمننا به أحق من مجاوبة أهل التكلف ومن ليس له غاية
إلا أن يقال فيه كتب فلان وقال فلان وفلان يفعل وفعل فلان ، وإن كانت غايتك
التصحيح فأنف عن نفسك ما رقى عليك وكن من جماعتنا وموافق أسلافنا ،
فإذا تبينت منك الموافقة والانتفاء مما رقى عليك كان ذلك هو الذي نحبه منك
ومن غيرك وليس لك عندي غير هذا ، وإن يكن حقاً ما رقى عليك وما قيل
فيك من مخالفة أصحابنا فأنت وما رضيت به لنفسك ، وإلى غير كاتب إليك
كتاباً بعد هذا إلا إن انتهى إلينا منك ما نحبه فننزلك من أنفسنا بحيث نحب
والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم « اه » .

ملحق رقم (٢)

رسالة من الإمام أفلح إلى عماله يدعوهم إلى تقوى الله ولزوم طاعته

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

« من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشر بن محمد سلام عليك وإلى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أن يصل على سيدنا محمد عبده ورسوله ﷺ وعلى آله - أما بعد - أليسك الله عافيتة فإن أذكرك عظمة الله لا تساهى وفكر فى صغير خلقتك وفى عظيم ما خلقه الله وما جعله من النكال والعذاب لابن آدم وما عافى به من فاز برحمته من عظيم خلقه من السموات والأرض والجبال والشجر وأذكرك ما أعدّه الله لابن آدم من الكرامة التى تكل الألسن عن وصفها فلو لم تكن كرامة تطلب النجاة من جهنم لكان فى ذلك ما ينبغى للعبيد أن ينصفوا من أنفسهم ويفارقوا جميع اللذات . إلا أنى أقول لك أن النبوءة لك فى هذا هو الاستغاثة إلى الله فى العصمة فمن أراد به الإحسان عصمه (أى حفظه من الاصرار على المعاصى ووقفه إلى التوبة) وجعله من أوليائه الذين قال لإبليس فيهم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان فاطلب الله وارغب إليه فى العصمة والتوفيق وأن يحول بينك وبين عدوك واعلم أنه لا شئ لمن عقل خير ممن وعظه ومن موعظة يأخذها . فأقبل واجتهد فى القبول إلى أن قال وأما ما ذكرته من أن أجعل لك سيلا وأطلق بك وأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب فلعمرى أنه لكذلك ولكن ليس فى هذا إنما أسهم جعلها الله وأوقفها وهى وسخ أموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهى إلا على قدر الاجتهاد

فأتق الله واجتهد جهديك في توفير الحقوق وتوجيهها إلينا على هذا مضى من كان قبلك ١ (١) .

(ب)

« أما بعد عافانا الله وإياك عافية المتقين الذين أنعم الله عليهم بطاعته وهداهم إلى ما اختلفوا فيه من الحق بإذنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ، كتبت إليك ومن قبلي في عافية والله لا شريك له أحببت أن أعلمك ذلك بالكتابة به إليك لتحمد الله على ذلك وتشكره كما هو أهله وأوصي نفسي وإياك بتقوى الله ولزوم طاعته والتوقى على دينه والتوكل عليه وحده . لا شريك له فإنه عز وجل يقول ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويورثه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً ﴾ فالزم التقوى بنفسك وأشعرها قلبك واصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم الأمور . والتقوى من الله بمكان عظيم والمتقون هم الفائزونخلصوا من هموم الدنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة ونكاتها . فمهدوا لأنفسكم وقدموا لمعادكم واعملوا عملاً يسركم غداً مكانه فكأنى بكم وقد فارقتم الدنيا ولحقتم بالمولق وعليكم بالقسك بما مضى عليه سلمكم الصالح أهل الفقه واليقين والبصيرة في الدين نظروا إلى الآخرة بقلوبهم فهان عليهم فراق الدنيا وما فيها . فلا تغربكم فإنها فانية رائلة فكأننا وإياكم قد فارقناها فوقفا بين يدي الله تعالى فيجزى الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى عصمتنا الله وإياكم بالتقوى ورجعنا العمل بطاعته فإنه ولي ذلك ومنتهى الرغائب لا شريك له ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ٢ (٢) .

(١) البارزى . الأثرها الرصاصية ، ج ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩

ملحق رقم (٣)

رسالة أبي اليقظان إلى جميع رعيته

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

« من محمد بن أفلح إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين ، سلام عليكم وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادي الأمة ﷺ - أما بعد - فإن أفضل ما يتواصى به العباد ويتحاضوا عليه تقوى الله تعالى ولزوم طاعته والزجر عن معصيته والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح ، وعليكم معاشر المسلمين بالتهنيء للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار وتتنير فيه الألوان ويشيب فيه الولدان وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، واعلموا رحمكم الله أن أهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة قد انقروا وقلت الخلوفا منهم فرحم الله امرأة مسلما احتسب بنفسه وأرصدها الله في طلب العلم والتقص على من حاد الله وعدل عن منهاج رسول الله ﷺ وضاد المحقين من عباده حتى تكون كلمة رسول الله هي العليا والباطل زهوقا ، وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضي من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم فاقتفوا آثارهم واهتدوا بهداهم واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن منهاجهم ، وخالفوا أهل البدع المضلة والأهواء المزلّة ممن أراد أن يبدل دينكم ويلبسكم شيئا ويلبس عليكم أمركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان ونفذ ما جاء به القرآن فأليس على الضعفاء أمرهم وزين بدعته في قلوبهم فحذع من لا بصيرة له ولا علم بما مضى

عليه الأئمة الراشدون ، رحمة الله عليهم والسلف الصالحون من أهل دعوتكم
فأفضل كثيرا وفضل عن سواء السبيل وقد ذكرنا لكم ما فيه الكفاية إن شاء الله
وبه نستعين وعليه نتوكل وما توفيقنا إلا بالله اه (١) .

(١) البروز . الأزهار الرياضية . ج ٢ . ص ٢٢١ ، ٢٢٢

المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

- ١ - البرادى : أبو القاسم بن إبراهيم البرادى النفوسى ، الجواهر المنتقلة فى إتمام ما أحل به كتاب الطبقات (رقم ٨٤٥٦ ح) بدار الكتب والوثائق المصرية .
- ٢ - السرجينى : أبو العباس أحمد السرجينى طبقات الإباضية (رقم ١٢٥٦١) بدار الكتب والوثائق المصرية .
- ٣ - أبو زكرياء : يحيى بن أبى بكر الوركلى السيرة وأخبار الأئمة فى انتشار مذهب الإباضية بالمغرب (رقم ١٧٣٦ تاريخ) مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .
- ٤ - النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكرى المعروف بالنويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب (رقم ٥٤٩ معارف عامة) بدار الكتب والوثائق المصرية .

ثانياً : المصادر العربية :

- ١ - ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (٥٩٥ هـ - ٦٥٨ هـ) .
الحلة السيرة تحقيق : د . حسين مؤنس الطبعة الأولى ١٩٦٣ .
- ٢ - ابن الأثير : أبو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم محمد بن محمد

- ابن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني (٦٣٠ هـ) .
الكامل في التاريخ . الجزء الثالث والرابع والخامس والسادس والسماع .
طبعة دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
- ٣ - أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي :
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . منشورات مكتبة الفرجاني
- طرابلس الغرب - ليبيا .
- ٤ - إسماعيل بن موسى الجياطي النفوسي : (٧٥٠ هـ) .
كتاب قناطر الخيرات - القسم الأول .
تحقيق : عمرو خليفة النامي مكتبة وهبة ١٩٦٥ .
- ٥ - ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي :
(٧٠٤ هـ - ٧٧٩ هـ) .
رحلة ابن بطوطة .
طبعة دار صادر ودار بيروت - لبنان ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٦ - البغدادي : صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (٧٣٩ هـ) .
مراسد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .
تحقيق : علي محمد البجاوي .
الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . دار إحياء الكتب العربية .
- ٧ - البغدادي : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفرائيني
التميمي (٤٢٩ هـ) .
الفرق بين الفرق .
تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، نشر محمد علي صبيح
- القاهرة .
- ٨ - اليكري : أبو عبيد (٤٨٧ هـ) ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية
والمغرب ط . مكتبة المثنى ببغداد .
- ٩ - البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان تحقيق :

- د صلاح الدين المسجد . ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ م .
- ١٠ - ابن تغرى بردى الأتابكي (٨١٣ هـ - ٨٧٤ هـ)
النجوم الزهرة في ملوك مصر والقاهرة . الجزء الأول - ط . وزارة
الثقافة والإرشاد القومي - ١٩٦٣ م .
- ١١ - ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
(٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ) . جمهرة أنساب العرب . تحقيق : عبد السلام
محمد هارون - دار المعارف ١٩٦٢ م .
- ١٢ - الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي
(٤٨٨ هـ) . جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس . الدار المصرية
للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
- ١٣ - الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله عبد المنعم الحميرى
(جمعه ٨٦٦ هـ) صفة جزيرة الأندلس تحقيق : إ . ليفى بروفنسال .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٧ م .
- ١٤ - ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى صورة الأرض . منشورات
دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ١٥ - ابن خردادبه : أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (٣٠٠ هـ) .
المسالك والممالك . نشر مكتبة المتنى ببغداد .
- ١٦ - ابن الخطيب : الورير محمد لسان الدين . تاريخ المغرب العربى فى
العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام .
تحقيق : د . أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد إبراهيم الكتانى .
طبع دار الكتاب - البدار البيضاء .
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام فمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك
الإسلام ، القسم الثانى ، تحقيق : إ . ليفى بروفنسال . مطبوعات معهد
العلوم العليا المغربية ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م . رباط الفتح .

- ١٧ - ابن خلدون . عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . الجزء الرابع والسادس .
طبعة . دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٨ م . وطبعة مؤسسة الأعلمي بيروت .
- ١٨ - الدباع : أبو ريد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى الأسيدى (٦٠٥ هـ - ٦٩٦ هـ) ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . الجزء الأول . تحقيق : إبراهيم شيوخ - مكتبة الخانجي ١٩٦٨ م .
- ١٩ - ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيى القيروانى ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس . تحقيق : محمد شمام - نشر المكتبة العتيقة بتونس . ط . الثالثة ١٣٨٧ هـ .
- ٢٠ - ابن أبي زرع : على بن محمد بن أحمد عمر بن أبي عمر بن أبي زرع الفاسى ، الأيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . تحقيق : محمد الهاشمى الفيلالى . المطبعة الوطنية بالمغرب ١٩٣٦ م .
- ٢١ - الزركلى : خير الدين . الأعلام قاموس تراجم . الجزء الأول والرابع . الطبعة الثانية ١٩٥٤ م - القاهرة .
- ٢٢ - ابن سعيد المغربى : أبو الحسن على بن موسى بن سعيد « الأندلسى » . كتاب الجغرافيا . تحقيق : إسماعيل العربى ط . أولى ١٩٧٠ م . مشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر - بيروت .
- : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق : زكى محمد حسن (وآخرين) ، الجزء الأول . طبع كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م .
- ٢٣ - السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الجزء الأول - مصر (١٣١٢ هـ)

- ٢٤ - السمعاني : أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني
الأنساب . طبعة معادة بالأوفست بمكتبة المثنى بيقناد ١٩٧٠ م عن
طبعة نشرها د . س . مرجليوس في لندن ١٩١٢ م .
- ٢٥ - الشماخي : أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد . كتاب السير ،
طبع حجر بالجزائر .
- ٢٦ - الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الملل
والتحل . الجزء الأول . تحقيق : عبد العزيز محمد الوكيل نشر
مؤسسة الحلبي - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٢٧ - الاصطخرى : ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى
الممالك والممالك . تحقيق : د . محمد جابر عبد العال الحيني .
طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- ٢٨ - ابن الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستميين في فاهرت تحقيق موتلنسكي
ط . باريس ١٩٠٧ م .
- ٢٩ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) تاريخ
الرسل والملوك - الجزء الرابع تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف دحائر العرب (٣٠) .
- ٣٠ - ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧ هـ) .
فتوح مصر والمغرب . تحقيق : عبد المنعم عامر . لجنة البيان
العربي ١٩٦١ م .
- ٣١ - ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .
تحقيق : ج . س . كولان و . ل . ليفي بروفسال ط . دار الثقافة
بيروت . الجزء الأول
- ٣٢ - ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣ هـ -
٢٧٦ هـ) . الإمامة والسياسة . الجزء الأول . ط . الثالثة . مكتبة
مصطفى الباوي الحلبي ١٣٨٢ - ١٩٦٣ م .

- ٣٣ - ابن القوطية القرطبي . تاريخ افتتاح الأندلس . تحقيق : عبد الله أنيس
الطباع . دار النشر للجامعيين - بيروت ١٩٥٧ م .
- ٣٤ - القيرواني : الرقيق . تاريخ إفريقية والمغرب . تحقيق : المنجي الكمي
نشر رفيق السقطي شارع فرنسا - تونس .
- ٣٥ - الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري . كتاب الولاة
وكتاب القضاة . تحقيق : رغن كست . طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين
بيروت ١٩٠٨ م .
- ٣٦ - المالكي : أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي . رياض النفوس
الجزء الأول . تحقيق : د . حسين مؤنس . الطبعة الأولى ١٩٥١ م
مكتبة النهضة المصرية .
- ٣٧ - مجهول : لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري
(١٢ م) . كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . نشر وتعليق
د . سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ م .
- مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله
والحروب الواقعة بينهم . نسخة معادة بالأوفست أعادتها مكتبة المشي
بيفداد عن طبعة في مدينة مجريط . بمطبعة ريدنير ١٨٦٧ م .
- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦ هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجواهر . الجزء الأول . ط . الأولى .
دار الأندلس ودار بيروت ١٩٦٥ م ، المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ ،
ط . كتاب التحرير (دار الشعب) .
- : أخبار الزمان ومن أباداه الحداث وعجائب البلدان والغامر بالماء
والعمران . الطبعة الثانية - دار الأندلس بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٤٠ - المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله البشاري (٣٧٨ هـ) .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . نشر مكتبة خياط . بيروت .

- ٤١ - المقرئ : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني . نفح الطيب من عصف
الأندلس الرطيب . الجزء الأول والرابع .
تحقيق : د . إحسان عباس . ط . دار صادر - بيروت ١٩٦٨ م
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ط . دار الكتاب العربي
- بيروت .
- ٤٢ - ياقوت : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت : بن عبد الله الحموي الرومي
البغدادى (٦٢٦ هـ) . معجم البلدان . ط . دار صادر ١٣٧٥ هـ
- ١٩٥٦ م ، ط . محمد أمين الخانجي ١٩٠٦ م .
- ٤٣ - اليعقوبى : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح . كتاب البلدان . فى مجلد
يحتوى على كتاب الأعلام النفيسة لابن رسته . طبعة معاودة
بالأوفست ، فى مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة فى مدينة ليدن . بمطبعة
بريل ١٨٩١ م .

ثالثاً : المراجع العربية :

- ١ - إبراهيم أحمد العلوى : (دكتور) . بلاد الجزائر تكوينها الإسلامى
والعربى . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠ م .
- ٢ - الأمويون والبيزنطيون . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الثانية
١٩٦٣ م .
- ٣ - موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى . سلسلة أعلام العرب ،
العدد (٦٨) أغسطس ١٩٦٧ م .
- ٤ - إبراهيم ررقانة : (دكتور) المغرب العربى . ط . معهد الدراسات
الإسلامية .
- ٥ - إحسان حقى : (دكتور) الجزائر العربية . منشورات المكتب
التجارى - بيروت ، ط . أولى ١٩٦١ م .

- ٤ - إحسان عباس : (دكتور) : تاريخ ليبيا دار ليبيا للنشر والتوزيع .
بنغازي ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٥ - أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر . المطبعة العربية بالجزائر
١٣٥٠ هـ .
- ٦ - أحمد شلبي : (دكتور) : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،
مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م .
- ٧ - جمال الدين الدناصورى : (دكتور) وآخرين : جغرافية العالم
(دراسة إقليمية) . مكتبة الأنجلو المصرية . الجزء الثانى .
- ٨ - حسن أحمد محمود : (دكتور) : الإسلام والثقافة العربية فى
إفريقية . دار النهضة المصرية - الطبعة الثانية .
— : قيام دولة المرابطين . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ م .
- ٩ - حسن على حسن عبد العواد : (دكتور) : دولة الأدراسة بالمغرب :
قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى . رسالة ماجستير
بكلية دار العلوم ١٩٦٧ م .
- ١٠ - حسن مؤس : (دكتور) : فتح العرب للمغرب . مكتبة الآداب
بالجماميز ١٩٤٧ م .
— : فجر الأندلس الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط . أولى ١٩٥٩ م .
- ١١ - دائرة المعارف الإسلامية : الجزء الرابع . مادة تاهرت .
- ١٢ : دبور : محمد على دبور . تاريخ المغرب الكبير . دار إحياء الكتب
العربية ط . أولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م . الجزء الثانى والثالث .
- ١٣ : أبى الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية الطبعة الثانية ، نشر
مكتبة الإستقامة بتونس .
- ١٤ : رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى
الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

- ١٥ - سعد زغلول عبد الحميد : (دكتور) . تاريخ المغرب العربي . طبعة دار المعارف ١٩٦٥ م .
- ١٦ - سيده إسماعيل كاشف : (دكتورة) : أحمد بن طولون سلسلة أعلام العرب العدد رقم (٤٨) سنة ١٩٥٦ م .
- ١٧ : السيد عبد العزيز سالم : (دكتور) : المغرب الكبير (العصر الإسلامي الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦ م .
- ١٨ - شكرى فيصل : (دكتور) . حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول . ط . دار العلم للملايين - بيروت .
... : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول . ط . دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٦ م .
- ١٩ - صلاح الدين المنجد : (دكتور) . مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين . دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٦٣ م .
- ٢٠ - عادل بنو بهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين . منشورات المكتب التجاري - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧١ م .
- ٢١ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العلم الجزء الأول الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ٢٢ - علي محمد حمودة : (دكتور) . تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والإجتماعي . مصر - دار الكتاب العربي ١٩٥٧ م .
- ٢٣ - علي يحيى معمر : الإباضية في موكب التاريخ مكتبة وهبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٢٤ - محمد أحمد حسونة : أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ، ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٦٠ م .

٢٥ - محمد الطمار . تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

٢٦ - محمد جمال الدين سرور : (دكتور) . الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، دار الفكر العربي ١٩٦٠ م .

٢٧ - محمد حلمي محمد أحمد : (دكتور) الخلافة والدولة في العصر الأموي القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

— : الخلافة والدولة في العصر العباسي . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

٢٨ - محمد ضياء الدين الرئيس : (دكتور) . عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ، سلسلة أعلام العرب ، العدد رقم (١٠) .

٢٩ - محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط . أولى ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م

٣٠ - محمود إسماعيل عبد الرازق : (دكتور) الأغابة سياستهم الخارجية . مكتبة سعيد رأفت ط . ١٩٧٢ م .

— : الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية . دار القلم - بيروت . ط . أولى ١٩٧٣ م .

٣١ - يحيى بو عزيز : الموجز في تاريخ الجزائر . المطبوعات الوطنية بالجزائر . ط . أولى سنة ١٩٦٥ م .

رابعاً . كتب مترجمة إلى العربية :

- ١ - أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط .
ترجمة : أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم : محمد شفيق غربال .
مكتبة النهضة المصرية .
- ٢ - رينهرت دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا الجزء الأول . الحروب الأهلية
ترجمة : د . حسن حبشى . دار المعارف ١٩٦٣ م .
- ٣ - يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية . ترجمة : د . محمد
عبد الهادي أبو ريده . سلسلة الألف كتاب رقم (١٣٦) .
- ٤ - رامباور : ادواردفون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ
الإسلامى . ترجمة : د . زكى محمد حسن ، د . حسن أحمد
محمود . الجزء الأول ط . ١٩٥١ م .

خامساً : أبحاث نشرت فى بعض المجلات العربية :

- ١ - حسين مؤنس : (دكتور) . ثورات البربر فى إفريقيا والأندلس مجلة
كلية الآداب جامعة فؤاد الأول . المجلد العاشر - الجزء الأول
مايو ١٩٤٨ م .
- ٢ - محمد بن تلويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد المجلد الخامس
١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- ٣ - محمود مكى : (دكتور) الخوارج فى الأندلس .
نظوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية العدد الأول ١٩٥٦ م .

المراجع الأجنبية

Diehl, ch.,

L'Afrique Byzantine (1896).,

Fournel, H.,

Etude sur la conquête L'Afrique par Les Arabes

Cautier, E., F.,

Le Passé de L'Afrique du Nord, (1964).

Julien, A.,

Hist, de L'Afrique du Nord (DE LA Conquête Arabe
A (1860).

Mercier, F.,

Hist, de L'Afrique Septentrionale, (1888).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٢
تقديم للأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العلوي	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
مقدمة الطبعة الثانية	١٠
تمهيد	١١
الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمغرب الأوسط	

الفصل الأول

الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبل قيام الدولة

الرستمية	٢٣ - ٧١
● الفتح الإسلامي لبلاد المغرب	٢٥
● عصر الولاة واضطراب أحوال المغرب	٤٧
● انتشار المذاهب الخارجية بين البربر والدلاع الثورات	
المحلية ضد الخلافة العباسية	٥٥

الفصل الثاني

قيام الدولة الرستمية

٧٣	١٠٨	
٧٣		● نسب الرستميين
٧٦		● البيت الرستمي

- طلائع صلة البيت الرستمى بالمغرب ٧٦
- ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الأحداث ٨٢
- التحالف الإباضى الصفرى ٨٧
- مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة ٩١
- بناء تاهرت ٩٥
- مساعدة إباضية المشرق للدولة الجديدة ١٠١
- نجاح عبد الرحمن بن رستم فى إدارة دولته ١٠٥

الفصل الرابع

١٨٦ - ١٥٥

خلفاء أفلح بن عبد الوهاب

- إمارة أبى بكر بن أفلح ١٥٥
- إمارة أبى اليقظان بن أفلح ١٦٦
- إمارة أبى حاتم يوسف بن محمد ١٧٤
- إمارة يقظان بن أبى اليقظان ١٨٢

الفصل الخامس

٢٢١ - ١٨٧

العلاقات الخارجية للرستميين

- علاقة الرستميين بالعباسيين ١٨٧
- علاقة الرستميين بمصر ١٩٢
- علاقة الرستميين بالأغالبة ١٩٦
- علاقة الرستميين بالأدارسة ٢٠٢
- علاقة الرستميين بدولة سجلماسة ٢٠٦
- علاقة الرستميين بالسودان ٢١٠
- علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس ٢١٤

الفصل السادس

حضارة الرستميين

٢٢٢ - ٢٣٨

- نظام الحكم والإدارة ٢٢٣
- الحياة الإقتصادية ٢٣٠
- الحياة الفكرية ٢٣٥

قسم الملاحق

- خريطة الدولة الرستمية ٢٤٨
- ملحق رقم (١) ٢٤٩
- ملحق رقم (٢) ٢٥١
- ملحق رقم (٣) ٢٥٣
- المصادر والمراجع ٢٥٥

تخلیپ جمیع منشوراتنا مسق

دارالمقام الكويت

مراجع المصدر: عمارة السور، مجلّة وزارة الخارجية القوية
ص. ٢١، ٢٠٢١ - رقم ٤٧٨ / ٢٠٢١

تاریخ: ۱۳۹۸/۰۵/۲۵

دائرالمقام دخیب

طريق التفت - نهاية القصير - أسم القمية
من حيا: ١٨٦٧ - مست: ٤٣٢٨٨٦

من: ١٨١٧ - ١٨١٨

To: www.al-mostafa.com